

THE
GOOD EARTH
BY
PEARL BUCK

الأرض الطيبة
بقلم pearl بک



ترجمة
محمد قباو عصفري

الأرض الطبية بيرك بيك

ترجمة

محمد جواد حنفى

ليسانس في الأدب الإنجليزي - جامعة القاهرة
دبلوم مهدي الترجمة والصفاة
دبلوم مهدي الترية المال للمطين - عين شمس

منشور الطبع والنشر مكتبة الصباح بالفتالة
تايفون ٧٦٦٨٢

كتب مترجمة للأستاذ محمد جاد عفيفي

١- قصة مدينتين عن تشارلز دكنز

٢- مستر بكويك د د د

٣- أوليفر تويست د د د

٤- قصص قصيرة لأعلام من الكتاب

٥- الأرض الطيبة عن بيرل بيك

٦- المساة القمرية د ويلكي كولنز

وتطلب من ملتزم الطبع والنشر مكتبة الصباح بالفجالة

لصاحبها : محمد كمال الدين صبيح



لقد وهبني الله الأرض ، والزوجة ، والولد . . . !

مقدمة

الأرض الطيبة: قصة الكفاح الدؤوب ، والأمل المتوئب

والسعى الحثيث لأداء الواجب ا

هى قصة الأرض التى يفيض بالخير باطنها ، ويجلو العين ظاهرها ،
وتشبع البطون غلتها ، ويدفع ركب الحضارة معادنها وذمها وفضتها ؛
هى ينبوع الحياة ورمسها ، ومهد الكائنات وقبرها ؛ تهدأ فتبتسم لبنيها
وعلى وجهها نبت وزرع وأزهار ، وتغضب وتثور فتفجر من قلبها النار
والخراب والدمار ..

هى الأرض القاسية الحانية ؛ العنيفة الرقيقة ؛ مبدأنا ومثاننا ؛
منشأنا ومستقرنا ؛ مسرح نشاطنا ، ومقر هدوئنا ..

الأرض مهيبة الروحى والرسلى والإنسان والحيوان والحشرات ؛
ومركز الهداية والغواية والشيطان والآفات ؛ د منها خلقناكم ، وفيها
نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ..

الأرض الطيبة: قصة الحياة الإنسانية ؛ ذات الصور الريفية ،

والمشاعر البريئة الفطرية ؛ قصة الصين فى ريفها ومدنها ؛ فى جوعها
وشبعها ؛ فى هدوئها وانفعالها ؛ فى جدبها وثراتها ..

تحليل القصة : وانج لنج فلاح فقير ؛ رأى نور الحياة فى الريف ،

فأجبه جياً ملك عليه وجدانه وروحه ، وقدس أرضه وأخلص لها ،

(ب)
وجاد في سبيلها بما وهبته الحياة من نشاط وصبر ، وقوة وعزم ؛
يستيقظ من نومه فيهرع إلى حقله ، وينام فيحلم بأرضه ، يجرد فيجنى ،
ويزرع فيحصد، ويقتصد فيثري، يتزوج فيسعد ويرضى ، تخاض له زوجته
العمر كله ، وتلد له البنين والبنات ، وتعمل معه في حزم وصمت وثبات ،
حتى إذا ما واتهما الثروة ، وحالفهما الدهر ، نسي أهله وأرضه إلى حين ؛
أما هي فلم تبهرها الفضة والذهب ، ولم تكف عن العمل بيديها في الحقل
والطين ا .

اتحد (وانج لنج) وزوجته (أولان) في الصفات والمشاعر ، ووجد
بين قلبيهما الفقر ، وما أسرع ما تتجاوب قلوب الفقراء . وتبدو
شخصية الزوجة (أولان) أقوى من زوجها في كدها وكفاحها وصمتها ،
وظلت على حالها لم تتغير أو تتبدل ؛ ولذلك كانت (أولان) ذات طابع
فريد ، ووحدة متماسكة ، صهرتها الحياة في بوتقة الحزن الصامت اللدين ؛
فكانت لا تثرثر أو تهرف أو تنحرف ؛ ولا شك أنها ستحوز إعجاب
القارىء لما جبلت عليه من خلال قوية ، وسماحة وديعة رضية .

تغلب وانج لنج على ما اعترض سبيله من صعاب ، واجتث ما في أرضه
من أشواك ، وحالفه الحظ فاشتري أرض السيد العظيم (هو انج) الذي
كانت زوجته (أولان) جارية رقيقة في بيته . . وهكذا تضرب المؤلفه
الأمثلة العديدة على أن النجاح ثمرة المجد، الصابر، العامل، الكادح، القانع
المقتصد ، الذي يحدوه أمل متجدد ، وتدفعه إلى الأمام غاية نبيلة .

بعد أن شبع وانج لنج وارثوى ، وصار من الأغنياء الموسرين ،
بهره بريق المال ، وأسرته شهوة الحياة ، فأنحرف عن الطريق المستقيم ،

(ح)

وهو الذى عاش طوال حياته مثلاً أعلى للسداجة ، وطيبة النفس ،
ووداعة الزوج ؛ لا يعرف من النساء غير زوجته وأم أطفاله ، لا يعنيه
قبجها قدر ما تزدهيه أخلاقها ، ولا تستهويه أنوثتها أو تضايقه خشوتها
ولإنما يسي عقله طهيها ونظامها ومعوتها . . . وبعد أن أصبح لديه المال
والولد ، والصحة والفتوة ، والفضة والذهب ، طغى وانج لنج وتكبر ،
ونسى سنوات البؤس والشقاء والمجاعة والقصط ، ورحيله إلى الجنوب
يكدح ويستجدى ، يرضى بأكلة ، ويهنا بكوخ ، ويسعد بدرهم ، أو خفنة
من أرز أو قح ؛ نسى هذا الشقاء كله ، ولم يعد يتذكر شيئاً سوى ماله ؛
فاحتقر زوجته ، وراماها بالقبح والدمامة ، وعيرها بالخشونة والقدارة ،
وأخذ منها لؤلؤيتها اللتين ادخرتهما لوقت الحاجة ، وأغدق هداياه على
(لوتس) تلك المرأة المرححة اللعوب ، الجية الرقطاء ، الناعمة الطروب ؛
فتزوجها وأفرد لها فى بيته جناحاً يفيض بالنعيم والأثاث والرياش ؛
ونهشت الغيرة قلب امرأته (أولان) إلا أنها لاذت بالصمت ، تشكوهما
الدين إلى ربها ، لعله يعيد إليها زوجها ، ويحفظ عليها أمنها ، ويقى من
غوائل الدهر أبنائها . . .

وهكذا أرادت المؤلفة (بيرل بك) أن تبين لنا أن المال والنساء هما
غاية الإنسان المنشودة ، إذا كانت نفسه عاطلة كسولة . . .

ظلت الكوارث تترادف على وانج لنج ، فنضب معين أرضه ،
وأرسل الله إليه عمه وزوجته وابنهما ليعيشوا عالة عليه ، يحطمون من
عسرح سعادته، ويأتون على بقية ماله وثروته ؛ وصدم والده الشيخ المحطم

(٤)

من هول الفاجعة ، عند ما علم أن ولده قد تزوج ثانية ، وأنه أصبح متلافاً مبنذراً . . .

تيقظ ضمير وانج لنج متأخراً ، إذ كان ذات يوم وسط حقوله ، وقد انعكست عليها أشعة الشمس فكشفتها بلون فضي جميل ، فصرخ هاتفاً من أعماق قلبه ، ومزق سرواله الحريري ، ولطخ نفسه بالطين ، وعاد إلى (لوتس) فلاحاً من رأسه إلى أخمص قدميه ، فأشاحت بوجهها عنه ، ونأت بروحها منه ، ولكنه لم يعبأ بها ، أو يكثر لها ، فقد عاد حينه إلى أرضه ، ونازعه الشوق إلى حقله ، فعاد ينظم حياته ، ويعوض ما فاتته ، ويصلح ما أفسدت يدها ، ويبني من جديد ما حطمه غرامه وهواه ، فعكف على رعاية أبنائه وتربيتهم ، وعمل على هئاتهم بتعليمهم وتزويجهم ، وهرع إلى بيته الريفي بعد أن ماتت زوجته الريفية أولان ، ووالده الشيخ وصديقه الوفي (تشنج) ، وبعد أن قضى الله على عمه الشرير اللص ، وزوجته الماكرة الخبيثة ، وابنه الأفاق المتشرد .

عاد إلى أرضه الطيبة ، يتنسم هواءها ، ويمتج نظره بخضرتها ونباتها وزهرها ، ويشنف آذانه من موسيق جداولها المتزعة بالماء ، وطيورها الصداحة بالغناء . . .

عاد إلى أرضه أصل حياته ، ومصدر ثروته ، وصرح سعادته ، وأمل أسرته ، وعند ما عاد إلى أرضه ، عاد إلى دينه ، وفكر في آخرته وكان نفسه كانت تقول له : « ما أجمل الدنيا والدين إذا اجتمعا ، وأدرك أن السعادة ليست اكتناز المال ، وحبسه عن المعوزين والمحتاجين ، وإنما السعادة راحة البال ، ورضاء ضمير ، والصحة الطيبة ، وأداء الواجب ،

(هـ)

والتمسك بالشرف ، وخلق القويم ، وأن الحياة في سرائها وضرائها ،
ونعيمها وشقاتها ، هي هي الحياة ...

هذا الإطار الريني الجميل ، رسمته لنا المؤلفة النابغة (بيرل بك) بريشتها
الصناع في صورة أنيقة عميقة ، ولوحة جميلة رشيقة ، نالت بها إعجاب
الأدباء ، ورجال القصة ، فتوجوا هامتها بجائزة (نوبل للسلام) ، لأماتتها
في الوصف ، وأسلوبها القصصي السلس ، وثقافتها الرفيعة ، وهدفها
الإنساني النبيل ، الذي تركز عليه روايتها (الأرض الطيبة) فهي لم
تكتب قصة من وحي الخيال ، وإنما عاشت في الصين ، وخبرت أهله ،
وأحست بظلمهم وشقاتهم ، وانفعلت بإحساسهم ، فكتبت ما رأت
وما أحست في صدق وإخلاص ...

ولقد ولدت المؤلفة في بلدة هيلز بورو بولاية فرجينيا الغربية بأمريكا
سنة ١٨٩٢ ، ومكثت منذ طفولتها في الصين ، وغادرتها أعواماً قليلة
لتم تعليمها في وطنها أمريكا ؛ حيث نالت أرفع الدرجات العلمية التي
أهلتها للعمل في الجامعات الصينية ؛ وقد كتبت قصصاً وروايات عديدة
منها (ريح الشرق) و(الأم) و(آلهة آخرون) ثم وصفت أهوال الحرب
العالمية الثانية في روايتها (بندرة الفول) ثم أسست جمعية
(الشرق والغرب) ورضها نحو الفروق بين الغربيين والشرقيين ..

ولا مرأ أن روايتها (الأرض الطيبة) قد أ كسبتها شهرة عالمية ،
وأصبحت بها نجماً لا يخبو نوره . واحتلت مكاتنها في مصاف ديكنز
وشارلوت برونتيه ، وأميلي برونتيه ، وجين أوستن ، وفرجينيا وولف

من أعلام القصة الإنجليزية ؟

محمد جواد عفيفي

الفصل الأول

إنه يوم زواج « وانج لنج ، ولذلك لم يستطع بينه وبين نفسه أن يعلل أولاً لماذا اختلف الفجر عن كل فجر مضى إذ كان السكون يسود البيت لا يقطعه إلا سعال أبيه الذي كانت غرفته مواجهة لغرفة ابنه ، ولذا كان سعال الشيخ أول ما يرن في أذنيه كل صباح ، وكان من عادة « وانج لنج ، أن يظل راقداً في فراشه مرهفاً سمعه لتلك السعلة ، ولا يتحرك من مرقده إلا على صوتها ، وهي تقرب وتطرق أذنيه . .

ولكن في هذا الصباح لم يطل انتظاره بل إنه قفز من فراشه ، وأزاح ستائره وذهب تواراً إلى الطاقة المستديرة من النافذة ومزق الورق المحيط بها تمزيقاً وأخذ يتمم لنفسه : « إنه فصل الربيع ولست في حاجة إلى هذا ، وكأنما اعتراه الججل أن يجار برغبته في أن يبدو البيت أنيقاً في ذلك اليوم . . وهبت ريح رخاء ندية من الشرق فبدت له طالع يمن وبركة فالحقول كانت متعشة للبط لتنضج إلا أن المطر لن يسقط في هذا اليوم . ولكن في خلال أيام قليلة إذا استمرت هذه الرياح في هبوبها فسوف يتدفق الماء بالخير ، ويزدهر غلة الأرض .

وأسرع السطلي إلى الغرفة الوسطى وهو يرفع سرواله الخارجي الأزرق وترك صدره عارياً حتى يسخن الماء ليغتسل . . ودخل الحظيرة التي كانت في الوقت نفسه تتخذ مطبخاً . . فخار الثور في الحظيرة المعتمة عند دخوله ، وكانت مشيدة من اللبن كالبيت أي من حجارة كبيرة مربعة .

من الطين الذي انزع من أرض حقولهم ، وسقف بقش حنطتهم . .
ومن تربتهم بنى جده في شبابه القرن الذي احترق وأسود من إعداد
الطعام خلال سنوات عديدة . . واستقر على سطح القرن قدر ضخم
عميق مستدير من الحديد . .

وملأ هذا القدر كله تقريباً بالماء غمره من جرة من الطين المجفف
كانت بجوار القدر وأخذ يغمرها بحذر وحرص على الماء الثمين ثم رفع
فجأة الجرة إلى أعلا وأفرغ كل الماء الذي بها في القدر الضخم . .
إنه في هذا اليوم سيعتسل وينظف جسده كله . ١

ثم ذهب إلى ما وراء القرن واتقى حفنة من الأخشاب والخطب
الجاف الملقى في ركن من المطبخ ثم صفها في خفة ورقة ثم أشعل
النار من زناد قديم في قطعة من الحديد ، وألقى جذوتها في القش
فاشتعلت النار وتوهجت . .

إنه لآخر مرة يشعل فيها النار بيديه في الصباح فكم أشعلها كل صباح
سته أعوام منذ أن ماتت أمه . . كان يوقد النار ويغلي الماء ، ويصبه
في وعاء ثم يحملة إلى حيث كان أبوه يجلس على فراشه ، يسعل ويتحسس
الأرض بحثاً عن حذائه ولقد ظل الرجل العجوز يتربح ابنة كل صباح
في خلال اعوام ست لكي يحضر إليه الماء الساخن الذي قد يهدأ من
حدة سعاله في الصباح ، ولقد حان الوقت الذي يمكن للأب وإبنة أن
يستريحا فستحل امرأة بالبيت فلن يعاود ، وانج لنج ، استيقاظه كل فجر
صيفاً وشتاءً أ ليوقد النار ، وأنه ليستطيع أن يرقد في فراشه وينتظر
حتى يحمل إليه وعاء من الماء ، بل إذا جادت عليه الأرض وأخصبت

فسيكون في الماء الساخن أوراق الشاي ، فمنذ أعوام أينعت الأرض مرة
وأخذت عليه . .

وإذا أحست المرأة بالضيق فسيكون معها أطفالها ، وسيوقدون النار
بدلاً منها ، وتوقف د وانج لنج ، عن تأملاته ، فقد أسرته فكرة أطفاله
وهم يجرون داخل وخارج غرفهم الثلاث . . عما قريب سيولد له أطفال ،
وستصف السرر بجوار الحائط في الغرفة الوسطى ، وسيمتلأ بها البيت ؛
خمدت جذوة النار في الفرن عندما وصل د وانج لنج ، في تخيلاته إلى
السرر التي سوف تملأ نصف البيت الخالي من الأثاث ، وبدأ الماء يبرد
في القدر ، وظهر الرجل العجوز واقفاً في مدخل الباب وهو يتدثر
بملابسه التي لم يحكم أزرارها بعد . . وكان يسعل ويصق ، ثم خاطبه
وهو يلهث : « كيف لم تعد لي الماء بعد لكي أدفأ به ارتتي ؟ » . فحلق
د وانج لنج ، وقد اعتراه الخجل . . إلا أنه تتم من وراء الفرن قائلاً :
« إن هذا الوقود رطب ، والريح رطبة ، .

واستمر الشيخ يسعل ولم يتوقف إلا بعد أن غلا الماء ، فصب وانج
بعضاً منه في الوعاء . ثم بعد لحظة تناول كمية من الأوراق الجافة
الملتفة ، وبسطها على سطح الماء ؛ ونظر الشيخ أمامه واتسعت خدقاته
في شغف وبدأ في الحال متمللاً شاكياً : « لماذا أنت مبذر ؟ إن شرب
الشاي يساوي أكل الفضة ، فقال له د وانج لنج ، : « إنه يومنا ،
ثم ضحك ضحكة قصيرة وأردف قائلاً : فلنأكل وليهنا بالك .

وقبض الشيخ على الوعاء وهو يعبر عن عدم رضائه بصوت مكتوم
كصوت الخنزير ، وأخذ يراقب الأوراق وهي تفتح وتنتشر على سطح
الماء وقد بدا عليه أنه لا يطيق أن يجرع هذا الشراب الثمين . . فقال له

إبنة : إن الشاي سيبرد . . فرد عليه الشيخ قائلا : حقا . . حقا . . !
أخذ يتجرع جرعات كبيرة من الشاي الساخن ومع ذلك فلم يكن ساهم
أو ناسيا في أن يراقب (وانج) وهو يصب الماء بوفرة من القدر في برميل
عميق من الخشب ثم رفع رأسه وحلق في ولده ثم خاطبه على الفور قائلا :
هذا ماء وفير كاف لإنبات غلة محصول . . إلا أن وانج لم يرد عليه ،
واستمر يصب الماء إلى آخر قطرة منه . . وصرخ فيه والده قائلا : ماذا
حدث لك ؟ فأجابه وانج في صوت خفيض : إنني يا أبتى لم أغسل
جسدى كلية منذ عيد رأس السنة . . وهرول إلى الخارج حاملا البرميل
الصغير إلى غرفته الخاصة ، ولم يحكم غلق بابيه ، ووضع الشيخ فمه في فتحة
الباب وصرخ في إبنة قائلا : إن الأمور لن تستقيم إذا ما بدأنا مع
المرأة هكذا . . شاي في ماء الصباح ، واستحمامك هذا .

فصرخ وانج مجيئا : إنه يوم واحد فقط . . ثم أردف قائلا :
سأرش الأرض بالماء عندما انتهى من استحمامي ، وعلى هذا فلن يضيع
الماء سدى . . . وبذلك صمت الأب ، وفك الابن حزامه ، وخلع ملابسه
وعلى الضوء المشع من خلال كتلة مستديرة من الفتحة ، اعتصر فوطة
صغيرة في الماء المتصاعد منه البخار ، ثم أخذ يحك بها جسمه الأسمر النحيل ،
ثم ذهب إلى صندوق كان ملصكا لأمه وأخرج منه حلة قطنية زرقاء جديدة
ثم ارتدى فوقها سترة قطنية أيضا . . تلك السترة الفضفاضة التي كان يقصر
ارتداها على أيام الأعياد فقط . . أى اجمالا عشرة أيام أو نحوها في
العام كله . . ثم دلف بأصابعه في رأسه ، وفك رباط ضفيرته التي كانت
تتدلى على ظهره ، ثم اتزع مشظا خشبيا من المنضدة الصغيرة المتأرجحة
وأخذ يمشط شعره .

واقترب منه أبوه مرة أخرى ، ووضع فمه في فتحة الباب وصاح
متألماً أسأبقي بلا طعام هذا اليوم؟ إن عظامي في سنى المتقدمة هذه تظل
في الصباح رقيقة كالماء مالم يشد أزرها الطعام .

فرد عليه (وانج) مجيباً : سأتى حالا . . ثم استمر يجدل شعره في
خفة ونعومة ، ثم عقده في جدائل سوداء حريره . . وبعد هنيهة خلع
ردائه الطويل ، ثم طوى شعره حول رأسه وخرج حاملاً البرميل الصغير
المملوء بالماء ، إنه قد نسى طعام الافطار تماماً ، وأنه لسوف يسكب قليلاً
من الماء في مقدار من الخنطة ثم يقدمه طعاماً لوالده . . أما عن نفسه
فهو لن يأكل شيئاً ، وسرعان ما اعترته موجة من الغضب عند تفكيره
في أبيه وغنم لنفسه في فوهة الفرن قائلاً : إن عقل هذا الشيخ
لا يفكر في شيء سوى طعامه وشرابه . . نعم إنه آخر صباح يجب عليه
فيه أن يجهز الطعام لأبيه العجوز . . ثم وضع قليلاً من الماء في القدر ، بعد
أن اغترفه في جردل من البئر القريب من الباب ، وبعد أن غلى الماء سريعاً
خلط الخنطة به ، وحمله إلى أبيه الشيخ . . وخاطبه قائلاً : سنتعشى الليلة
أرزاً ياوالدى . . أما الآن فهناك هذه (العصيدة) . . فرد عليه أبوه قائلاً:
لم يتبق يا بنى في السلة سوى قليل من الأرز .

ثم أخذ مكانه الى المنضدة في الغرفة الوسطى ، وقلب الثريد الأصفر
السميك ، بعودين صغيرين من الخشب . . فرد عليه (وانج) قائلاً : إنه
ليجب بالتأكيد أن نقتل من طعام الأرز في عيد الربيع . . الا أن والده
لم يرد عليه ، فلقد كان يزدرد عشاءه من وعائه في نهم !

ذهب (وانج) إلى غرفته الخاصة ، ثم سحب على جسمه مرة أخرى

ردائه الطويل الأزرق ، وأرخی ضفيرة ثم مر يديه على حاجبيه الحليتين وعلى خديه ثم تساءل : لعله من الأفضل أن يخلقهما من جديد . فإن الشمس لم تبرز من خدرها بعد ، وفي استطاعته أن يجول في شارع الحلاقين ليخلق رأسه قبل أن يتوجه إلى البيت حيث زوجته المقبلة تنتظره ، ومادامت النقود معه فإن هذا كله يمكن .

وأخذ من حزامه كيسا من القماش الرمادي المتسخ بالدهن ، وعد النقود التي به ، فوجدها ستة ريالات فضية ، وحفنة من النقود النحاسية ولم يكن قد أخبر والده بعد ، بأنه قد دعا بعض أصدقائه إلى تناول العشاء في تلك الليلة ، ذلك أنه قد دعا ابن عمه الشاب وعمه إكراماً لحاظر والده وثلاثة من جيرانه الفلاحين في القرية ، وقد قرأ به على أن يشتري من المدينة في الصباح لحم خنزير ، وقليلاً من السمك الرخيص ، وحفنة من أبي فروة ، وبعض أعواد الغاب من الجنوب ، ومقداراً من لحم البقر ليسلقه مع بعض الكرنب الذي زرعه في حديقته . وإنه ليستطيع أن يشتري كل هذا لو تبقى معه نقوداً فائضة بعد شرائه الزيت وصلصة الفول فإذا ما حلق رأسه فقد لا يستطيع على الأقل شراء اللحم . . حسناً ، إنه سوف يخلق رأسه فلقد عقد العزم على ذلك فجأة .

ترك أباه الشيخ دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو رول إلى الخارج عند تباشير الصباح . وقد تلات أشعة الشمس على قطرات الندى التي كست عيدان القمح والشعير الممتدة بقاماتها الهيفاء . . فانحنى وانج ليفحص براعها المتعطشة للطر والتي لم تكتمل بعد ، ورفع رأسه إلى السماء فرأى في صفحاتها الغمام . وقد ران المطر على تلك السحب الداكنة ، التي تدفعها الرياح

أمامها في تناقل . وخيل إليه شراء عود من البخور ، ليضعه في المعبد
الصغير لرب الأرض .

وشق طريقه بين الحقول وسط الممر الضيق ، وسار في طريقه وقد
لاح على مقربة منه سور المدينة الرمادي ، ومن خلال بوابة هذا السور
أدرك أنه سوف يجتازها إلى البيت الشامخ حيث زوجته التي حلت به جارية
منذ نعومة أظفارها . . إنه لبيت هواج . . ودارت في رأسه هذه الخواطر
فهو عندما سأل والده : أفلا أتزوج إطلاقا ؟ ، قال له أبوه : إن حفلات
الزفاف تتكلف كثيرا في هذه الأيام اللعينة ، وإن النساء يرغبن في اقتناء
الخواتم الذهبية ، والملابس الحريرية قبل زواجهن ، أفليس من الخير
للفقراء أن يتزوجوا من الجاريات ؟ ، وعلى أثر ذلك تحرك والده بنفسه
وولى وجهه شطر بيت هوانج ، وسأل سادة البيت عن جارية يمكن أن
يتفضلن بها على إبنته كزوجة له . . وقال لهم : جارية ليست في ربيع العمر
ولارائة الحسن والجمال . .

ولقد عانى وانج الأمرين لأن زوجته لن تكون على قسط . وافر من
الجمال . . وعندما لمح والده في وجهه أمارات السخط صرخ فيه قائلا : وما
شأننا بالمرأة الفاتنة ؟ يجب أن نفتنى امرأة تعنى بالبيت ، وتسكدهج في الحقل
فهل ترضى المرأة الفاتنة أن تفعل هذه الأشياء ؟ إن فكرها الدائم سيكون
متصلا بملابسها التي توافق هواها . . لا ، إن المرأة الفاتنة لا مكان لها
تحت سقفنا فنحن فلاحون .

ولقد أدرك وانج أن أباه قد أبدع القول وأجاد ، ثم قال لوالده :
إني لا أريدها على الأقل أن تكون شوهاة الوجه من آثار الجدرى ، أو
تكون شففتها العليا مشقوقة .

فقال له أبوه : سنحاول أن نظفر بما يمكننا الحصول عليه .. مرحى !
لم تكن شوهاه الوجه بأثار الجدرى ، ولم يكن بشفتها العليا قطع .. ولقد
عرف ذلك تمام المعرفة ولم يدرك شيئاً سواه .. فلقد اشترى هو وأبوه
خاتمين من الفضة ، مطليين بالذهب وأقراطا فضية ، وكل هذه الهدايا حملها
أبوه إلى سيد الجارية كدليل وبرهان على الخطوبة ، وما عدا ذلك فلم
يعرف شيئاً قط عن المرأة التي ستصبح زوجة له ، إلا أنه في يوم الزفاف
سيتوجه إليها ويحصل عليها . . . ١

وتهادى إلى بوابة المدينة وهواء الليل الرطب يلفح وجهه فشاهد
السقائين خارج المدينة وعرباتهم محملة ببراميل كبيرة مملوءة بالماء ، المتدفق
منها كلما جالت هنا وهناك ، ولذلك كان نفق البوابة رطباً مبللاً ،
ذلك النفق الممتد تحت جدران سميكة مشيدة من الطين والتين ، كان رطباً
في أيام الصيف الفائضة ، ولذلك كان بائعو البطيخ يعرضون فاكهتهم على
أرضه إلا إنه لم يعرض بعد ، لأن الموسم لم يحن بعد ، ولكن سلالاً من
الخوخ الصغير الحجم الأخضر كانت موضوعة بجوار الجدران . . .
فهمس وانج لنفسه : إذا كانت زوجتي تحب الخوخ ، فسأشترى لها
حفنة عندهودق . . .

واستدار نحو البمين مخترقاً البوابة ، وبعد لحظة كان يجول في شارع
الحلاقين ؛ وعلى طول الطريق ، وفي صف مستقيم وقف الحلاقون خلف
أكشاكهم الصغيرة ، وذهب وانج إلى أبعدها ، ودخل وجلس على
الكرسي ، فرآه الحلاق وذهب إليه توأ ، وانهمك في صب الماء الساخن
في حوض صغير . . . وسأله الحلاق : أتريدها حلقة كاملة ؟

فأجابه وانج : رأسي ووجهي فقط ، فسأله الحلاق : هل أنظف لك أذنيك وخياشيمك ؟

فسأله وانج وكم يتكلف هذا علاوة على ما سبق ؟ فرد عليه الحلاق قائلاً : أربعه بنسات . . ثم أخذ يغمس قطعة من القماش في الماء الساخن ثم أخرجها . . .

فقال له وانج : سأعطيك بنسين . . . فرد عليه الحلاق قائلاً : سوف أنظف لك أذنا واحدة وخيشوما واحداً . . . ثم التفت الحلاق إلى زميل له وغمز له بنظرة خبيثة، وقال مخاطباً وانج : على أي جانب من وجهك تريد ذلك ؟
— كما تشاء . كما تشاء . . .

وحينئذ سمح للحلاق في أن يغطي وجهه بالصابون ثم يدلكه بيده ويحلق له ، وحالما حلق جبهة وانج العليا قال له : إنك لن تبدو فلاحاً كئيب الطلعة إذا ما حلقت لك شعرك ، فإن الحلاقة الحديثة، تقضي بقص الضفيرة . . وامتد المقص فاغراً فاهه حول خصل الشعر في قمة رأسه فصرخ فيه وانج محذراً : لا يمكنني قصها ما لم أستاذن والدي . . فقهقه الحلاق ، وترك دائرة الشعر كما هي . . . وما أن انتهت الحلاقة ، حتى دلف وانج إلى الشارع والرياح المنعشة تلامس جلده المحلوق الأملس . ثم أوغل في السوق ، واشترى رطلين من لحم الخنزير ، واستقرت عيناه على الجزار وهو يلقيها في ورق اللوتس ، ثم اشترى بعد ذلك ستة أوقيات من لحم البقر . . . وما أن انتهى من شراء هذا حتى ابتاع أيضاً مربعات من الفول المطحون ، المصنوع على هيئة (ألماظية) فوق ورق الفول (وهو لون خاص من الأطمعة الصينية) . . ثم ذهب إلى تاجر شمع ، واشترى عودين من

البنخور ، ثم استدار بخطوات ملؤها الخجل صوب بيت هوانج .
ولاول مرة امتلأ قلبه بالرعب وهو واقف أمام بوابة البيت ، ذلك
أن قدمه لم تطأ عتبة بيت منيف من قبل . . . وكان البيت مغلقا ، وواجهه
تمثالان لأسدين من الحجر ، هجج كل منهما على الجانبين لحراسة البيت
ولم يكن هناك إنسان سواه ، وعاد من حيث أتى ، إذ كان من المستحيل
أن يبلغ ذلك البيت ..

وشعر بإعياء مفاجيء ، فوجد أنه من الضروري أن يذهب أولا ،
وبتاع قليلا من الطعام فلم يكن قد أكل بعد ، فدخل مطعما صغيرا ووضع
بنسین على المنضدة ، وجلس إليها ، ولما اقترب منه صبي يرتدى مئزرا
لامعا أسود قال له : هات سلطانتين من عصيدة الأرز؛ وعندما أحضرهما
إليه التهمهما في شراهة ، دافعا ما فيهما إلى فمه بعودين من القش ، بينما وقف
الصبي قابضا على الدراهم بين إبهامه المتسخ وسبابته . . . وسأله الصبي :
هل تريد المزيد؟

فهر وانج رأسه ، واعتدل في جلسته ، ونظر حوله ، فلم يجد أحدا
يعرفه في الغرفة الصغيرة المظلمة المزدهجة بالمناضد ، ولم يكن بها سوى
رجال قلائل يأكلون ويشربون الشاي ...

وظل وانج جالسا بينما ارتفعت الشمس إلى عرشها ، وظل الصبي
واقفا يتطلع حوله في قلق وقال لوانج في قحة : إذا لم تطلب شيئا آخر ،
فعليك أن تدفع أجرا لكركسيك . . . واحتدم وانج غضبا وكان
موشكا على النهوض إلا أنه كان مشغول البال بالذهاب إلى بيت هوانج ،
فانفجر العرق فوق جسده كله كما لو كان يكدح في حقل . . .

وغاطب الصبي بانكسار قائلا: هات لى شايآ ... وما كاد الصبي يتركه حتى عاد يحمل له ، وسأله فى خشونة : أين الدرهم ؟

فوجد وانج أنه ليس هناك فائدة سوى أن يدفع فى الحال ، فأخرج من حزامه درهما آخر وناول له للصبي ثم شرب الشاي فى جرعة واحدة ، وانصرف سريعا من الباب الجانبي ، وسرعان ما وجد نفسه مرة أخرى فى الطريق ، وغنمغم لنفسه قائلا : لا بد بما ليس منه بد ... ثم سار فى خطى وثيدة صوب بوابة هوانج ...

وفى هذه المرة كان الوقت ، وقت الظهيرة وكانت البوابة مفتوحة وكان حارسها جالسا فى تكاسل ينظف أسنانه بعد غذائه ، وعثد ما لاح له طلعة وانج ، صرخ فيه بخشونة وقد حكم عليه من السلة التى فى يده أنه قد حضر لببيع شيئا ما ، فقال له : ماذا تريد ؟

فأجاب وانج بصعوبة كبيرة : أنا وانج لنج الفلاح ..

فأجابه البواب الذى كان مهذبا فى معاملة الأصدقاء الأغنياء كسيده وسيدته فقط : حسنا أنت وانج لانج الفلاح .. فاذا تريد ؟

فتضام صوت، وانج إلى درجة الهمس على الرغم منه وقال : هنا امرأة .. ثم بدا وجهه مبلا بالعرق وقد سطعت عليه الشمس فندت من الرجل قهقهة عالية وزأر قائلا : وإذن فأنت هو ... فلقد أخبرت أن انتظر حضور عريس إلا أنى لم أعرفك وأنت تحمل هذه السلة فى يدك ... فقال له وانج : إن هى إلا قطعة صغيرة من اللحم .. وتوانى وانج لنج عسى أن يقوده البواب داخل الدار . إلا أن البواب ظل ثابتا لا يريم .. ثم قال له أخيراً : إن قطعة صغيرة من الفضة هى الوسيلة الوحيدة ! ..

وأدرك وانج أن البواب يريد منه تقوداً فعقب قائلا :

إني رجل فقير ... فرد عليه البواب . دعني أرى ما في حزامك . .
وهنا كشر البواب عن أنيابه عندما نثر وانج في سداجة ما معه من
تهود في يده اليسرى ، وكان مبسوطا بها قطعة واحدة من الفضة ،
وأربعة عشر درهما من النحاس . . فقال له البواب في برود : سأخذ
قطعة الفضة .

ثم عبر البوابة في خطى سريعة مردداً : العريس . . العريس . . على
الرغم بما أعتري وانج من غضب شديد لما حدث ، ولما بدر من البواب
فلم يسعه إلا أن يتبعه ويسير في أثره حاملا سلته لا يتلفت يمينا ولا يساراً .
وبعد لآي بدا له أنه قد اخترق مائة غرفة ، ووقف البواب فجأة ،
ودفعه إلى داخل غرفة إنتظار صغيرة حيث وقف وحيداً ؛ بينما دخل
البواب غرفة أخرى وعاد بعد لحظة يقول :

إن السيدة الكبيرة تأمر أن تشرف بالمشول بين يديها وعند
ما حاول لانج أن يتقدم إلى الداخل ، أوقفه البواب صارخاً في وجهه
باشمزاز : لا يمكنك المشول بين يدي سيدة جلييلة وأنت تحمل سلة كهذه على
ذراعك فحبرني كيف يمكنك أن تنحني إجلالاً لها ؟ فأردف وانج على
الفور : حقاً . . حقاً . . إلا أنه لم يتجاسر على وضع السلة على الأرض خشية
أن يسرق منها شيء ، فلاحظ البواب الخوف على وجهه ، وصرخ فيه
ياحتقار شديد : في قصرنا المنيف هذا نطعم مثل هذا اللحم للكلاب .
وقبض على السلة ووضعها وراء الباب ، ودفع وانج أمامه في بهو واسع
لم ير له مثيلاً . . ورأى أمامه منصة تتوسط غرفة جلست عليها سيدة
طاعنة في السن قد لفت جسدها النحيل بالحرير الرمادي المطرز
باللآلئ ، وتطلعت إليه بعينين سوداوين صغيرتين حادتين ، غائرتين

كانها عينا قرد ، تلعان في وجهها النحيف الذي وخطه الشيب ،
وتجاعيد الكبر - فخر وانج في خشوع على الأرض ، ودق رأسه بأرض
الغرفة . .

فقلت السيدة للبواب : إرفعه . . هل جاء يطلب المرأة ؟ فأجابها
البواب : نعم أيتها السيدة الماجدة - ثم أقلت عليه السيدة العجوز نظرة
فاحصة وخاطبته قائلة : لملك أنيت تطلب الجارية المسماة (أولان) . إنى
لا ذكر أننا قد وعدنا بتزويجها لفلاح ما ... فهل أنت الفلاح؟ - فأجابها
وانج : هأنذا ياسيدتى : . . فقالت السيدة لجارية واقفة بجوارها : ناد
(أولان) في الحال . . . - وبعد هنية عادت الجارية تجر بيدها شابة
ربعة القوام ؛ طويلة نوعا ما عليها سترة نظيفة زرقاء قطنية ، وترتدى
سراويل ، فحقق قلب وانج عندما ألقى عليها نظرة . . . إنها إمرأته
بعينها : . .

وقالت لها السيدة في اهمال ، تقدمى أيتها الجارية . . إن هذا الرجل
قد أتى يطلبك . . ومثلت المرأة أمام السيدة ووقفت أمامها منكسة الرأس
وبداها متشابكتان .
وسألها السيدة : هل أنت على استعداد؟ ، فأجابتها المرأة في بطء
كان صوتها رجع الصدى : مستعدة يامولاتى . .

وعندما سمع وانج صوتها لأول مرة ، نظر إلى ظهرها وهي واقفة
أمامه ، لقد كان صوتها رخيفا ، ليس نشازاً ، أو ناعما ، بل جليا يدل على
طبع هادى ، وكان شعرها مرتبا ، ناعما ، ومصفقا ، نظفيا ، ولكنه
رأى وخيبة الأمل تملأ قلبه ، ان قدمها غير مربوطتين .

ثم خاطبت السيدة البواب أمرة : احمل صندوقها إلى البوابة ، ودعها

ينصرفان .. ثم نادى على وانج لنج وقالت له : قف بجوارها بينما أتحدث .
إن هذه المرأة جاءت الى بيتنا ، عندما كانت طفلة في العاشرة ، ولقد
عاشت في رعايتنا حتى بلغت الآن العشرين من عمرها .. لقد اشتريتها
في سنة اجتاحت الناس المجاعة عندما رحل والداها الى الجنوب لأنهما لم
يجدا ما يسدان به رمقهما .. ولعلك تراها الآن قوية البنية ؛ مكتنزة
الحديد ، ولذلك فهي ستشد أزرعك من في الحقل .. إنها ليست جميلة ،
ولكن لا بأس فأنت لا تطلب الجمال كما وانها ليست ماهرة إلا أنها تؤدي
ما يطلب منها خير أداء ، وطبعها هادى ، خذها وعاملها برفق .

ثم خاطبت المرأة قائلة : أطيعيه ؛ واحملى له أبناء تلو الأبناء ،
واحضرى طفلك الاول هنا لأراه .

فردت الجارية : سمعا وطاعا ياسيدتى الماجدة .

ووقفا مترددين ولم يدبر وانج هل ينبغي أن يتكلم أم لا . ولكن
السيدة العجوز قالت فى ضيق . هيا اذها - فأخى وانج رأسه سريعا ،
وأدار ظهره ثم انصرف وعروسه فى أثره ، وفى أعقابهما سار البواب
حاملا صندوقهما على كتفه ، ثم وضعه على أرض الغرفة التى كان وانج
قد ترك سلة فيها وعاد إليها ليأخذها ، إذ رفض البواب أن يحمل
الصندوق أكثر من ذلك ، بل إنه اختفى دون أن تصدر منه كلمة ما .

ثم أدار وانج وجهه نحو زوجته ، وتطلع إليها لأول مرة ، فراعه
منها وجهها المربع الذى تشيع فيه الأمانة ، وأنفها القصير ، ذو الخياشيم
الكبيرة السوداء ، وفها الواسع ، وكانت عيناها صغيرتين سوداوين ،
يشع منهما بريق من الذكاء ، بل كانتا مفعمتين بحزن دفين ، ورأى وانج

أن وجهها لا يشرق بالحسن ، أو تبدو فيه مسحة من الجمال ، أو أى نوع من الجاذبية ، فإ هو إلا وجه أسمر ، عادى ، ينبىء عن قوة الاحتمال والصبر ، وكفاه أن بشرته السمراء لا يشوبه أثر من آثار الجدرى ، وأن شفتها ليست مشقوقة ، ولمح قرطها المتدلين من أذنيها ، هديته اليها ولمح كذلك أن أصابعها مزدانة بالخاتمين اللذين كان قد أرسلهما لها ثم نأى بوجهه عنها ، وقد أشرق بسرور خفى . . حسنا أنه امتلك امرأته فقال لها : هاك هذا الصندوق ، وهذه السلة . . وبدون أن تنبس بكلمة انحنت على أحد طرفى الصندوق وحملته على كتفها وترنحت تحت ثقله ، وجاهدت لتنهض به ، بينما كان يراقبها وخاطبها بجملة .

« سأحمل عنك الصندوق ، وعليك بحمل السلة . ورفع الصندوق على على ظهره ، دون أن يعبر ثوبه المفضل أدنى اهتمام ، ورفعت هى الأخرى بدورها السلة وهى لا تزال معنة فى صمتها . . . وأخذ يفكر فى مئات الغرف التى قد اجتازها وظهره ينوء تحت هذا الحمل الثقيل . . . »

وتتم قائلًا : هل يوجد بوابة جانبية ؟ فأومات رأسها له بالإيجاب بعد لحظة قصيرة من التفكير ثم تقدمته فى أرجاء غرفة صغيرة ، غير مستعملة وكان لها باب مستدير قديم ، عبراه إلى الطريق .

وكان ينظر خلفه من حين لآخر ليتطلع إليها وهى تسير فى ثبات على قدميها الكبيرتين كأنما كانت معتادة على أن تسير هكذا طوال حياتها ، وكان وجهها لا ينطق بأية تعبيرات ، وعندما وصل إلى باب السور ، توقف وبحث ياحدى يديه فى حزامه عن الدراهم التى كان قد أودعها فى هذا المكان ، بينما ثبت الصندوق على كتفه بيده الأخرى ، وأخرج درهمين ، واشترى بهما ستة خوخات صغيرة ، ثم قال لها : خذى هذه والتهميها . . . فتناولتها من

يده في نهم ، وتركتها في يدها ، والصمت يعقد لسانها وعند ما نظر إليها
وهما يسيران على حافة حقول القمح ، وجدها تقضم إحداها ، ولما التفت
عيناها بعينيه ، أطبقت عليها يدها مرة أخرى ، وسكت فمها عن الحركة
وسارا على هذا المنوال حتى وصلا إلى الحقل الغربي الذي شيد فيه ، معبد
الأرض ، وكان هذا المعبد غير مرتفع ، لا يزيد ارتفاعه عن قامة إنسان ،
وقد بنى من طوب أسمر وسقف بالقرميد أو بالأجر؛ ولقد بناه جد وانج
لنج بعد أن أحضر له الطوب من المدينة على عربة كان يمتلكها . . .
وكان يقبع في بهو هذا المعبد تماثلان صغيران يشيعان الرهبة
والجلال . وقد بنى كل منهما من طين الحقول المحيطة بالمعبد ، وكان واحداً
من هذين التماثلين ، يمثل الإله ، والآخر يمثل زوجته ، يغطيها ثوبان
من ورق أحمر مذهب . . .

وفي غرة كل عام جديد كان والد وانج يشتري لها أفرخ الورق
الأحمر ، تقص كل منها بعناية فائقة ، ويلصق ثوبان جديدان على الصنمين
مادام المطر ينهمر عليهما كل عام . والتلج يعصف بهما ، وحرارة الشمس
تسطع عليهما في الصيف فتفسد ثوبيهما . . .

يبدأ أن الثوبين كانا يبدوان جديدين آنذاك . فشعر وانج لنج
بالفخر والته لمنظرهما الأخاذ ، فأخذ السلة من يد المرأة وبحث في دقة
تحت لحم الخنزير عن عيدان البخور ، وقلبه يرتجف خوفاً من أن يكونا
قد تحطما ، فيبدو ذلك فالأغير حسن ، ولكنه وجدها سليمة فلصقها
بجوار بعضها البعض في رماد عيدان البخور الأخرى المكسدة أمام الآلهة
ذلك أن جميع الناس في هذه المنطقة ، كانوا يعبدون هذين الصنمين
الصغيرين ، ثم أوقد النار في العيدان من زناد وقطعة من الحديد . . .

ووقف كلاهما : الرجل والمرأة أمام إلهي الحقول ، خشعا أمامهما في صمت رهيب ، بجوار بعضهما البعض ، بينما تصاعدت رائحة البخور ، وأخذت تتلاشى إلى رماد . ولما كانت الشمس آخذة في المغيب ، حمل وانج الصندوق على كتفه وتوجها إلى البيت . . .

وكان والد وانج يقف على عتبة الباب وهو يشاهد الشمس ترسل آخر شعاع أصفر ساعة الغروب ، ولم يلق لها بالا إذ كان عما لا يتفق مع سنه ووقاره أن يراقب امرأة ، ولذلك صرخ قائلا : إن هذه السحابة التي تتعلق بالطرف الأيسر من القمر الجديد تنهى بالمطر ، وهي لن تفيض بالمطر قبل الليلة القادمة — ثم صرخ مرة أخرى قائلا : وهل أنفقت نقوداً ؟ . . .

ووضع وانج السلة على المنضدة وقال : سيحل في بيتنا ضيوف الليلة ثم حمل الصندوق إلى غرفة نومه ، ووضعها بجوار صندوق ملابسه ووصل والده إلى الباب وخاطبه قائلا : لست أرى حداً لتبذير المال في هذا البيت . وفي الواقع أن الرجل كان يحس بسرور خاص لدعوة ابنه لضيوفه . ولكنه وجد أنه من الأنسب ألا يفصح عن شيء إلا الشكوى أمام زوجة ابنه حتى لا تصبح مسرفة - ولذا وانج بالصمت وأخذ السلة إلى المطبخ ، حيث تبعتها المرأة فقال لها : هذا لحم خنزير . وهذا لحم بقر وسمك . . . سيحضر سبعة ضيوف للعشاء ، أيمكنك طهي الطعام لهم ؟ ولم يتطلع لوجهها وهو يخاطبها لأنه وجد أنه ليس من اللائق به أن ينظر إليها فردت عليه المرأة بلهجتها البسيطة : لقد كنت جارية في المطبخ منذ أن حللت بيت هوانج . وكانت اللحوم تقدم في كل الوجبات .



وقف سوياً في خشوع وجمال في المعبود . . . !

فأوما لها وانج برأسه موافقا . وتركها ولم يرها حتى ازدحم بيته بالضيوف ، وفي مقدمتهم عمه وإبنه ، ورجلان من القرية ، وجاره القاطن بجواره ؛ المدعو تشنج ، وهو رجل ضئيل هادىء ، وما كادوا يحتلون مقاعدهم فى الغرفة الوسطى ، حتى ذهب وانج إلى المطبخ ليخبر زوجته أن تعد الطعام . وسر قلبه عندما قالت له :

— سأناولك الأواني لتضعها على المائدة فاني أبغض الظهور أمام الرجال ولقد تأوه وانج زهواً وفخراً لأن امرأته لم تخش الظهور أمامه ، ولكنها تأى ذلك أمام الأجنب ، وناولته الأواني بيدها أمام المطبخ ، ثم رتبها على المائدة فى الغرفة الوسطى ، ونادى بأعلى صوته على ضيوفه :
هيا تفضلوا الطعام ياعمى ، ويا أخوانى - وعندما قال له عمه المحب للمزاح :- ألن ترى عروسك ؟

أجابه وانج فى ثبات : إتنا لم نفتنر بعد . . . وليس من الصواب أن يراها أى رجل سواى حتى يتم قراننا .

ورجاهم وانج أن يأكلوا ، فأكلوا بشهية من الطعام اللذيذ الطعم ، وكان هذا الضيف يتمدح جودة صلصة السمك بينما كان الآخر يثنى على طهى لهم الخنزير ، وكان وانج برد عليهم مرة بعد أخرى : عفوا إنه طعام ردى . . . سىء الاعداد - والحق يقال أنه كان فى قرارة نفسه فخوراً كل الفخر بتلك الأصناف ، ذلك إنه بالإضافة إلى اللحوم التى طهتها المرأة فانها قد وضعت سكرأ ، وخلا ، وقليلاً من النبيذ .

وبماره فائقة أجادت طهى اللحم واستخلصت كل ما فيه من عصارة ومذاق ، حتى أن وانج نفسه لم يتذوق مطلقاً مثل هذه الألوان من الطعام على مائدة أصدقائه .

وفى تلك الليلة بعد أن انتهى أصدقاؤه من تناول الشاي ، وتبادل
النكات ؛ وبعد أن شيع آخر صديق إلى الباب ، دخل وانج إلى المطبخ
حيث وجد زوجته تغط في نومها على القش بجوار الثور ، فأخذها من
يدها وقادها إلى الخريقة التي كان قد اغتسل فيها في الصباح ، وأشعل شمعة
حمراء ، ووضعها على المنضدة ، فرحفت المرأة حول ركن من الستارة ،
وأخذت تعد الفراش لها ولزوجها . .

الفصل الثاني

في صباح اليوم التالي اضطررت وانج لنج في فراشه ، وأخذ يراقب زوجته ، وعلا سعال الشيخ عند الفجر ، فخاطبها زوجها قائلاً : احملني لأني وعاءاً من الماء الساخن ليدي في رقبتي .

فسألته قائلة : هل أضع به أوراق الشاي ؟

وأزعج سؤالها وانج ففكر في نفسه أنه حتى الجوارى قد لا يشربون في بيت هوانج الماء فقط ، ولكنه أدرك أن والده قد يتملكه الغضب لو أن زوجته قدمت له شايًا بدلاً من الماء . أضف إلى ذلك أنهم فقراء فرد عليها باكتراث : شايًا ؟ لا لا داعي ، فإنه يزيد حدة السعال عنده ... وظل راقداً في فراشه شاعراً بالدفء والكسل بينما أشعلت زوجته النار ، وغلت الماء في المطبخ ، وقد أمضى وقته مشدداً التفكير في عمله بحقوله ، وبذر اللقت الأبيض الذي سوف يشتريه من جاره (تشنج) وفي زوجته وطراً في باله فجأة سؤال : هل ياترى تحبه زوجته ؟

وفتحت باب غرفته ، ودلفت منه تحمل وعاءاً في كلتا يديها ، وعاءاً مليئاً بالماء المغلي ، وقد لاذت بصمتها المألوف .. في سريره وتناوله منها فوجد بعض أوراق الشاي تطفو على سطحه ، فسدد إليها نظرة سريعة ارتاعت منها وقالت له :

دإني لم أضع شايًا لوالدك الشيخ . وقد فعلت كما أمرتني ، ولكن لك فاني . : 1

وكان وانج لنج مسروراً ، ورد عليها قبل أن تنهى كلامها . إني أحبه إني أحب الشاي ، ، ثم أخذ يرتشف الشاي ويتجرع منه جرعات عالية ثم عن سعادته ، وقال مخاطباً نفسه : إن زوجتي تحبني حبا جما .

وجال في خاطره أنه في خلال هذه الأشهر لم يفعل شيئاً ما سوى أزه
كان راقب زوجته هذه ؛ وفي الواقع إنه كان يسير في عمله على نفس المنهاج
فكان عادة يحمل فأسه على كتفه ؛ ويتوجه إلى المساحات المقسمة من أرضه ،
ويزرع صفوفاً من الحبوب بالحب . ويحرق الحقل الغربي بالثوم والبصل ،
وكان من قبل يعد الوجبات لنفسه عند عودته من الحقل على الرغم من تعب
الشديد ، ولكن حاله قد تغير الآن فالطعام قد أعد له ليأكله ، والمنضدة
نظيفة قد أزيل ما علق عليها من تراب ، وقد صفت عليها بأناقة
الملاعق الخشبية .

إنه يستطيع الآن أن يأخذ مكانه على الدكة أمام المائدة ، فيتناول
طعامه في الحال ، أما زوجته فأنها بعد انصرافه في الصباح ، كانت تأخذ
بجرقة من البوص ، وتجول في أنحاء القرية تجمع العشب أو الورق ،
وتعود إلى البيت في الضحى بما يكفي من الوقود لطهي طعام الغذاء ، وهذا
لامراء أثلج صدر الشيخ لأنهم قد أصبحوا في غنى عن شراء الوقود . .
وفي المساء كانت تحمل فأساً وسلّة فوق كتفها ، وتذهب إلى الطريق
الرئيسي حيث تلتقط سبلة البنغال ، والحخير ، والحليل ، وتحملها إلى البيت
لاستخدامها كسباد في الحقل ، وكانت تؤدي هذه الأعمال في صمت تام
ودون أن يدعوها أحد إلى أدائها ، حتى آذنت الشمس بالمغيب ، كان
لا يستقر لها جنب ، أو تهدأ قليلاً تستشعر الراحة حتى تنتهي من إطعام
الثور وسقيه في المطبخ .

فرد عليها الرجل قائلاً : نعم . . نعم . . الطعام . ثم تبعها إلى
المطبخ كالطفل البريء ، بل أن تفكيره في الطعام جعله ينسى حفيده
الذي ستضعه ، واتخذ وانح مكانه على المقعد إلى المائدة ، وقد لفه الظلام
واحتمى رأسه بين يديه مفكراً ومحدثاً نفسه :

طفلي . . طفلي . . إنها حياة جديدة . ١

وكانت تأخذ ملابسهم وترقعها ؛ وتضع الفراش في الشمس ، وتغسل
أغطيته وتركها على أعواد الغاب لتجف ؛ وكل يوم يمر في أريوم تؤدي
عملا في أترعمل حتى بدت النظافة في أرجاء الغرف ، ولاحت عليها دلائل
العز والرخاء ، وخفت حدة السعال التي كانت تعترى الأب ، وكان يجلس
بجوار الجدار الجنوبي مستمتعا بدفء الشمس وأشعتها ، فتغفو عيناه
وقد شملت أوصاله الحرارة ، وملا قلبه الرضا .

وخيم الصمت على هذه المرأة ، فهي قليلة الكلام ، لا تتحدث إلا
في ضرورات الحياة ، وكان أحيانا يتجه بتفكيره نحوها ، ويده لا تكف
عن العمل في الحقل ، ماذا يا ترى قد رأيت في المائة بهو في بيت هوانج
وكيف كانت تمضي حياتها ، تلك التي لم يقاسمها ويشاركها فيها ، ولم يكن
ليتهدي إلى شيء ، ثم كان يعتربه الخجل لإغراقه في التفكير فيها والاهتمام
بأمرها ، فهي ليست أقل أو أكثر من امرأة .

ومع هذا كله فإن ترتيب ثلاث غرف ، وإعداد وجبتين ، ما كان
ليشغل بال امرأة ظلت جارية إل حين قريب في بيت عريق ، تعمل فيه
من الفجر حتى منتصف الليل .

وذات يوم بينما كان منهمكا في زراعة حبوب القمح ، شأنه في كل
يوم حتى كاد الأعياء يقصم ظهره ، وإذا به يرى ظلها وقد انعكس على
الأرض الذي كان منحنيا فوقها ، فرآها حاملة الفأس على كتفها ، وبدأته
الحديث قائلة : ليس في البيت عمل أؤديه حتى هبوط الليل . ثم لاذت
بالصمت ، وأعملت فأسها في الأرض على يساره في ثبات .
وأرسلت شمس الصيف القائظة أشعتها الحارة على أجسامهما ،

فتقاطرت حبات العرق من جبينها ، وظل كلاهما ينتقل من ركن إلى آخر كأنهما جسد واحد ، وقد انخرطوا في العمل ليستخرجوا ثمر الأرض الشهي . .

ولما أذنت الشمس بالمغيب ، ومالت إلى خدرها ، قوم ظهره في تودة وسدد نظره إلى زوجته ، فرأى وجهها وقد اختلط فيه العرق بالتراب . وجهها الأسمر الذي يحاكي الأرض لونا ثم قالت على طريقتها البسيطة ، وبلهجتها العادية التي لا يشوبها شيء سوى السذاجة ، قالت وقد سرى صوتها في نسيم الليل الهادي . :
— إني حامل ! . . !

وسمع زوجها كلماتها وظل في مكانه ذاهلا ساكنا ، فإذا باقته يكون رده على ذلك ؟ ولكن قلبه كان مفعما بالزهو ، فالتقط من يدها الفأس وقال لها : كفانا الآن ما أديناه من عمل . . واتهى يومنا . . هيا لنخبر أبي الشيخ !

واتخذا أوبتهما إلى البيت ، وهي تسير خلفه قيد خطوات ، كما ينبغي أن تسير المرأة ، وكان الشيخ واقفا بالباب ، وقد استبد به الجوع تواقا إلى وجبة العشاء ، التي لن يعدها لنفسه مادامت قد حلت هذه المرأة في بيته وكان قلقا فصاح قائلا : إني رجل عجوز لا يمكنني الانتظار لطعامي طويلا هكذا ! .

وبينا كان وانج يعبر الغرفة ، مر بوالده وأخبره بما قالت له زوجته ؛ فغمز الشيخ بعينه لحظة . ثم فهم ما قاله إبنه ، وقرقر بالضحك عندما دخلت زوجة إبنه الغرفة ، ولم يستطع أن يرى وجهها في الغسق وخاطبته في هدوء : ساعدك الطعام الآن . .

الفصل الثالث

حانت أيام الوضع : فقال وانج لزوجته :
— يجب أن يكون لدينا شخص يساعدك في ساعات الوضع —
إمرأة ما .

وهزت له رأسها نافية ، ومعبرة عن عدم حاجتها إلى مثل هذه المرأة ،
وكانت منهمكة في حمل الصحون من فوق المائدة بعد العشاء ، وأوى
الشيخ إلى فراشه ، فظلا جالسين سوياً في سكون الليل فسألها قائلاً :
أترفضين المرأة فهزت رأسها مرة أخرى ... أما هو فقد بدأ يالف حديثها
معه الذي لا يزيد عن إيماة بالرأس ، أو إشارة باليد ، أو على الأكثر
كلمة تخرج من فمها الواسع بلاطواعية أو اختيار واستطرد قائلاً : ولكن
الامر سوف يبدو غريباً شاذاً ، فالبيت لا يضم سوى رجلين . وكانت
أى تدعو امرأة من القرية في مثل هذه الأحوال ، ألا يوجد جارية عجوز
في ذلك البيت العظيم ، كنت تصطفينها وتصادقينها فيمكنها الحضور هنا
لمساعدتك .

فصرخت فيه غاضبة نائرة : لا أحد في ذلك البيت .

فسقط غليونه من يده وهو يملأه ، وحملق فيها ، إلا أنها كانت تجمع
العيدان الخشبية التي يأكلون بها ، وكانها لم تفعل شيئاً ، فقال لها في
دهشة : حسنا . هذا رأى ! ولكنها لم ترد عليه ، ثم استأنف
حديثه قائلاً :

« ليس في البيت سواي وأبي الشيخ ، وكلانا جاهل بهذه الأمور ،
إتما في حاجة إلى واحدة من البيت ، والآن ... »

وظلت تنظر إليه ، وبعد لحظة أجابت قائلة : عند ما أعود الى ذلك أليت سيكون طفلى على ذراعى ، وسألبسه معطفاً أحمر ، وسراويلاً مزركشة بورداً أحمر ، وسأضع على رأسه قبعة تحلى غررتها صورة ذهبية صغيرة (لبوذا) ، وفى قدميه حذاء رسمت على مقدمته صورة لشمس ، أما أنا فسأتحل حذاءً جديداً ، وثوباً من الحرير الأسود ، وسأدخل المطبخ الذى أمضيت فيه أيامى ، والبهو العريض الذى تجلس فى صدره سيدة البيت ، وسأدعهم جميعاً يروتنى ويرون طفلى .

إنه لم يسمع منها مثل هذه الكلمات من قبل ، وأدرك أنها وضعت أسس حياتها الجديدة جميعها بنفسها ، وإنما لاشك كانت تضع نهجها وهى تعمل بجوارحه فى الحقل . كم تدعو إلى الدهشة هذه المرأة ١١ ؛ إنه كان يقول لنفسه إنها لا تفكر فى طفلها إلا لما واهما تقوم بأداء عملها فى هدوء كما تعاقبت الأيام . يوماً فى إثر يوم . وأدرك أن الكلمات لا تخرج من فم لأول مرة ، وقال لها أخيراً : أظن أنك فى حاجة الى بعض المال ؟

فأجابته فى ارتياح : اذا تفضلت بمنحى ثلاث قطع فضية ، فإنها ستكون مبلغاً كبيراً ، ولكنى قد أعددت لكل شيء عدته ، ولن أضيع حرماً هباءً .

وتحسب وانج لانج فى حزامه ، وتذكر أنه فى اليوم السابق قد باع حملاً ثقيلاً ونصف حمل من الغاب الذى كان ينمو فى البركة ، بالحقل الغربى فى سوق المدينة ، وكان معه فى حزامه أكثر قليلاً مما رغبت ، فوضع ثلاث دولارات على المنضدة ، وبعد لحظة قصيرة ، أضاف إليها دولاراً رابعاً

وقال لها وهو يشعل غليونه : من الأفضل أن تأخذى القطعة الأخرى ، ليتمكنك أن تصنعى له أيضاً معطفه بقطعة من الحرير . وهما يكن من أمر فهو طفلنا البكر . . .

فلم تأخذ النقود في الحال — بل تمهلت وهي تنظر إليها ، فقالت وهي شبه هامسة : هذه هي المرة الأولى التي أتناول فيها قطعة من فضة . . . 11. .
وفجأة تناولتها ، وأسرعت إلى غرفة النوم . . .

وجلس وانج لنج يدخن ، ويفكر في العملة التي كانت موضوعه من قبل على المنضدة ، إن هذه القطعة قد اكتسبها من الأرض ، نعم هذه الفضة من باطن الأرض . . . 1. . وقبل زواجه كان يشعر انه كلما أعطى أحداً أنة قطعة كما لو كان يتزعم قطعة من حياته ليعطيها لشخص ما في إهمال . . . ولكن الآن ولأول مرة لم يحس بألم لتخليه عن هذه القطعة ، ذلك أنه لم ير القطعة الفضية في يد أحد التجار في المدينة ، بل أنه رأى بعين الخيال أن هذه النقود الفضية ، قد استحالت إلى ملابس تغطي جسم طفله ، وامراته هذه التي تشتغل بكل جهد وفي صمت ، والتي يبدو عليها أنها لا ترى شيئاً ، قد رأت أولاً طفلها هكذا مرتدياً ملابس على الصورة التي تخيلتها . . . 11. .

لن يكون أحد بجوارها عند ما تحين ساعة الوضع بل حانت تلك الساعة في ذات ليلة ، مبكرة قبل أن تتأهب الشمس للمغيب ، وكانت بجواره تعمل في جنى المحصول ، وكانا قد قطعاً سنابل القمح من قبل وامتلات بها الحقول على سعتها ، وعلت هامات الأرز . . . واستقامت على عودها ، ثم صارت ممتلئة بالمحصول الوفير ، وفتحت سنابلها بفضل هطول الأمطار في الصيف ، ودفء حرارة الشمس في بواكير الخريف ،

موظلاً سورياً يقطعان حزم الأرز طيلة النهار؛ وانحنى في مشقة وكأز
جسماً قد بدأ يتصلب، فتحركت في بطنه شديد، لذلك لم يتساويا في
جث المحصول، إذ كان صفه في المقدمة، وصفها ورائه، وازداد بطنه
عند ما ارتفع الضحى وولت الظهيرة وأوشك المساء على إسناد ستائره،
فعاد لينظر إليها في قلق، فتوقفت ثم تطلعت إليه قائلة: لقد حانت الساعة
يو سآذهب توأ إلى البيت، فلا تدخل الغرفة حتى أنادى عليك!...

وتوغلت في الحقول في طريقها إلى البيت وكأنها لا تتوقع أن شيئاً
سيحدث لها، فوقف يراقبها وهي تسير. وتكاثفت ظلمة الخريف،
تكسو الوجود بغلالة سوداء، وفي الحال تبعها زوجها إلى البيت.. فلما
وصل وجد طعام العشاء ساخنًا ومعداً على المائدة، لياً كل والده، فأدرك
أنها كانت قد توقفت لتعد طعامها، وتوقف بجوار باب غرفتها، ونادى
عليها، أملاً أنها سترد عليه ولكنها لم تجبه... ١

رفع الشيخ وجهه من صحفته ليقول:

كل وإلا برد طعامك، فلا تزعج نفسك الآن فقد يطول الوقت على ساعة
الوضع... ثم قال مرة أخرى كأنما يفكر فيها فقط: لعل في مثل هذا
الوقت من الغد أصبح جدا لولد ذكر ١٠٠٠ ثم جلس في ارتياح، وقد
أغرق في الضحك لفترة طويلة في ظلام الغرفة...

وتوقف وانج مرهفاً أذنيه على باب الغرفة، ولما نفذ صبره، ولم يعد
يحتمل أكثر مما يجب كاد أن يقتحم الغرفة، إلا أن صرخة حادة رفيعة
صدرت من الغرفة، وطرقت أذنيه، وأنسته كل شيء... فصرخ قائلاً
وقد نسى زوجته: أهو غلام ذكر؟ - فردت عليه في خفوت ووهن:
نعم إنه ذكر...

فأسرع وانج الى المنضدة، وتهاوى على المقعد، أما الطعام فكان قد
رد، وأما الشيخ فكان يغط في نومه على مقعده، نعم. لقد حدث كل
هذا على جناح السرعة - ثم أخذ يهر كتف أبيه الشيخ وصاح في ظفر
« انه طفل ذكر... ، قد أصبحت الآن جدأ وأنا أب ١١٠٠

واستيقظ الجد بغتة، واستغرق في الضحك كما كان يضحك قبل نومه
وتناول وانج لنج وعاء الأرز البارد وبدأ يأكل، وعند ما التهم كفايته،
وقف بياب غرفتها مرة أخرى ونادت عليه ليدخل، وكان نور الشمعة
الأحمر يضيء الغرفة، وهي راقدة على فراشها، تحت أغطيتها في عناية
ودقة، فوجد ابنه راقدأ إلى جوارها، ملفوفاً في زوج من سراويله
القديمة، كالعادة المتبعة في ذلك المكان وهوول إليها، ولم تسعفه الألفاظ،
وانحنى على الطفل لينظر إليه، وكان وجهه مستديراً، مجدأ، شديد
السرة، يغطي رأسه شعر طويل، رطب، أسود، وكان طفله قد كف
عن الصياح، ونام وعيناه مغلقتان تماماً ١٠٠

ونظر إلى زوجته، فأجابته بنظرة مثلها فنحن قلبه في صدره، لزوجته
وطفله. وقال وكأنه لا يعرف شيئاً آخر يمكن أن يقال:

— « غداً سأتوجه إلى المدينة، وسأشترى رطلاً من السكر الأحمر،
وأذيه لك في مقدار من الماء لتشريبه، وأخيراً نظر إلى الطفل وكأنما
قد بدأ يفكر فيه في تلك اللحظة فقط... سوف نشترى ملء سلة من
البيض، ونصبغها باللون الأحمر لتوزعها على أهل القرية، وبذلك يعرف
الجميع أنه قد أصبح لي ولد... ١١٠٠

الفصل الرابع

في صباح اليوم التالي بعد ميلاد الطفل نهضت المرأة كالمعتاد ، وأعدت لهم طعام الإفطار ، إلا أنها لم ترافق وانج لنج إلى الحقول للحصاد وبذلك عمل ذلك اليوم بمفرده حتى وقت الظهيرة ، ثم ارتدى رداء الأزرق ، وذهب إلى البلدة ، واشترى من السوق خمسين بيضة وإن ما تكن طازجة ، فإنها كانت جيدة ، كل بيضة منها بدرهم واحد ؛ واشترى ورقاً أحمر ، ليغليه في الماء مع البيض ليصطبغ باللون الأحمر ، ثم توجأ إلى حانوت لبيع الحلوى ؛ واشترى رطلاً أو يزيد من السكر الأحمر ، وأخذ يمتع نظره بمرأى البائع وهو يضع قفصاً من الورق الأحمر تحت الخيط الرفيع الذي لفه به ، وابتسم وهو يخاطب وانج : أهذا لأم قد وضعت حديثاً ؟

فقال وانج في ازدهاء : - إنه لإبني البكر . . . ١١

فقال له البائع : حظ سعيد . . . ثم بدت الدنيا جميلة لوانج وهو يسير تحت أشعة الشمس الحارة في الطريق المملوء بالتراب ، لقد كان أسعد إنسان في الوجود ١١

ثم دلف إلى حانوت لبيع الشمع والبخور حيث ابتاع أربعة عيدان من الطيب الشذى ، عوداً لكل فرد من أفراد أسرته ، ثم ذهب إلى المعبد وثبت العيدان الأربعة في الرماد المتخلف من البخور التي وضعها هو وزوجته آنفاً ، ووقف يشاهد العيدان وهي تشتعل وتتوهج ، ثم بعد ذلك عاد أدراجه إلى البيت رضي النفس ، قرير العين . . . ١١

وبعد أن مر هذا اليوم عادت المرأة إلى الحقل بجواره ، لتعمل دون

أن يدرك أى فرد مقصدها .. وانتهت أيام الحصاد ، وخزنت الحبوب ا
ولم يبق إلا غرس محصول الشتاء من جديد ، وعند ما بدأ وانج لنج في
حراث الأرض ، كانت زوجته تسير خلفه ، تحمل فأسها .. 10

اشتغلت المرأة طيلة يومها . وأرقدت طفلها على لحاف قديم ،زق
بفرشته على الأرض ، وكانت سمرة الأم وطفلها تحاكي سمرة التربة ، وعلق
تراب الحقول بشعر المرأة ، ورأس الطفل اللدنة السوداء .. 11

وأقبل فصل الشتاء فأخذنا يستعدان له . وكان يتدلى من عروق السقف
خيوط من البصل والثوم المجفف ! وفي أنحاء الغرفة الوسطى وفي غرفة
الشيخ ، وفي غرفهما كانت توجد حصر مصنوعة من البوص ، مطوية
على شكل زلع ضخمة مملوءة بالقمح والأرز ، وإن مقداراً كبيراً منها
لسوف يباع عند ما يكسو الثلج الأرض في عيد رأس السنة . حيث
يكون الناس قادرين على أن يدفعوا عن طيب خاطر ثمن طعامهم .. 10

وكان من عادة عمه أن يبيع حبوبه قبل أن يتم نضجها ، لكي يحصل
على نقود قليلة في يده . لذلك كان يبيعها وهي لم تنضج بعد في الحقل ليوفر
على نفسه مشتمة جمع المحصول ، وكانت زوجة عمه امرأة غبية ، بدينة ،
كسولة لا تكف عن طلب الطعام الحلو ، والأحذية الجديدة ، التي تباع
في المدينة ، وكانت زوجة وانج لنج على النقيض من ذلك تصنع الأحذية
ولزوجها ، ولوالده الشيخ ، ولنفسها ، ولطفلها ...

ولم يكن هناك إطلاقاً شيء يتدلى من عروق السقف في بيت العم ،
أما في بيته هو فكان يوجد كل شيء من فخذ الخنزير ابتاعه من جاره
تشنج ، وكانت فخذاً كبيرة ملحها أولاً تمليحاً كاملاً ، وعلقتها
لتجف ...

وفي غمرة هذا الخير الوفير ، كانوا يجلسون ليستقبلوا رياح الشتاء الباردة تهب من الصحراء على موقعهم الشمال الشرقي - رياح عاتية لاذعة.. وأصبح الطفل قادراً على أن يجلس بمفرده ، وكان كل فرد يرغب وانج ويجسده على طفله . ذى الوجه المستدير كالبلدر ، وكان خداه عاليين كأمه . . وصار الآن عند حلول الشتاء يجلس على لحاف على أرض الغرفة المبنية من الطين ؛ وكانوا يفتحون الباب الجنوبي للدار ليدخل منه النور ، ثم تندفق أشعة الشمس منه وتغمر الغرفة ، وتعصف الرياح من الشمال أن تؤثر في جدار البيت . . !

وكانت هذه الرياح الجافة لا تساعد حبوب القمح على الإنبات في التربة ، وظل وانج يرقب بقلق هطول الأمطار ، ثم انهمرت فجأة في يوم هادئ معتم ، فجلسوا جميعاً في البيت ينعمون بالرضا ، يراقبون انهمار الأمطار ، وسقوطها بغزارة في الحقول ، فتمسكت الدهشة الطفل ، ومد يده ليمسك تلك الخيوط الفضية من المطر وهي تتساقط ، فأثار ضحكهم ثم ضحك معهم . . .

وسرعان ما نضج القمح ، واستوى على عوده الأخضر فوق التربة الرطبة السمراء . . . 11

وكان في مثل هذا الوقت يطيب للناس التزاور ، لأن كل فلاح قد قد شعر لأول مرة أن السماء ، تؤدي أعمالهم في الحقول ، وأن محاصيلهم تروى دون أن تقصم ظهورهم في سبيل ذلك ، وفي الصباح كانوا يجتمعون في هذا البيت أو ذاك يشربون الشاي . . 11

ولم يكن وانج وزوجته يكثران من هذه الزيارات ولم يكن في القرية

بيت من البيوت المتناثرة تسرى في رحبته الدفء ، وتموح جنباته بالخيز
مثل بيتهم .

وأحس وانج أنه لو صادق أهل القرية إلى حد غير مألوف ، فلا بد
وأن تنشأ عادة الإقراض منه ، ولا سيما وأن عيد رأس السنة قد اقترب ،
ولا أحد لديه من المال ما يعينه على شراء الملابس الجديدة وإقامة
الولائم .. ١١ واستقر في عقر داره ، وانشغلت زوجته في ترقيع وحيالاة
الملابس ، بينما انهمك هو في إصلاح مجرفته المصنوعة من البوص
المشقوق ، وإذا ما وجد حبلها ممزقا ، فإنه ينسج لها حبلًا آخر جديدًا من
الكتان ، وإذا ما وجد طرفًا من المجرفة مكسورًا ، فإنه يثبت فيها قطعة
أخرى من البوص

وهكذا توزع العمل بينهما ، فبينما يقوم هو بكل الإصلاحات لأدوات
المزرعة ، كانت زوجته بدورها تقوم بإصلاحات الأدوات المنزلية . . .
وعلى هذا المنوال استقر كلاهما في البيت ، كل منهما راض عن صاحبه ،
راضح لمشيئته ، والسير على هواه ، إلا أنهما لم يتحدثا قط في شيء
سوى تبادل بعض الكلمات المتناثرة ، من حين لآخر مثل هذه الكلمات :

« هل ادخرت الحب من البطيخة الكبيرة للغرس الجديد ؟ » . . .
أو . . . « سنبيع التبن ، ونحرق سيقان الفول في الفرن . » أو . . . « أحيانًا
كان وانج يقول . « إن هذا الطبق من حساء الشعيرية لذيد حقًا . . . »
فتجيبه أولان قائلة :

« إن الدقيق الذي صنعناها منه هذا العام من أطيب وأجود القمح
الذي زرعهنا في حقولنا . »

وفي هذا العام هبطت على وانج كمية وفيرة من الدولارات الفضية تكفيهم وتزيد ، وكان يخشى على هذا المبلغ المدخر في حزامه ، فلم يخبر أحداً عنه سوى زوجته ، وملكتهم الحيرة في الاهتداء إلى مكان يحفظان فيه هذه الدولارات ، وبعد لآي حفرت المرأة بمهارة ثقباً صغيراً في جدار غرفتها ، خلف سريرها ، أخفاها فيه وانج ، وغطت هي على الثقب بقطعة من الطين ، فلم يبدو مطلقاً أن وراه ، أو فيه شيئاً ما ، وأحس كلاهما بشعور واحد خفي ، باقتناء ثروة خفية ، ولذلك كان وانج يسير وسط رفقاته راضياً عن نفسه كل الرضا ، وراضياً عن الناس أجمعين . . . ١١

الفصل الخامس

أهلت طلعة العام الجديد ، وكانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق في كل بيت ، وذهب وانج إلى المدينة واشترى من بائع الشمع بعض القصاصات من الورق الأحمر ، لصقها على أبواب بيته ، وعلى أدواته الزراعية ، تيمنا واستبشاراً بالخط السعيد ، واشترى أيضاً ورقاً أحمر لتكون أردية للصنمين ، صنعها أبوه لها صنعا متقنا ، ثم أخذهما وانج وألبسهما للصنمين ، وأحرق البخور أمامهما بمناسبة عيد رأس السنة ، واشترى لبيته شمعتين حمر اوين في ليلة العيد تحت صورة إله كانت معلقة على الحائط في الغرفة الوسطى فوق المائدة . . . ١٠٠

وذهب وانج مرة أخرى إلى المدينة ، واشترى دهن خنزير ، وسكراً أبيض ، وخطاطهما زوجته ، وصنعت منهما كعكاً دسماً للعيد ، وكان هذا الكعك يسمى كعك القمر ، كالذي رآته يعمل ويؤكل في بيت هو انج . . . ١٠٠

وعندما وضعت الكعك على المائدة ليبرد ، كاد قلب وانج يثب في صدره ، وينفجر من الفخر بزوجه ، وخيل إليه أنه لا يوجد امرأة مثلها في القرية ، قادرة على صنع ما صنعهت بيديها ، مثل الكعك الذي لا يتوفر على صنعه وأكله إلا الأغنياء والموسرين ولذلك قال : إنه لمن المؤسف أن يؤكل مثل هذا الكعك . ١٠٠

وكان والده يحوم حول المائدة ، جذلاً مسروراً كالطفل لرؤية هذه الألوان الحمراء الزاهية .

قال لإبنه : ناد أخى وأطفاله - دعهم يرون هذه الأشياء .
ولكن رغد العيش ، ووفرة الخير جعلت وانج رجلاً حريصاً ،
فالإنسان لا يجب أن يدعو الفقراء الجائعين ليروا الكعك فقط ، وكانت
زوجته ملوثة اليدين بالدقيق الناعم ، والدهن السميك فقالت : إننا لسنا
أغنياء غنى فاحشاً لنا كل سكر أبيض ، ودهناً ، فإنما قد أعددت هذا
الكعك لأحمله إلى سيدى العظيمة فى بيتها العظيم وسأحمل طفلى فى اليوم
الثانى للعيد ، وأقدم كعكى هدية لهم . وأصبح كل شىء عدا هذه الزيارة
إلى البيت العظيم فى ذلك العيد أمراً نافهاً ، ولذلك عند ما ارتدى وانج
معطفه القطنى الجديد الذى صنعته له زوجته أولان قال وانج لنفسه :
سأرتدى هذا الثوب عند ما أحجب زوجتى وطفلها إلى البيت العظيم .

ولما أشرق صباح اليوم التالى للعيد ، اليوم الذى تزور فيه النساء
بعضهن بعضاً ، بعد أن يكون الرجال قد أكلوا فشبِعوا ، وشربوا
فارتبوا ، إستيقظ وانج وزوجته عند ما لاحت خيوط الفجر ، فألبست
الأم طفلها ثوبه الأحمر ، وحنذاته المحلى بوجه النمر من صنع يدها ،
ووضعت على رأسه التى حلقها له أبوه بنفسه قبل أن تلفظ السنة الماضية
أنفاسها فى آخر يوم لها ، وضعت على رأسه قبعته الحمراء المتواضعة
المطرزة فى جبهتها صورة (بوذا) المذهبة ، ثم وضعت على السرير ، ثم
ارتدى وانج لنج ملبسه سريعاً ، بينما أخذت زوجته تمشط شعرها
الطويل الأسود ، وعقدته بدبوس من النحاس الأصفر المطلى بالفضة
الذى أهداه لها زوجها ؛ ثم ارتدت ثوبها الجديد الأسود ، وحمل زوجها
طفله ، وحملت هى كعكها فى السلة ، وانطلقتا سوياً فى الطريق ، وسط
الحقول الجرداء ، فى فصل الشتاء !

وحينئذ تلقى وانج لنج جزاءه الحسن عند باب بيت هوانج العظيم ،
ذلك إنه عند مالي البواب نداء المرأة فتح عينيه ، واتسعت حدقاته ،
وصرخ قائلاً : آه . وانج الفلاح . إنكم في هذه المرة ثلاثة أفراد . إنكم
سعداء وإن الإنسان ليس في حاجة لأن يتمنى لكما حظاً أسعد هذا العام مما
نعمتاً فيه في الزيارة السابقة . هلا جلست في غرفتي المتواضعة حتى أعلن
قدوم زوجتك وطفلك لدى سادتي ؟ ١ .

ومضى وقت طويل قبل أن يرجع البواب بالمرأة والطفل من داخل
الدار وبدأ على وجه المرأة آيات الرضى .
ونار وانج يجوارها مشغولاً لسماح مادار في داخل البيت مع زوجته
والسيدات ، حيث أنه انتهت مهمته لم يعد له شأن في البيت . وقال وهو
يسرع الخطى مع أولان ، خيراً ، ؟ فاقتربت منه وهمست له قائلة :
— أعتقد ، إذا سئلت أن أهل البيت لا يمتلكون مالا وثيراً
هذا العام !

فسألها وانج قائلاً . ماذا تعنين ؟ .

— أعنى أن السيدة الكبيرة كانت ترتدى هذا العام نفس الثوب
الذي ارتدته في العام الماضي ولم ألاحظ مثل هذا يحدث مطلقاً من قبل ،
أما الجوارى فليس لديهم ثياب جديدة ، فلم أجد جارية هناك ترتدى ثوباً
مثل ثوبي هذا ، أما عن طفلنا فلم يكن هناك طفل يماثله في جماله ، أو
يضارعه في بهاء ثوبه . ١ .

وما انتهت من كلامها هذا حتى علت وجهها ابتسامة عريضة ،
وضحك وانج ضحكة عالية ، ثم قال لزوجته : — ألم تسكتشفي لماذا قد
أصبحوا فقراء ؟ ، .

— د إن الطباخة التي كنت أعمل تحت إمرتها ، أخبرتني أن السادة الشبان الخمسة يبعثون اموالهم ويبدرونها كالماء في جهات غريبة ؛ وأن الإبنة الثالثة سوف تزوج في الربيع ، وانها ستحظى بالحصول على كل ما هو طيب وثمين ، ولذلك فلا بد وانهم سيصبحون فقراء .

ثم استطردت قائلة : د أما بخصوص السيدة الكبيرة فقد اخبرتني بنفسها انهم يرغبون في أن يبيعوا قطعة الأرض التي تقع في جنوب البيت خارج الأسوار حيث كانوا دائماً يزرعون الأرز .

فأعاد وانج مدهوشا : أيبيعون الأرض !

إنهم حقاً موشكون على الفقر — ما الأرض إلا لحم الإنسان ودمه !!
وفجأة جالت بخاطره فكرة ، فاستدار نحو المرأة وقال لها : هذا ما لم أفكر فيه ! سنشتري الأرض ! وحمق كلاهما في الآخر ، والسرور يفحمه ، والذهول يتملكها ! .

د وصاح في صوت كهوت السادة مردداً : سأشتريها — سأشتريها
من بيت هوانج العظيم ! .

فردت قائلة . إن هذه الأرض شاسعة البعد . وسيتحتم علينا أن نسير الصباح كله حتى نصل إليها .

فرد عليها مردداً ومؤكداً : سوف اشتريها ! . فأجابت قائلة : إنه لأمر محبب إلى النفس أن نشترى أرضاً ! . ولكن لماذا لانشتري قطعة من أرض عمك فهو يريد أن يبيع المساحة القريبة من حقولنا الغربي الذي نملكه .

فقال لها وانج في كبرياء : لا أريد شراء أرض عمى فتربتها يابسة
كالجير .. كلا .. سأشترى بالتاكيد أرض هوانج .

وكفت المرأة عن المعارضة وقالت :

دعنا نشترها ، ومهما يكن من أمر فإن الأرض التي تزرع بالأرز ؛
أرض طيبة ، وهي قريبة من الخندق وتستطيع أن تحصل على الماء كل
عام .. هذا أمر مؤكد ..

وانتشرت ابتسامة بطيئة خفيفة على وجهها ، وبعد لحظة قالت :
يا إلهي !! في العام الماضي ما كنت إلا جارية في ذلك البيت ...
وامسترا في سيرهما ، صامتين ، وقد تملكتهما هذه الفكرة
وسيطرت عليهما ...

الفصل السادس

إن قطعة الأرض التي اشتراها (وانج لنج) كانت حدثاً هاماً غيرت من مجرى حياتهما تغيراً ملحوظاً.. فأولاً بعد أن أخرج الفضة التي اكتنزها من الخائط، وحملها إلى البيت الكبير، امتلاً قلبه بالندم، وود لو أنه استرد فضته. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأرض سوف تستغرق منه ساعات من الجهد والعمل، وكما قالت أولان إنها على بعد أميال وأخيراً فإن هذه الأرض قد اشترت عن طريق وكيل السيد العجوز وهو شخص بغيض، ولذلك كانت أحياناً تبدو الفضة التي دفعها وانج لنج أكثر قيمة، وأعز من الأراض، ولا غرو فإن الإنسان يستطيع أن يراها أمامه فضة متألثة 100 حسناً. إن الأرض قد أصبحت ملكاً له على الرغم من كل شيء، وفي ذات يوم لم تكن شمس شاطعة، في الشهر الثاني من العام الجديد، ذهب ليلقي نظرة على الأرض، ولم يكن يدرى أحد أن الأرض قد أصبحت ملكاً له، ولذلك توجه ليرأها وحيداً، وكانت عبارة عن قطعة أرض مربعة من الطفل الأسود السميك تمتد بترامية بجوار الخندق المحيط بسور المدينة، وقال محدثاً نفسه وهو ينظر إليها في شكلها المربع، إن هذه الأرض لا تعني شيئاً لهؤلاء القاطنين في البيت الكبير، ولكنها بالنسبة لي تعني كل شيء 100

وأقبل الريح، وهبت رياح عاتية، تدفع سحباً مزقة تحمل بين طياتها المطر، وامتلات أيام وانج لنج العاطلة عن العمل في فصل الشتاء لمنتصف النهار، امتلات بالعمل الجدى، والكفاح المتصل، في أرضه.

وكان الجد الشيخ يعنى بحفيده الطفل ، بينما كانت الام تعمل مع زوجها ، من الفجر حتى غروب الشمس ، وعندما علم وانج لنج ذات يوم أن زوجته ستضع طفلا آخر ، كانت فكرته الأولى هي أنها لا يمكنها أن تعمل أثناء الحصاد وفيما عدا هذا لم يتخذنا في شيء عن الطفل الثاني ، حتى حان يومها في الخريف ، عندما وضعت فأسها في الحقل جانبا ، وهرعت متسائلة تجر أذيالها إلى البيت ، أما هو لم يرجع إلى البيت ذلك اليوم ليتناول طعام الغذاء ، لأن السماء كانت ترعد وتغطي صفحتها سحب داكنة ، أما أرزه الناضج تمام النضج فكان ينتظر حصاده ، وجمعه في حزم ، وبعد ذلك وقيل أن تؤذن الشمس بالمغيب ، عادت المرأة مرة أخرى لتعمل من جديد بجوار زوجها ..!

وسألها دون أن يتوقف عن العمل : أهو ذكر أم أنثى ؟ فأجابته

في هدوء : إنه ولد ثان ..!

ولم يتبادلا كلمة فيما بينهما ، إلا أنه كان مغمم القلب بالسرور ؛ وظل يكدح ويعمل حتى بزغ القمر فوق كتلة من السحب ؛ وانتهى من عمله بالحقل ؛ وعاد إلى البيت ..!

وبعد أن تناول عشاءه ؛ واستحم بماء بارد ، ومضمض فمه بالشاي دخل وانج الغرفة ليرى طفله الوليد وكانت أولان قد اضطجعت على سريرها بعد انتهائها من طهي العشاء ، بجوار طفلها ، وكان طفلا بدينا هادئا ، وديعاً ، في صحة طيبة ، إلا أنه لم يكن ضخم الجثة ، كالطفل الأول فنظر إليه وعاد أدراجه إلى الغرفة الوسطى ، قرير العين . أبناء كل عام ! حقا إن زوجته هذه لم تجاب له شيئا ، سوى الحظ السعيد ! فصاح

بوالده قاتلا : والآن يا أبتى الشيخ ، أما وقد ولد لك حفيد آخر ، فسنضع
حفيدك الأكبر ينام بجوارك .. ١

وكان الشيخ مغتبطا مسرورا ، إذ كان يريد منذ وقت طويل أن يحتضن
حفيده في سريرته ، ليدفنه ؛ ولكن الطفل ما كان ليبرح أمه ويفارقها
بيد أن جده أخذ يحملق في الطفل الجديد ، وهو راقد بجوار أمه ، وقد
بدا عليه أنه قد أدرك ، أن طفلا آخر قد احتل مكانه بجوار أمه ، فسمح
لنفسه أن ينام في فراش جده .

ومرة أخرى عاد عليه الحصاد بأطيب الثمر ، وجمع وانج نقود أفضية
كثيرة من بيع محصوله ، وأخفى النقود مرة أخرى في الحائط ، وأصبح
كل فرد يعلم الآن أن وانج لنج يمتلك الأرض ، وجرى حديث في القرية
لاختياره لهم رئيسا .. ١

الفصل السابع

أصبح عم وانج لنج مصدراً للقلق والمتاعب ، وهذا ما كان يخشاه وانج من البداية ، وكان هذا العم هو الأخ الأصغر لوالد وانج ، وطبقاً لما تقضى به تقاليد الأسرة جميعها ، له أن يعتمد على ابن أخيه وانج إذ أعوزته الحاجة ، هو وأسرته وما دام وانج وأبوه فقيرين فإن العم كان يجد الكثير الذي يمكنه من إطعام أطفاله السبعة ، وزوجته ، وإطعام نفسه وهكذا كانوا يجدون الطعام لقمة سائغة لذلك كانوا لا يعملون شيئاً ، فلم تحاول الزوجة أن تحرك نفسها لتكسب أرض كوخهم ، ولم يكثر الأطفال بتنظيف وجوههم لما علق بها من طعام ، وكان من المنجمل إنه كلما كبرت البنات ، وتقدم بهم العمر ، لا يزالون يبحرون في شوارع القرية ، وأحياناً يتحدثون مع الرجال . ١

وعندما تقابل وانج ذات يوم ، مع ابنة عمه ، استبد به الغضب ، واستجمع شتات شجاعته وذهب إلى زوجة عمه ، وقال لها : خبريني الآن من يقبل الزواج من فتاة مثل ابنة عمي ؟

ولم يكن في زوجة عمه عضو نشيط يضارع نشاط لسانها ، وهذا اللسان أطلقته في وانج ، :- مرحى ... من سيدفع تكاليف زفافها ؟ إنه لمن المستحسن أن يتكلم هؤلاء الذين يملكون الأرض الشاسعة ولا يعرفون ما يفعلونه بها ، ولكن عمك رجل مسكين ، وإذا كان هنالك أناس غيره ينتجون الحب الوفير الثمر ، فإن بذوره تموت وهي ما زالت نباتاً في الأرض ولا تثمر إلا العشب .

وانفجرت عامدة في عويل متصل ، ودموع مدرارة ، وشملتها سورة
من الغضب والهياج ، واندفع جيرانها من النساء من بيوتهن ، ليشاهدوها
ويسمعوها ، وكان ونج لنج واقفا في مكانه لا يبرحه حتى ينجز المهمة
التي أتى من أجلها ، ولذلك قال: ولو أنه ليس من شأني أن أنصح شقيق والدي
فإني سأقول هذا : أنه لمن الخير أن تزوج الفتاة وهي ما زالت صغيرة ،
ولا يؤذن لها أن تجول في الطرقات .

وبعد أن أبان عن مقصده هذا القول الواضح انصرف إلى حال
سبيله ، إلى منزله تاركا زوجته عمه تصرخ وتولول.. وفي صباح اليوم التالي
جاء عمه إلى الحقل حيث كان وانج يعمل في أرضه ، أما أولان فلم تكن
موجودة هناك ، لأنها كانت ستضع طفلا ثالثا . وفي هذه المرة لم تكن
علي ما يرام ، وظلت عدة أيام لاتحضر إلى الحقل ، ولذلك عمد وانج لنج
إلى العمل بمفرده ..

جاء إذن عمه إلى حيث كان وانج لنج ، ووقف في صمت بينما كان
وانج يدق بفأسه في خط ضيق ، بجوار مساحات الفول العريضة التي كان
يزرعها ، وأخيرا قال وانج لنج دون أن يرفع رأسه إلى أعلى :-
معذرة يا عمي لعدم توفقي عن العمل ، فلاشك أن فولك قد تم زرعه
أما أنا فبطيء - فلاح مسكين ؛ لا أنتهي من عملي لأستريح .

فهم عمه بجلاء ما قصده وانج بكلامه ، ولكنه رد عليه قائلا : إنني سيء
الخط إلى أقصى حد ، سنشتري الفول هذا العام ، إذا رغبتنا في أكله .
وأعقب ذلك تهيدة عميقة ..

وتحجر قلب وانج لنج فقد أدرك أن عمه قد جاء ليطلب شيئا منه ،
ثم عاد عمه إلى الحديث :-

إن المرأة التي في البيت قد أخبرتني عن اهتمامك بإبنتي الجارية الكبرى .
وأنت على حق ؛ فإن هتلك راجح رغم صغر سنك ، وينبغي أن تزوج ،
ولو كنت غنياً مثلك الآن فأني ما كنت أنقاس عن مقاسمة ثروتي معك ،
• لأزوج بناتك ، لأزواج صالحين ، فضلاء ..

فأجاب وانج لنج في اختصار : أنت تعلم بأنني لست غنياً ، وعندى
الآن خمسة أفواه أطعمها ، ووالدي رجل طاعن في السن ، لا يستطيع
العمل ولذلك أعوله وأطعمه ؛ وهناك طفل آخر يولد في هذه اللحظة
في بيتي كما أعلم ..

فصرخ عمه قائلاً :- انك غني ... أنت ثري ؛ من غيرك في القرية
استطاع أن يشتري أرضاً من البيت الكبير ؟

وقذف وانج لنج فأسه ، وصاح بصوت عال ، محملاً في عمه : إذا
كنت أمتلك حفنة من الفضة ، ذلك لأني أكده وزوجتي تكده ، ونحن
لسنا كما يفعل غيرنا ، نجلس متكاسلين ، نثرثر ، ونبدد الوقت ، ونهمل
الحقل فلا تثبت إلا أعشاباً ؛ أو نترك أطفالنا يتضورون جوعاً ..
وصعد الدم حاراً في وجه عمه الأصفر ، واندفع نحو ابن أخيه
وصفحه على خديه ، وصرخ قائلاً :-

إن هذا لتجاسرك على أن تتكلم بوقاحة لمن هم في جيل والدك ..
ووقف وانج عابساً ، وقد أدرك خطاه ، ولكن الغضب كان يملأ
أعماق قلبه نحو هذا الرجل ، الذي يدهي عمه ..
وصاح عمه بصوت ينم عن حدة الغضب :

— سأخبر أهل القرية جميعاً بما قلته .. القرية كلها ... وكرر

هذه الجملة مرات ، ومرات ، حتى قال له وانج على كره منه : ماذا تريدني أن أفعل ؟ .

وهذا عمه فجأة ، وابتسم ، ووضع يده على ذراع وانج لنج ، وقال له في هدوء : آه .. أنى أعرف أنك .. ولد طيب .. ولد طيب .. وضع قليلا من الفضة في هذه اليد الفقيرة البالية .. قل عشرة أو تسعة ؛ وبذلك أقوم بالترتيبات مع وسيط الزواج ؛ بخصوص ابنتي . آه إن رأيك لصائب .. لقد حان الوقت . لقد حان وقت زواجها ..

والتقط وانج فأسه ، ثم ألقاه على الأرض مرة أخرى ثم قال في إيجاز : تعال معي إلى البيت فإنى لا أحمل نقوداً فضية معي كالأمراء ، ثم خطا إلى الأمام وسار أمام عمه ، وقد أجمته مرارة الألم فلم يتكلم ، لأن بعضا من نقوده الفضية العريضة التي قد أزمع أن يشتري بها مزيداً من الأرض سوف تنتقل إلى جيب عمه ..

ثم هرول إلى داخل الغرفة ، وأبعد من طريقه ولديه الصغيرين ، اللذين كانا يلعبان ، عاريين في الشمس الدافئة ، ونادى عمه على الطفلين ، وحملهما على ذراعيه وأخذ يضمهما - إلا أن وانج لم يتوقف ؛ ودخل الغرفة التي ينام فيها مع زوجته ، وطفله الأخير ، وكانت حالكة السواد ، فلم يبصر شيئاً في طريقه ، ولكنه كان يعلم أن زوجته نائمة فيها ، فنادى عليها بخشونة : ماذا جرى ؟ .. هل حان الوقت ؟ ..

ورد عليه صوت زوجته من تحت الفراش في ضعف شديد لم يسمع مثله من قبل : لقد انتهى كل شيء هذه المرة .. لأنها جارية هذه المرة . بنت لا تستحق الذكر . ١ .

ووقف وانج في مكانه ساكنا ، وتملكه شعور بالشر والنحس
أثى .. وإنما لأثى تلك التي تشير كل هذه المتاعب في بيت عمه. والآن فقد
ولدت له أثى في بيته أيضاً .. ١٠٠

وخرج دون أن يجيب، وذهب إلى الحائط وبدأ يتحسس خشونة
الحائط، والتي كانت هي العلامة على مخبأ النقود ، ثم أزال الحجر الذي
يسد الثقب ، ثم عبت بأصابعه في كومة النقود الفضية . وبعد منها تسعة
قطع .. وغاطبته زوجته فجأة في الظلام متسائلة :
- لماذا تخرج النقود الفضية من مكانها ؟ ..

فرد عليها في إيجاز :- إلى مضطر لأن أقرضها لعمي .. ولم تسرع
زوجنه بالرد أولاً . ثم قالت بطريقة واضحة جزلة : من الأفضل
ألا تقول (أقرض) فلا يوجد إقراض في هذا البيت ، بل هو (المنح)
قط ...

فأجاب وانج لنج بمرارة : حسناً .. أعلم ذلك .. وعندما خرج من
الغرفة دفع المال إلى عمه ، وعاد أدراجه إلى الحقل على جناح السرعة
ولم يفكر في شيء إلا النقود الفضية - تلك النقود التي جمعها بالأم وعرق
الجبين ، من ثمار حقله ، لتنفى عليه بالخير ، ولتعود بالمزيد من
الأرض .. ١١٠

وعندما ارخى الليل سدوله ، كانت سؤرة غضبه قد تبددت ،
فأصلح من شأنه ، وتذكر بيته ، وطعامه ، ثم فكر في ذلك المخلوق الجديد
الذي حل بالبيت ، ولم يفكر ، من فرط غضبه الشديد على عمه ، في أن
يتوقف ليرى وجه الوليدة الجديدة ..

ووقف مستنداً على فأسه ، وقد امتلأت نفسه بالغم ، فعليه أن ينتظر حتى يحين موسم الحصاد الجديد فيمكنه أن يشتري قطعة الأرض التي تجاور قطعه الحالية . . بالإضافة إلى المخلوقة الجديدة ، التي ستطعم عما قريب ، وحلق سرب من الغربان فوق رأسه ، وأخذت تنعق عالياً ، وراقبها قليلاً ، فوجدها تحتفى كالسحابة بين الأشجار ، صوب بيته ، وانطلق يعدو نحوها ، يصيح ، ويهز فأسه في الهواء ، فخطت قليلاً فوق الأشجار ، ثم انطلقت مرة أخرى . وحلقت مثنى وثلاث فوق رأسه ، ثم أمعن في الطيران في السماء التي كانت تظلم رويداً ، رويداً ، . . وتهد عالياً لقد كان ذلك فألا سيئاً ، وطالع نحس . . .

الفصل الثامن

إنه ل يبدو أحيانا إذ تنكرت الآلهة لإنسان مرة فكأنما لن ترعاه مطلقاً ، فالأمطار التي كانت ينبغي أن تسقط في بواكير الصيف ، امتنعت عن الهطول ، وظلت السماء يوماً بعد يوم تلعب في صفاء رتيب .

والحقول التي زرعها وانج ، والتي أستنفزت كل طاقتها ، جفت تربتها وتشققت ، وسيقان القمح التي شبت عن طوقها عند حلول الربيع كفت عن النمو ، ثم أخيراً انكشفت ، فأصفرت ، وصارت هشياً تذوره الرياح وكذلك أحواض الأرز التي بذرها وانج لنج ، أصبحت كبرعات من حجر (البشم) الأخضر على التربة البنية ، وبعد أن تحلّى عن زراعة القمح ، ظل يحمل للأرز الماء يوماً بعد يوم في دلوين يحملهما على عصا سميكة من البوص على كتفيه . وأخيراً جفت المياه في البركة ، وتراكت في قاعها كتلة مستديرة من الطين ، وهبط الماء في قاع البئر حتى قالت أولان لزوجها أخيراً : إذ كان من الضروري أن يشرب الأطفال ؛ وأن يلطف أبوك صدره بالماء الساخن ، فلا بد وأن يحف النباتات . . . وانفجر وانج لنج بدموع وأنين مجيهاً حسناً . فليمتوا كلهم عطشاً ، إذا لم نجد للنبات ماء نرويه .

«حقاً أن حياتهم جميعاً ، وأرواحهم تعتمد على غلة الأرض . . .»

ولم يكن هناك سوى قطعة من الأرض بجوار الخندق هي التي كانت تحمل محصولاً ، لأن وانج قد ترك كل حقوله الأخرى ، وظل طيلة النهار في هذه الأرض ، يحمل لها الماء من الخندق ليصبها فوق التربة العطشى ، وفي هذا العام لأول مرة ، باع قمحه بمجرد أن حصده ، وعندما شعر

بالنقود الفضية فوق كفه ، قبض عليها بقوة ، وهروا مسرعاً إلى بيت
هوانج ؛ وقابل وكيل الأرض وقال له في الحال :

« معي من النقود ما يعينني على شراء الأرض الملاصقة لأرضي بجوار
الخنق .. »

وأطبق الوكيل قبضته على المال ، وانتقل المال من يد إلى يد ،
ووقعت الأوراق وختمت وأصبحت الأرض ملكاً لوانج لنج ، وأصبح
وانج لنج يمتلك حقلاً فسيحاً من الأرض الطيبة ، وكانت مساحة الأرض
الجديدة ضعف حقله الأول ، ولم تكن خصوبة الأرض السوداء هي
التي أفعمت قلبه سروراً ، وزادته زهواً ، وإنما شعوره بأنها كانت ملكاً
لأسرة أمير ثم أصبحت ملكاً له ، وفي هذه المرة لم يخبر أحداً بما قد فعله ..
ومر الشهر تلو الشهر ، ولا تزال السماء جامدة لا تجود بالمطر ،
وعندما اقترب الخريف ، تجمعت سحب خفيفة صغيرة في السماء ، وكان
الناس يقفون في شوارع القرية عاطلين ، قلقين . يتناقشون ويتساءلون :
هل ياترى هذه السحابة ستجود بالماء ؟ ولكن قبل أن تتجمع سحب كافية
لتوفي بالوعد ، هبت ريح قارصة من الشمال الغربي ، من أقصى الصحراء ،
ودفعت السحب أمامها في صفحة السماء ...

وجنى وانج لنج نذراً يسيراً من محصول فول جامد . ومن حقل القمح
الذي كان قد غرسه عند ما أصفرت وماتت أحواض الأرز ، اقتطف
سنابل قصيرة سميكة ، في كل سنبل حبات ضئيلة ، وقشرها هو وزوجته
فوق أرض الغرفة الوسطى . وهو يراقب بعين حذرة كل حبة تتطاير
بعيداً ، وعندما أراد أن يضع القوايح جانباً لتسكون وقوداً ، قالت له
زوجته : كلا .. لا تبددها بالحريق ، فإني لأنذرك عندما كنت طفلة ، حينما

مرت بنا سنوات عجاف ، أننا كنا نطحن (القواح) ونأكلها فهمي أفضل
في أكلها من الأعشاب ا

ولاذ جميع من في البيت حتى الأطفال بالصمت بعد أن تكلمت
أولان ؛ فلقد كان التشاؤم يسيطر على مشاعر الناس في هذه الأيام الغربية ،
الساطعة الشمس عندما كانت الأرض عاجزة عن أن تجود عليهم بالخير .
وكان وانج لنج إذا سأله أحد هذا السؤال : وكيف تجدون طعامكم
خلال الشتاء ؟ - كان يجيب قائلاً : است أدري . إننا نقتات طعاما
ضئيلا من هنا أو هناك كيفما تشاء الظروف . . إلا أنه لم يكن هناك من
يتوجه إليه بهذا السؤال ؛ فلم يكن هناك إنسان يتبرع بالسؤال عن غير مفك
واحد كان يفكر في نفسه فقط ، ويسألها هذا السؤال : كيف أجد طعامي
اليوم ؟ . . ، وكان وانج يعنى بشوره كل العناية ، ويبدل له من ذات نفسه
كل رعاية ، ثم حان يوم لم يتبق فيه مقدار من الأرز أو القمح إلا قليلا من
القول ، ومقداراً ضئيلاً جداً من خزين القمح ، وخر الثور من شدة الجوع
فقال الشيخ : سنذبح الثور ونأكله فيما بعد . . ا

وصرخ وانج لنج لأن الثور كان رفيقه في الحقل ، ولقد عرفه منذ
عهد الشباب عندما اشتروه في ذلك الحين مجلاً صغيراً . . ا

وقال وانج : كيف تتجاسر على أكل الثور؟ وكيف يمكننا أن نخرت
الأرض مرة أخرى؟ ولكن والله الشيخ أجاب قائلاً: حسناً فإما حياتك
أو حياة الحيوان ، وإما حياة إبنك أو حياة الحيوان ولاشك أن
الإنسان يستطيع أن يشتري ثوراً آخر ولكنك لا تستطيع أن تشتري
حياتك في سهولة ويسر . .

ولكن وانج لم يرغب في أن يذبح الثور في ذلك اليوم ، ومر يوم
وأعقبه يوم آخر ، وصرخ الأولاد من ألم الجوع ، ونظرت أولان إلى
زوجها تستعطفه ، وأدرك أخيراً ما يجب أن يفعل ، ولذلك قال بخشونة :
اذبحوه أتم ، فأنا لا أستطيع . .

وهرولت أولان خارج الغرفة ، لتذبح الثور وقطعت في رقبتة شقاً
عظيماً ، ثم سلخته ، وقطعت الحيوان الضخم إرباً إرباً . . ولم يتجاسر
وانج لنج على الاقتراب منها حتى انتهت من مهمتها ، وطهت لحمه وأعدته
على المائدة ، وعندما حاول أن يأكل لحم الثور ، لم يستطع أن يزدرده ،
فشرب قليلاً من حسائه ، وقالت له أولان :

— ما الثور إلا ثور . وهذا الثور قد كبر وشاخ ، فكل منه
وسيكون لدينا يوماً ما ثور أحسن منه . .

وواست كلباتها قلب وانج ، فالتهم قطعة ، ثم قطعة أخرى ، وهكذا
أكل الجميع . .

ولاحت في القرية بادية الأمر بوادر الغضب والحقد على وانج لنج ،
لأن أهل القرية ظنوا أنه يملك فضة يخفيها ، وطعاماً يخترنه في مكان ما ،
وكان عمه أول الساخطين ، فجاء إلى بابه يستجديه فأعطاه وانج في نفور
كومة صغيرة من الفول ، وحفنة ثمينة من القمح ثم قال له في ثبات :

د إن هذا كله ما أستطيع أن أمنحه لك ، وهناك أبي الذي يجب
أن أراعاه ، ، وهذا إذا افترضت أنه ليس لي أطفال ، :

وكان كلما أتت أسرة على خزينها في القرية ، وأنفقت آخر درهم ،

في شراء ما يلزمها من أسواق القرية القليلة ، وكلما هبت رياح الشتاء من الصحراء قارصة حادة ، كنصل السكين الصلب ، كلما امتلأت قلوب القرويين مرارة من الجوع ، وعندما همس عم وانج لنج في آذان أهل القرية قائلاً : هنالك شخص يفيض بيته بالطعام . . قبض الرجال على مراواتهم وهرعوا ذات ليلة إلى بيت وانج ، ودقوا عليه الباب فلما فتح الباب ، ليلبي أصوات جيرانه الصائحين أبعده عن طريقهم ، ودفعوه من سديلمهم ؛ وقتشوا كل ركن وكل مكان ظاهر وخفي بأيديهم عليهم يجدون الطعام الذي أخفاه ؛ وعندما عثروا على كمية ضئيلة من الفول المجفف ، ووعاء من القمح المجفف ، صرخوا من خيبة أملهم ويأسهم ، ثم قبضوا على منضدة ، ومقاعده ، والفراش الذي يرقد عليه أبوه الشيخ وهو يرتعد ويبكي من الخوف . . ثم تقدمت نحوهم أولان ، وسرى صوتها الواضح النبرات ، الهادى ، وعلا فوق أصوات الرجال .

— « وبعد فلم يصل الأمر إلى هذا الحد . . فقد أخذتم طعامنا . وإنكم في بيوتكم ، لم تبيعوا موائدكم ومقاعدكم بعد ، فاتركوا هذه الأشياء لنا ، ولسنا نملك فولة أو حبة من الحب أكثر منكم ، كلا . . بل إنكم لتملكون أكثر مما لدينا الآن لأنكم قد أخذتم كل ما عندنا ، وإن الله ليعاقبكم إذا أخذتم منا أكثر . - والآن هيا بنا نخرج سوياً ، نبحت عن حشائش لناكلها ، وقشر شجر لكم ولأطفالكم ولنا ولأطفالنا . . ،

وشعر الرجال بالخزي والعار من وقع كلماتها ، وتسللوا واحداً إثر واحد ، فلم يكونوا أشراراً بسليقتهم ، إنما الجوع قد استبد بهم فآطار صوابهم 11000

وكان وانج لنج واقفاً في الفناء حيث كان عاماً بعد عام ، يخزن فيه
محصوله بعد درسه ، والذي أصبح الآن خاويًا على عروشه ، عدة شهور
لا قيمة له ولا نفع يرجى منه ، وتمسكته لحظة من الخوف الشديد
وانساب في دمه مزيج من الرعشة كالخمر المملطفة وقال لنفسه ، ومن
أطواء قلبه :

دإنهم لا يستطيعون أن يأخذوا مني الأرض ولو كانت الفضة
معي لا أتزعوها مني ، فما زالت الأرض في حوزتي ، فهي ملكي ،
وأنا صاحبها .

الفصل التاسع

كان وانج لنج جالساً قبالة الباب يحدث نفسه قائلاً : لابد أن أفعل شيئاً... فلا نستطيع أن نبقى هنا في هذا البيت الخالي ، لنهلك .. وبدأ في جسده التحيل عزم وتصميم على الحياة ، وكانت تلم به ساعات من الجوع تدفعه إلى الخارج ، ويهرز قبضة يده إلى السماء الكثيفة التي تضيء من قبتها الزرقاء الدائمة الزرقة ، الصافية الباردة ، لا تحجب صفحتها سبحانه..

و ذات يوم كان يسير في تشاقل يجر ساقاً إثر ساق ، متجها نحو معبد الأرض ، فبصق متعمداً فوق وجه الصنم الصغير الذي كان يجلس هناك بجوار قريته ، ولم تكن هناك عيدان من البخور يتصاعد منها الطيب وكانت ثيابها من الورق ممزقة فبدت أجسامهما المصنوعة من الطين ، من ثقوب الورق ، إلا أن الصنمين كانا جالسين هنالك في المعبد ، لا يتأثران بأي شيء ، وعاد وانج إلى بيته وهو يتأوه ثم خر راقداً على فراشه وكانوا نادراً ما يقومون من فراشهم فلن تكن هناك حاجة تدفعهم إلى النهوض ، وكان نومهم المتقطع ، يصر فهم فترة عن الطعام على الأقل ، وكانوا قد جففوا قواقع ، القمح وأكلوها ، وفيما عداهم في أرجاء القرية كان الناس يأكلون ما يستطيعون أن يجدوه من أعشاب فوق سفوح التلال التي أجدها الشتاء ، وخلا المكان من الحيوانات ، ولم يعد المرء يرى طفلاً يلعب في شوارع القرية ، وفي معظم الأحياء كان ولدا وانج لنج يزحفان إلى الباب ويجلسان في الشمس ، ولم تكن الطفلة تستطيع أن تجلس بمفردها قط ، على الرغم من فوات الألوان ، لذلك ابل كانت تظل ساعة بعد أخرى راقدة ملتفة في لحاف قديم ، وكان صياحها باديء

الامر ، عند ولادتها يملأ البيت ، ولكنها أصبحت هادئة تمتص في ضعف
ووهن كل ما يمكنها أن تضعه في فمها . . . !

وكان استمرار حياة هذه الصغيرة على ذلك المنوال المثلث ، قد
أكسبها حب أيها ، وكلما نظر إليها همس قائلاً : يالها من بلهاء مسكينة ،
يالها من بلهاء مسكينة صغيرة . . .

وعندما حاولت ذات مرة أن تبسم ابتسامة باهتة ، انفجر أبوها ،
بأفكها ، وبعد ذلك كان يحاول أن يرفعها أحياناً ويضعها تحت دفء معطفه
ويجلس معها أمام الباب متطلعاً إلى الحقول الجافة المنبتطة . . .

وأما أبوه الشيخ فكان يأكل كل ما استطاعوا أن يقدموه له ، حتى إذا
لم يأكل الأطفال ، وكان هذا الشيخ ينام نهاراً وليلاً ، ثم يستيقظ
ليلتهم طعامه ؛ وكان أكثر أهل البيت إنشراحاً ومرحاً ، وقال ذات يوم
بصوته الضعيف المرتعش : لقد مرت بي أيام أسوأ من هذه الأيام !

وفي ذات يوم جاءه جاره تشنج ، ليس عليه من الملابس ما يقيه
ويبدو أقل من شبح إنسان ، جاء إلى بابه وهمس في أذنه قائلاً : إن
الناس يأكلون الكلاب في المدينة ؛ وفي كل مكان تؤكل الخيول والدجاج
من كل نوع . . . وهنا قد أكلنا الحيوانات التي حرثت أرضنا ، وأكلنا
العشب ، ولحاء الشجر ، فاذا تبقى لنا لنأكله ؟

وهز وانج لنج رأسه في يأس ، وسيطر عليه الخوف فجأة وقال
بصوت عال :

— سنترك هذا المكان — سنرحل نحو الجنوب . . .

فنظر إليه جاره في جزع : آه . . . إنك مازلت شاباً . . . قال ذلك

في حزن ثم استطرد : أما أنا فأكبر سناً ، وزوجتي طاعنة في السن
وليس لدينا من حطام الدنيا سوى إبنة ، فن اليسير الآن أن نموت
مرتاحين . 110 .

فقال له وانج لنج : إنك أسعد حظاً مني ، فأنا أعول والدي الشيخ
وأطفالى الثلاث الصغار .

وحينئذ بدا له أن كل ما قاله صحيحاً ، فنادى على زوجته أولان ، التي
كانت تظل راقدة في فراشها يوماً بعد يوم . درن أن تنبس بينت شفة ،
حيث لم يبق عندها طعام ، تطهيه فوق الموقد ، أو وقود تشعل بها الفرن ..
ذهيا يازوجتي — سرحل جنوباً . . ونهضت أولان من فراشها في
وهن ، واستندت على باب الغرفة وقالت إنه لمن الخير أن نفعل هذا . .
فالإنسان على الأقل يستطيع أن يموت ماشياً ،

وفي صباح اليوم التالي عند ما أشرقت الشمس كعادتها في سمائها
الزرقاء ، خيل إليه انه لمن ضروب الحلم أن يفكر في الرحيل عن بيته ،
ولم يكن معه مال ، ولكن ما دام لا يوجد طعام ، فالمال ليس منه فائدة .
ترجى ، وحينئذ ظل جالساً على عتبة البيت ، فرأى أشخاصاً تخرق
الحقول نحوه ، فلما اقتربوا منه ، تبين فيهم عمه وثلاث رجال أجنبي .
لا يعرفهم .

ثم قال له عمه بصوت مرتفع : اني لم أرك منذ أيام عديدة . . لكم
تبدو عيشتك هنية ، وكيف حال والدك ، أخي ، أهو بخير ؟
فتعطر وانج لنج الى عمه ، ورآه نحيلاً هزبلاً ، حقا إنه لم يشرف على
الموت جوعاً . . 1 .

وشعر وانج لنج أن بقية قوته ، قد استحال الى غضب شديد ،
وسخط مرير على عمه فتمتم قائلا : كم أكلت وشبعت . . كم أكلت
وشبعت . . ۱۱

فرفع عمه يده إلى السماء ضارعا متوسلا ، وصرخ قائلا : أكلت . .
آه . . لو استطعت أن ترى بيتي فلن تجد فيه شيئا ، فالصفور لن يستطيع
أن يجد الفتات ، وهزلت زوجتي ، وبدت عظامها ، وأخذت تصطلق في
جلدها ، لم يتبق لي من أطفالى على قيد الحياة سوى أربعة ، أما عن نفسى
وحالى فيها أنت ترانى . . ثم أمسك بطرف كفه ، ومسح طرف عينيه
فى عناية . .

فكرر وانج لنج فى بلادة : إنك أكلت كثيرا . .

فرد عليه عمه فجأة قائلا : إنى لم أكف عن التفكير فىك وفى أهلك ،
أخى ، وإنى لأبرهن لك الآن على ذلك ، لقد استندت من أهل المدينة
الطيبين كمية ضئيلة من الطعام ، واعدأ إياهم بأنى سوف أساعدهم فى شراء
بعض الأراضى فى قريننا ، ولقد فكرت أولا فى أرضك الطيبة ، ولقد
حضرنا ليشترى أرضك ، وليعطوك مالا ، وطعاما وحياة .

وظل وانج لنج صامتا لا يحرك ساكنا ، فلم ينهض ، أو يتعرف من
أى جهة قد حضر هؤلاء الرجال ، ولكنه رأى حقا أنهم رجال قد أتوا
من المدينة ، يرتدون الثياب الطويلة الحريرية المتسخة ، وقد بدا عليهم
التسبع ، وكان الدم ما يزال يجرى حارا فى عروقهم ، وشعر بكرامية
مفاجئة نحوهم ، وتطلع فى وجوههم بمقت وعجوس .

وقال : لن أبيع أرضي . . فخطأ عمه إلى الأمام ، وفي هذه اللحظة
جبا أضغر ولدى وانج على يديه وركبتيه ، ومنذ أن هزل جسمه ، فقد
عاد إلى الزحف كما اعتاد أن يفعل زمن الطفولة ولم يقو على المشي . .
وصاح العم عند ما رأى الطفل أمامه : أهذا ولدك ؟ أهذا هو الصبي البدين
الذي رأيته في الصيف الماضي ؟

ونظر الجميع إلى الطفل ، وفجأة انفجر وانج في بكاء صامت ، لأول
مرة في حياته ، وهو الذي لم يذرف دمعاً واحدة طوال حياته . .

ثم قال مخاطباً الرجال : وما هو الثمن الذي ستدفعونه ؟ فأجابه واحد
من أهل المدينة : أيها الرجل المسكين ، في سبيل هذا الطفل الذي يموت
جوعاً ، سنعطيك ثمناً لا يمكن أن يحصل عليه إنسان في هذه الأيام الحالكة
سنعطيك . . ثم توقف عن الحديث ثم استأنفه قائلاً : سنعطيك خيطاً
بمائة درهم ثمناً لكل فدان .

فرد عليه وانج بضحكة مريرة ، وصرخ قائلاً : ولماذا كل هذا هذا
معناه أنكم تأخذون أرضي كهدية . . أذى لأدفع عشرين مبلغاً كهذا
عند ما أشتري الأرض .

وأجابته رجل آخر من أهل المدينة : آه . . ولكنك لا يمكن أن
تشتري بمثل هذا الثمن من رجال يموتون جوعاً ١٠

واخذ وانج لنج ينظر في وجوه الرجال الثلاث لقد كانوا واثقين منه
هؤلاء الرجال الخبيثاء ! من الذي يتقاعس عن منح إنسان مثل وانج في
سبيل إنقاذ أطفاله الجياع ، وأبيه الشيخ . . فاستبحال ضعفه إلى غضب
شديد ، لم يعرف له مثيلاً ، في حياته كلها من قبل ، فقفز نحوهم ، وصرخ

في وجوههم : لن أبيع لكم الأرض مطلقا ، وسنموت فوق أرضنا التي وهبتنا الحياة ا

وكان وانج يتكلم بعنف ، وتلاشى غضبه ، وذهب هياجه بدداً ، وظل واقفاً يرتجف باكياً ، بينما وقف أمامه الرجال ، وارتسمت على وجوههم ابتسامة خفيفة وأن الكلام في مثل هذه الأحوال لضرب من الجنون ، وانتظروا حتى تلاشى غضب وانج وفجأة ظهرت أولان بالبواب ، وقالت لهم : أما الأرض فلن نبيعها بكل تأكيد ، وإلا متنا جوعاً ، عند عودتنا من الجنوب ، ولن نجد ما يطعمنا ، ولكن يمكننا أن نبيع المائدة والسريرين وفراشهما ، والمقاعد الأربعة ، والقدر الضخم الذي بالفرن أما المنجل ، والفأس ، والمحراث ، فلن نبيعها ... وان نبيع الأرض ...

وسألها عم وانج في تشكك : أحقا ستهاجرون إلى الجنوب ؟

وتمتم الرجال فيما بينهم ، ثم استدار أحدهم نحوها وقال : إنها لأشياء نافية ، ولا تصلح إلا للوقود ، فنحذى قطعتين من الفضة ثمنا لها جميعاً ، فيما أن نأخذها أو نتركها وأشاح بوجهه في احتقار وهو يتكلم ، فأجابته أولان في هدوء : إن هذا الثمن لأقل من ثمن سريير واحد ، ولكن إذا كانت النقود معك فاعطيها لي سرياً وخذ هذه الأدوات ...

فأسقط الرجل النقود الفضية في يدها الممتدة ، ودخل الرجال البيت وحملوا الأدوات فيما بينهم ... ولكنهم عندما دخلوا غرفة الشيخ وقف عم وانج في الخارج ، فلم يرغب في أن يراه أخوه الأكبر .. وعندما تمت الصفقة ، وأصبح الببت خالياً من كل شيء إلا من

المنجلين ، والفاس ، وانجراث ، في رن العرفه الوسطى ، قالت
أولان لزوجها :

— دعنا نذهب إلى الجنوب ، ما دامت معنا هذه النقود الفضية ؛
وقبل أن نضطر إلى بيع عروش السقف ، فلا نجد حجراً نقبع فيه
ونزوى في ركنه عند عودتنا ... فأجاب وانج لنج في تناقل : إلى الرحيل ..
ثم أخذ يتطلع إلى الحقول خلال الأشباح الضئيلة للرجال الذين تركوه
وتتم مرات ومرات قاتلاً ... فعلى الأقل : ما زلت أملك الأرض ...
ما زلت أملك الأرض ... !!

الفصل العاشر

لم يكن لدى وانج وزوجته شيء يفعلانه سوى أن يحكما غلق رتاج الباب ، وارتدوا جميع ملابسهم ، ووضعت أولان في يد كل طفل وعاءاً من الأرز ، وزوجا من العيدان التي يأكلون بها ، وقبض الأولاد الصغار عليها بإحكام معالين أنفسهم بقرب الطعام ، وساروا على هذا الحال مخترقين الحقول ؛ سار موكبهم المحزن متحركاً في تودة لا تبشر بوصولهم إلى سور المدينة إطلاقاً ...

ومروا في صمت بجوار المعبد الصغير الذي يقبع بداخله الصنمان ، اللذان لم يدركا شيئاً إطلاقاً عما يحدث ، وكان وانج لنج يتصبب عرقاً من ضعفه مع أن الجو كان بارداً ، والرياح كانت قارصة ، وصرخ الطفلان مع هبوب الرياح الشديدة ، ولكن أباهم وانج أخذ يشجعهم قائلاً: أتما رجلا ن كبيران ، ومسافران إلى الجنوب حيث الدفء والطعام وفير كل يوم ، وحيث نجد جميعاً الأرز الأبيض وسناً كل ونشبع ..

وبمرور الوقت وصلوا إلى بوابة السور ، وهم يستريحون كل مرحلة قصيرة ، وكانت أقدامهم تغوص في طين سميك ، وكادت تجمد أطرافهم من شدة البرد ، وأعيان السير الطفلين فلم يستطيعا أن يتقدما وكانت أولان تحمل طفلتها ، وتنوء بحملها ، وثقل جسمها نفسه وكان وانج لنج يترنح في مشيته وهو يحمل أباه ثم كان يضعه على الأرض ، ويرجع حيث يأخذ طفليه ، ويحملهما بالتناوب ، وهكذا وعند ما كان ينال التعب منه كل منال كان العرق ينهمر من كل جسمه غزيراً كالطر ، ثم يستريح طويلاً يأسناد ظهره إلى الحائط الرطب ...

وساروا حتى وصلوا بجوار البيت الكبير . بيت هوانج ، ولكن الباب كان مغلقاً بإحكام ، حيث رقدت أمامه أشباح قليلة من رجال ونساء ، يحدقون بشدة ، ويكادون يموتون جوعاً ، فلما مر من أمامهم وانج لنج ، صاح واحد منهم يحدث زميلاً له : إن هؤلاء الأغنياء القاطنين هذا البيت ، ما يزال لديهم أرز يطعمونه ، ومن الأرز الفائض عن حاجاتهم يصنعون الخمر ، بينما نحن نموت جوعاً .

ولكن وانج لنج لم يجر جواباً ، وساروا في طريقهم نحو الجنوب والصمت يخيم عليهم . . .

وعندما جاسوا خلال المدينة ، ودلفوا من الاتجاه الجنوبي ، أظلم السماء ، ووجدوا أناساً كثيرين راحلين صوب الجنوب ، فسأل وانج لنج واحداً منه : إلى أين تذهب كل هذه الجموع ؟

فأجابه الرجل : إننا قوم موشكون على الموت جوعاً ، وذاهبون إلى حيث تركت العربة النارية (القطار) لنصل إلى الجنوب ، وإن العربة تبدأ من هذا البيت (يقصد المحطة) وتوجد عربات لأمثالنا ، أجزتها أقل من قطعة فضية وقال ونج لنج لنفسه مندهشاً : عربات نارية !! أنه كان قد سمع في الأيام السالفة أناساً يتحدثون عن هذه العربات ، المقيدة بعضها في بعض بواسطة سلاسل ، ولا يبجرها رجل أو حيوان ، وإنما تجرها آلة تنفث من باطنها النار والماء . . فالتفت في شدة نحو زوجته وقال : هلا سافرنا نحن بهذه العربات النارية أيضاً ؟ وتبادل كلاهما النظر إلى بعضهما في قلق وخوف ، وكانت أولان ما تزال تحمل الطفلة ، وكانت رأس الطفلة مدلاة فوق ذراع أمها ، وقد بدا عليها أنها ميتة من عينيها المغلقتين فارتاع لذلك وانج ونسى كل شيء هداها ، وصرخ

قائلاً لزوجته : هل ماتت الجارية الصغيرة ؟ فهزت أولان رأسها نفيًا
وقالت : انها لم تمت بعد .. ولكنها ستموت هذه الليلة بل كلنا جميعاً
سنموت ما لم ...

وكانما لم تسطع أن تنطق بكلمة أخرى فنظرت إليه ، بوجهها المربع
المتعب الهزيل ، ثم قال وانج لنج وصوته ينطق بالشر :

— هيا يا أولادى ساعدوا جدكم على النهوض سوف نساقر بالعربة
النارية ونجلس فيها وهي تسير نحو الجنوب ...

ولم يكن ليديرى أحد هل استطاعوا أن يتحركوا من أماكنهم أم لا
ما لم يسمعوا ضوضاء عالية سرت مرعدة وسط الظلام ، وانفجرت
عينان تقذفان بالنار ، فتدافع الناس إلى الأمام وهرعوا بطريقة ما في
خلال الظلام ، وهم يصرخون إلى باب صغير مفتوح ثم دلفوا إلى
حجرة كالصندوق ، وفي وسط الزئير والدوى المتصلين انطلق الشيء الذي
ركبه ، وهو يحملهم في باطنه يشق غياهب الظلام ..

الفصل الحادى عشر

دفع وانج لنج بقطعتين من الفضة أجرأ للسفر مائة ميل : وقد أعطاه الموظف الذى أخذ منه قطعتى الفضة حفنة من الدراهم النحاسية ، واشترى وانج عندما وقف القطار ، أربعة أرغفة من الخبز ، ووعاء من عصيدة الأرز لطفلته ، الصغيرة ، وكان الطعام وفيراً وفرة لم يعهد مثلها فى خلال الأيام السابقة العديدة ، ومع انهم كادوا يموتون جوعاً ، فإن شهية الأكل قد فارقتهم ، والطعام فى فهم ، ولم يقبل الأطفال على الأكل ويزدرونه إلا بعد أن حشم أبوهم على ذلك ...

ولم تكن الدراهم النحاسية هى كل ماصرفه وانج لنج فى الطعام بل انه احتفظ بكل ماتبقى معه من تقود ليشتري حصيراً ليبنى بها سقيفة ، تقيم ويأوون إليها إذا ماخطوا رحاظم جنوباً ، وكان بالعربة النارية رجال ونساء يذهبون كل عام إلى المدن الغنية فى الجنوب ليعملوا ، أو يستجدوا الناس ، وهكذا يوفرون ثمن غذائهم ..

ولما اعتاد وانج لنج على رؤية الأرض فى دهشة وهى تندفع بجواره خلال فتحات العربة ، أخذ يصغى إلى حديث الرجال وهم يتخاطبون سوياً ، فسمع أحدهم يقول لرفيقه :

— يجب أولاً أن تشتري ستة من الحصر ، وهذان درهمان ثمناً لحصيرة واحدة ، وإذا كنت عاقلاً فلا تسلك كفلاح ساذج فتدفع ثلاثة دراهم ، وهو مبلغ أكبر كثيراً من أن يدفع ثمناً لحصيرة واحدة ، كما أعلم تمام العلم ...

فأرهمف وانج أذنه فى شخف إلى هذا الحديث ...

ثم سأل المتحدث قائلاً : وبعد ؟ وكان وانج جالساً في قاعة العربية ،
التي لم تكن إلا غرفة خالية من الخشب ، أرضها عارية وليس بها مقاعد
أو أى شئ . يمكن الجلوس عليه ، وكانت الرياح تهب والتراب يتطاير عليه
وعلى أسرته من خلال شقوق أرضيتها ...

فرد عليه الرجل قائلاً : وبعد فإنك تربط الحصير بعضها في بعض
لتصنع منها كوخاً ، ثم تخرج للاستجداء فأولا يجب أن تلتطخ نفسك
بالطين والقاذورات لتجعل من نفسك شكلاً يستحق العطف والرثاء
بقدر ما تستطيع ...

لم يكن وانج لنج . قد استجدى أحداً في حياته مطلقاً ، ولذلك كانت
فكرة الاستجداء بغيضة إلى نفسه ، الاستجداء . من أهل الجنوب
الذين لا يعرفهم ...

فكر متسائلاً : وهل يجب أن يستجدى الانسان ؟

فقال له الرجل : آه ... يجب حقاً ... يجب حتى تجد ما تقنات به
فإن أهل الجنوب قوم موسرون ، ولديهم أرز وفير ، ويمكنك أن تذهب
كل صباح إلى مطبخ عام أى مطعم شعبي حيث تدفع درهما واحداً وتأكل
وتشبع من عصيدة الأرز الأبيض ، ثم تعود إلى الاستجداء وأنت راضى
النفس ، ثم تشتري بعد ذلك فولاً ، وكرماً وثوماً ...

ومرة أخرى ساءت فكرة الاستجداء لدى وانج لنج وأحزنته
وقال فجأة متسائلاً : ألا يوجد عمل يشتغل فيه الانسان بيديه أفضل
من الاستجداء ؟ ...

فبصق الرجل على أرض الغرفة ثم قال : نعم يوجد عمل - يمكنك أن

نجر عربة صفراء من يديها ليركها رجل غني إذا شئت ، وتجعل العرق
يتصبب منك ، أو يتجمد فوقك كأنه ثوب من الجليد ، كلها توقفت في
انتظار راكب غني آخر ، واني لأفضل الاستجداء ... ثم أخذ الرجل
يسب ويلعن بما جعل وانج يكف عن السؤال مرة أخرى ...

وعندما أوغلت بهم العربة النارية في الطريق وتوقفت طرأت في
بال وانج لنج فكرة فأعد نفسه لتنفيذها فسرعان ما وضع أباه وأطفاله
بجوار حائط طويل رمادى ليبت من البيوت وانطلق يعدو ليشتري حصيرا ..

ووجد حانوتا يبيع الحصر في طرف المدينة ، ووضع أمام البائع
الدرهم شأن رجل يعرف ثمنها تمام المعرفة ، وحمل لفسة الحصر وانطلق
عائدا ، فلما وصل إلى المكان الذي ترك فيه الآخرين ، صرخ أبناؤه صرخة
الفرح والارتياح لرؤية أبيهم ، ووجدوا أنهم قد امتلأوا رعبا بمفردهم في
هذا المكان الغريب ، وأخذ أبوه يراقب كل شيء في سرور ودهشة ،
وتتم لابنه وانج قائلا : إنك ترى كم هم سمان هؤلاء أهل الجنوب ، وكم
تبدو أجسامهم شاحبة دسمة ، إنهم لياأكلون لحم الخنزير كل يوم ، هذا
بما لاشك فيه ...

ولم يكن يتطلع واحد من المارة الى وانج لنج ، وأسرته ، بينما أخذ
يتلفت حوله باحسا عن مكان مناسب يشيد فيه كوخه ، وكانت توجد
بعض العشش المقامة المتصقة بالجائط خلفه ، ومن حين إلى آخر كان
وانج يلتقي نظرة على هذه العشش ليقيم عشته على غرارها ، وكانت عشته
تبدو أمامه صلبة كثيبة الشكل ، مصنوعة من اليوص المشقوق وفجأة
لاحظت أولان فشله في إقامة العشة ، ولذلك قالت له : يمكنني أن أقيمها ،

فإني لا تذكر كيف تقام منذ أيام الطفولة ...

ثم وضعت طفلتها على الأرض ، وجذبت الحصر ، وأخذت تشدما بعضها الى بعض ، ثم أقامت دعائمها وشيدت لها سقفا إلى درجة عالية تسمح لشخص بالجلوس تحته ، فلا يصدم رأسه ، ثم ثبتت قوائم من الطوب فوق أطراف الحصر الممتدة على الأرض ، وأمرت أولادها بانزاع أحجار أخرى لهذا الغرض ، وما انتهت من عملها حتى دخلوها ، وفرشت أرضها بحصيرة تمكنت من إبقائها لهذا الغرض ، وهكذا جلسوا في عشتهم التي آوتهم ...

واستقروا في جلستهم هذه ، ينظر بعضهم الى بعض ، فبدأ لهم أنه من المستحيل ، أنهم قد تركوا بيتهم ، وأرضهم منذ يومين ، وأنهم قد أصبحوا على بعد مائة ميل منها ...

وامتلأت قلوبهم بشعور الرخاء والرغد في هذه الأرض الغنية ، التي لا يوجد على ظهرها فرد جائع ؛ وعندما قال وانج لنج : « هيا بنا نبحث عن المطاعم الشعبية ، هبوا جميعا في بشر وانشراح ، وسرعان ما اكتشفوا أن مطاعم الفقراء كانت تقع في نهاية الشارع الكائن فيه كوخهم ، وكان عدد كبير من الناس يسرون حاملين أوعيتهم ، ودلائهم ، فارغة كلها متجهين نحو هذه المطاعم ، وذهب وانج مع هؤلاء حتى وصلوا أخيرا إلى بنائين عظيمين من الحصر حيث أخذ كل واحد منهم يتجمهر ويذاحم رفيقه في الفضاء المحيط بهذين البنائين ، وكان في مؤخرة كل بناء أفران من الطين عليها قدور كبيرة من الحديد كأنها البرك في اتساعها ، وعندما رفعت أغطيتها الحشوية ؛ كشفت عن أرز أبيض يفور ويغلي ، وما كاد الناس

يسمون رائحته ، حتى اندفعوا إلى الأمام في كتل حاشدة وأخذوا
يصرخون ؛ بينما كانت الامهات تنصايح في غضب وخوف خشية أن
يطأ الناس على أطفالهن ، وزأر الرجال وهم يكشفون القدور مرددين :
لدينا ما يكفي للجميع ، فلينظر كل في دوره ... ١٠٠

ولكن لم يستطع أحد أن يكبح جماح هذه الكتل الجائعة من الرجال
والنساء وتشاحنوا وتصارعوا كأنهم الوحوش الضارية ليحصل كل على
نصيبه من الطعام ؛ ولم يستطع وانج لنج أن يفعل شيئا سوى أن يتعلق
بأبيه وولديه ، ثم اكتسحه الزحام حتى أصبح واقفا أمام القدر الضخم ،
فديده بوعائه ، فلما امتلا الأرز دفع درهمه وكل ما استطاع أن يفعله هو
أن يقاوم قليلا حتى لا تجتاحه الجماهير ، قبل أن يحصل على ما يريد .
ولما عاد وانج وأسرته وإلى الشارع مرة أخرى وقفوا يأكلون أرزهم ،
فأكل وانج معهم حتى شبع وتبقى قليل من الطعام في وعاءه ثم قال :
سأخذ معي هذا القدر الضئيل من الطعام إلى البيت لنأكله في المساء
ولكن ثمة رجل كان بمثابة حارس في هذا المكان أجابه بخشونة : كلا .
لا يمكنك أن تأخذ شيئا معك أكثر مما أكلت - فدهش وانج لنج
من حديثه وقال حسنا . ما دمت قد دفعت درهمي فاشأناك أنت إذا
ما خلت ما تبقى من طعامي في وعائي أو في بطني . . .

فأجابه الرجل قائلا : يجب أن تراعى اتباع هذه القاعدة ، لأنه يوجد
أناس ممن يأتون إلى هنا ، ويشترون هذا الأرز الذي يعطى للفقراء ثم
يحملونه إلى بيوتهم ليأطعموا به الخنازير .
فأصغى وانج لنج لهذه الكلمات في دهشة بالغة وصاح قائلا : أ يوجد

رجال قساة القلوب غلاظها كهؤلاء الناس ؟ ثم أردف قائلاً : ولكن
لماذا يعطى مثل هذا الطعام للفقراء ومن هو هذا الشخص الذى يمنحه
لهم بهذا الثمن البئس ؟

فأجابه الرجل قائلاً : أنهم سراة القوم فى المدينة . هم الذين يجودون
بذلك ، فقال وانج لنج : أنه لعمل مفعم بالخير . . .
وتعلق طفلاه به ، فقادهما وانج لنج إلى كوخهما حيث راحوا فى
سبات عميق حتى صباح اليوم التالى إذ كانت هذه هى المرة الأولى منذ
الصيف يتخمون فيها بالطعام وفى صباح اليوم التالى وجدوا أنه من
الضرورى أن يحصلوا على مزيد من النقود . وخاصة بعد أن صرفوا
آخر درهم من النحاس فى شراء الأرز للإفطار ، فنظر وانج لنج إلى زوجته
فى شك عما يجب أن يفعله للحصول على النقود ، وأجابته أولان كما لو
كانت خبرت هذه الحياة :

« يمكننا أن نستجدى المارة ، أنا والغلمان وأبوك الشيخ أيضاً ، ثم
نادت على الغلامين وقالت لهما : فليمسك كل منكما وعاءه وليدها فى يده
هكذا . . . ويصرخ هكذا . . . ثم أمسكت وعاءها الفارغ فى يدها ومدته
إلى الأمام وأخذت تنادى فى حسرة وألم قائلة : الرحمة ياسيدى
الطيب ، إن عمالك الطيب فى سبيل حياتك ليصعد إلى السماء . . . إن
ما تدفعه فوراً . . . إن الدرهم النحاس الذى تلقيه ليطعم طفلاً يموت جوعاً !
وحلق فيها زوجها وانج والغلمان مدهوشين ، وأخذ وانج يسائل
نفسه : أين يأتى قد تعلبت الصباح فى مسكنة كهذا ؟ ألا ما أكثر
ما كانت تعرفه هذه المرأة وما لا يعرفه هو عنها ! ! .

فردت عليه وكأتما قرأت ما يدور في خاطره من تساؤل فقالت له :
هكذا كنت أستجدي لما كنت طفلة ، وهكذا كنت أطعم نفسي
وفي سنة قحط ومجاعة كهذه باعنى أهلى كجارية .. وحينئذ أستيقظ الشيخ
من نومه فأعطوه وعاء ، وخرج إلى الطريق ليستجدوا المارة ، وبدأت
الأم تصيح وتهز صفحاتها أمام كل عابر ، ودفع لها قليل من المارة قدرأ
ضئلا من الدراهم ..

وبعد فترة من الوقت بدأ الغلامان يتخذان الاستجداء نوعا من
اللعب ، وشعر الغلام الأكبر سنا بالهزل ، وبدأ يضحك وهو يستجدي
المارة ، فلما لمحتهما أمهمها جذبتهما إلى داخل الكوخ ، وكالت لهما
اللطبات مرارا وتكرارا ، حتى أخذا ينتحبان ، ثم صرفتهما قائلة : والآن
أتما صالحان للاستجداء ، يكفيكما هذا العقاب ، فاذا عدتما إلى الضحك
فستنالان أشد منه ...

أما وانج لنج فانه قد أخذ يتجول في الطرقات حتى وجد مكانا تقف
فيه النقالات لمن يستأجرها ، وهناك ، استأجر واحدة في مقابل نصف
قطعة فضية يدفعها في المساء .. ثم جذب تلك العربة الخشبية وهي تجرى
خلفه على عجلتيها ، وشعر بالارتباك وهو واقف بين عريشها ، كأنه
نور يوضع تحت المحراث لأول مرة ، وكاد لا يستطيع السير إلى الامام ،
فجرها إلى شارع جانبي ضيق ، ثم أخذ يسير فيه جيئة وذهابا فترة من
الوقت ، وبينما هو موشك على أن يقنع نفسه ، أنه من الخير له أن يستجدي
على أن يجر هذه العربة ، إذا بباب يفتح ؛ وبرجل طاعن في السن يتقدم
إلى الخارج وينادى عليه .

وبدا وانج لنج يحدّثه أولاً بأنه حديث عهد بهذا العمل ، إلا أنه تبين أن هذا الشيخ أصم ، لأنه لم يسمع كلمة بما قاله وانج ولم يرد عليه ، سوى أنه قال له :

خذني إلى معبد كونفوشيوس ... ثم جلس على العربة منتصب القامة هادئاً ، فانطلق وانج بالعربة إلى الأمام كما يفعل غيره ، مع أنه لم يكن لديه فكرة ما عن موقع المعبد ... ولكنه كان كلما تقدم يسأل الناس ، وبما أن الطريق الذي كان يسلكه غاص بالناس ، لم يجد وانج غضاضة في ألا يندفع جارياً بل آثراً أن يسير بقدر ما يستطيع من سرعة وقوة ... وترجل الشيخ من النقالة عند ما وصل وانج إلى أبواب المعبد ثم أخرج الشيخ قطعة فضية صغيرة وأعطاهها لوانج قائلاً : أني لا أدفع مطلقاً أكثر من هذه فلا فائدة من شكواك ... وفي الواقع لم يكن وانج في حاجة إلى الشكوى لأنه لم يكن قد رأى مثل هذه العملة من قبل ، ولم يعرف كم درهما يمكن صرفها ، ولذلك توجه إلى حانوت أرز مجاور ليصرفها ، فأعطاه الصراف ستة وعشرين درهماً مقابل قطعتي ، وكان وانج لنج مأخوذاً من هذه الطريقة السهلة الهينة ، التي يحصل بها الإنسان على المال في الجنوب ، ولكن سائق عربة آخر كان يقف إلى جواره وقد أوما برأسه نحوه وهو يعد النقود فقال لوانج لنج : ستة وعشرون درهماً فقط ؟

ما المسافة التي جرت ، فيها النقالة لهذا الشيخ ... ؟ فلما أخبره وانج بحقيقة الأمر ، صرخ الرجل في وجهه قائلاً : ياله من رجل قاسى القلب ! إنه أعطاك نصف الأجر المناسب . ؟ وبكم ساومته قبل أن تبدأ في جر

العربة ؟ . . . فقال وانج : إننى لم أساومه ، وكل ما فى الامر أنه عندما قال لى تعالى ، ذهبت إليه . . .

وصاح الرجل بأعلى صوته على الناس الواقفين حوله قائلاً : هذا ريفى ساذج دما ولحما ، أما أنت أيها الأحمق ، فلتعلم أن الاجانب البيض فقط هم الذين يساقون دون مساومة ، فإنهم حتى لا يعرفون الثمن الصحيح لأى شئ . ، فلتدع الفضة تسيل من جيوبهم كالماء . . . وأنصت له الجميع ثم اغرقوا فى الضحك .

ولم ينبس وانج لنج بينت شفة ، وشعر بالضة والجل بين أهل المدينة : ثم قال محدثا نفسه د ومهما يكن من أمر ، فإن هذه النقود ستكفى لإطعام أطفالى غدا . . . ثم تذكر فجأة أنه يجب عليه أن يدفع ايجار النقالة فى المساء وأنه ليس معه نصف هذا المبلغ المطلوب ، وفى خلال الصباح جر راكبا آخر إلا أنه ساوم هذا الراكب واتفق معه على الأجر وبعد الظهر نقل راكبين آخرين ، وفى المساء أحصى ما معه من نقود ، ووجد أن معه درهما واحدا علاوة على أجرة العربة ، ثم عاد إلى كوخه ، ومرارة الأسى تلسع قلبه . . .

وما أن دخل الكوخ حتى وجد ان أولان قد اكتسبت أربعين قطعة صغيرة ، أى ما يوازى اقل من خمسة بنسات ، وان ابنه الاكبر قد جمع ثمانية قطع ، والاصغر ثلاثة عشرة قطعة ، وبإضافة هذه النقود بعضها إلى بعض وجد أنه لديهم ما يكفى لشراء الارز فى الصباح . . . وكان ابنه الاصغر مغرما بالكمية التى جمعها فنام تلك الليلة والنقود فى

يده ، ولم يستطيعوا انتزاعها منه إلا بعد أن دفعها بنفسه في شراء الأرز
الخاص به ...

أما الشيخ فلم يجمع شيئاً على الإطلاق ، فلقد أمضى سحابة يومه
جالساً إلى جانب الطريق ، ولكنه لم يستجد أحداً ، وكان ينام حيناً ،
ويستيقظ حيناً آخر ، ولما شعر بالسأم والضجر نام ثانية .. وحيث أنه
رجل مسن ، ومن الجيل القديم ، فلم يخش لومة لائم ...

الفصل الثاني عشر

بعد أن هدأت سورة الجوع التي استبدت بوانج لنج ، بدأ يتعرف على هذه المدينة التي حط فيها رحاله ؛ فعلم أن الناس الذين يركبون في عربته صباحاً ، إذا كانوا من النساء فانهم يقصدون إلى السوق ، أما إذا كانوا رجالاً فانهم يذهبون إلى المدارس أو بيوت الأعمال والتجارة .. وعند المساء كانوا يتوجهون في عربته إلى المقاهي أو إلى أماكن التسلية ولكن وانج لنج لم يعرف نوعاً واحداً من هذه الملاهي بنفسه لأنه لم يعيشها ...

وهكذا أصبح وانج لنج وزوجته وأطفاله أشبه بالأجانب في هذه المدينة الجنوبية ، وأنه لمن البين أن الناس الذين كانوا يجوبون الطرقات في غدوم ورواحهم يستهونه بشعرهم الأسود مثل وانج لنج وأسرته ، وأنه لمن الواضح والمؤكد أنه لو أصغى الفسرد لهؤلاء الجنوبيين وهم يتحدثون بلغتهم فانه يستطيع أن يفهمها في قليل من المشقة ...

ولكن القرية الصغيرة ، المتناثر فيها الحظائر والأكواخ ، كانت ملتصقة أشد التصاق بالسور ولم تصبح جزءاً من المدينة ، أو الريف اللتين تمتدان بعيداً ، وفي ذات يوم سمع وانج لنج شاباً يهتف في جمهور من الناس ويعلن أن الصين يجب أن تقوم بثورة وتعلن سحقها على الأجانب فانزعج وانج لنج وتسلل وحيداً ، وهو يشعر في قرارة نفسه انه ذلك الأجنبي الذي خطب ضده ذلك الشاب .

حدث مرة أخرى أنه بينما كان ماراً في شارع بسوق الحرير باحثاً عن مسافر أو راكب رأى عدداً هائلاً من الأجانب فأدرك أنه ليس الاجنبي

الوحيد . . . وفي نفس ذلك اليوم تصادف أنه كان يمر بباب حانوت لبيع
الحزير ، فرأى بعض السيدات وهن يخرجن منه ، حاملات في أيديهن
ما اشترين من الحانوت فلهج من بينهن مخلوقاً خارجاً منه ؛ مخلوقاً لم ير له
مثيلاً من قبل ، ولم يستطع أن يميز أهو ذكر أم أنثى . . . إلا أنه فارح
الطول ، يرتدى معطفاً من قماش سميك يلف عنقه بجلد حيوان ، فأشار
له هذا الإنسان أن يهدأ من عربته ، ثم أخبره بلهجة من العسير فهمها
أن يوصله في عربته إلى شارع الكبارى ؛ وبعد أن صعد الراكب
في العربة ، أخذ يجرها بسرعة فائقة وهو لا يدري حقيقة ما كان يفعله
ثم رأى زميلاً له يجرح عربة أخرى ، كان قد تعرف عليه أثناء عمله ، فنادى
عليه وسأله قائلاً : أنظر إلى من في عربتي . من تكون تلك التي أجراها !!
فرد عليه زميله صائحاً : إنها سيدة أجنبية من أمريكا . أنها ستدفع لك
مالاً وفيراً يثريك . . .

وأمن وانج لنج في الجرى بأقصى ما يستطيع ، خوفاً من المخلوق
الغريب الجالس خلفه ؛ فلما وصل إلى شارع الكبارى كان منهوك القوى
وخطت السيدة من العربة وقالت له في لهجتها الغامضة ، ما كان حرياً
بك أن تجهد نفسك في الجرى حتى الموت ، ثم تركته بعد أن نفخته
قطعتين فضيتين ، ألقتهما في راحة يده ؛ وكان في الواقع أجرًا مضاعفاً
عن الأجر المألوف وحيثند أدرك وانج أنها كانت حقاً سيدة أجنبية بل
أنها أجنبية أكثر منه في هذه المدينة ، وفهم أن الناس من ذوى الشعر
الأسود والعيون السوداء ينتمون إلى جنس واحد ؛ وأن أولئك من ذوى
الشعر الفاتح والعيون الفاتحة ينتمون إلى نوع آخر . . .

وفي كل صباح بعد أن يبرغ الفجر بقليل كان وانج وأسرته يهرعون

إلى الطريق وفي أيديهم أوعيتهم والمعصي التي يأكلون بها ، ثم ينخرطون في الموكب الطويل من الناس الذين يسرون ورباح الصباح الباردة تلفحهم ، قاصدين المطاعم الشعبية . . ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يكسبوا نقوداً وفيرة تعينهم على أن يطهروا بأنفسهم أرزهم في كوخهم .

وفي ذات ليلة رجع وانج لنج إلى كوخه متأخراً ، فوجد في الحساء السميك للكربن قطعة طيبة مستديرة من لحم الخنزير ؛ ولقد كانت هي المرة الأولى التي يطعمون فيها لحمًا منذ أن ذبحوا ثورهم العزيز ، فانسعت عينها وانج دهشة وقال مخاطباً زوجته أولان : لا بد وأنكم قد استجديتم من أجنبي هذا اليوم - إلا أن زوجته لا ذت بالصمت ، ولكن ابنة الأصغر الذي ملأه الكبرياء زهواً قال لآبيه :

- إنني قد أخذتها . . فقد أحضرتها . . ولذلك فهذه القطعة لي . .
إنها من نصيبي ؛ فعندما التفت الجزار في الناحية الأخرى ، أخذتها ولم يرني وجريت حتى اختبأت في زقاق . .

فصاح وانج لنج غاضباً : تالله لن آكل هذه القطعة ! إننا نرضى أن نكون شحاذين ، ونأبى أن نكون لصوصاً . . ثم انزع القطعة من القدر ، وألقى بها على الأرض .

ثم تقدمت أولان ، والتقطت القطعة ، وغسلتها ، ووضعها في القدر الذي كان يغلي وقالت في هدوء :

- ما اللحم إلا لحم 11 .

لم يرد عليها زوجها ، بل خاطب نفسه قائلاً :

- يجب أن نعود أدرأجنا إلى الأرض .

الفصل الثالث عشر

عاش وانج لنج يوماً بعد يوم تحت سماء هذه المدينة الغنية ، عاش تحت عمد الفقر الذي شيدت عليه ، وكان الطعام يفيض عن سعة في حوانيت تلك المدينة ، والرجال الأثرياء ينعمون بارتداء ملابس من حرير وقطيفة ، إلا أن الحى الذي يعيش فيه وانج لنج كان لا يوجد به طعام يسد الرمق ، وليس به ملابس تقى الأبدان ، وتستر العظام .. وقبل الرجال والنساء الطاعنون في السن والطاعنات هذه الحياة ، رضوا جميعاً بحياتهم التي يحيونها على علاتها . ولكن الشباب كان يسرى بينهم حديث غاضب ... وعندما أرفه وانج لنج أذنيه ذات مساء لهذا الحديث ، سمع لأول مرة ما كان يجرى ويحدث في الجانب الآخر من الحائط الهائل الذي تلتصق به أكواعهم ...

وكان الوقت شتاء، عندما أشرفت أيامه على الانتهاء، وحينما يبدو أنه من الممكن أن تهل أيام الربيع ، وكانت الأرض فيما حول الأكواع ملوثة بالطين، والثلج الذائب، والماء يجرى منحدرًا نحو الأكواع ، لذلك كانت كل أسرة قد تصيدت بعض الأحجار القليلة من هنا وهناك لتنام فوقها .. وسرت في تلك الليلة نسمة ندية رقيقة في الهواء أقضت مضجع وانج لنج، وأرقت نومه فلم يغمض له جفن مباشرة بعد العشاء كما هي عادته المتبعة ، ولذلك خرج إلى الطريق حيث ظل واقفاً في تكاسل واسترخاء .. وقف حيث كان الشيخ يجلس كالمعتاد ، يراقب حفيدته الصغيرة وشعر وانج لنج بريح المساء وهي تهب على وجهه في لطف . فقامت في نفسه عاطفة قوية من الشوق والحنين إلى حصوله ..

فقال بصوت عال مخاطبا أباه : إنه في يوم كهذا ينبغي علينا أن نقلب الأرض ، ونزرع القمح...

فقال والده : آه ! انى لأعرف ما يدور بخلدك، وما يجري في خاطرك فيما مر بي من سنين اضطررت مرتين ثم مرتين أن أترك بلدى وأرضى كما تركناهما نحن الآن ...

— ولكنك كنت تعود إليهما يا والدى.. فقال له الشيخ فى بساطة: نعم كانت هنالك الأرض يا بنى .. ولذلك رجعت .. فقال وانج مخاطبا نفسه : حسنا .. سوف نعود إلى أرضنا أيضا فان لم يكن فى هذا العام ، فى العام القادم ..

ثم عاد إلى الكوخ ، وقال لزوجته فى خشونة : إذا كان لدينا شيء يمكن أن أبيعته ، فسأفعل ، وأعود إلى الأرض ..

وكانت أولان منهمكة فى غسل أواني الأرز ، ثم أخذت تكومها فى ركن من الكوخ ، ثم تطلعت بوجهها نحووه وهى جالسة فى مكانها ، وأجابته فى بطة :

— ليس لدينا ما نبيعه سوى الطفلة .. فرد عليها بصوت مرتفع : لا.. لن أبيع طفلا ..

فردت عليه فى بطة شديد : لقد باعوني لبيت عظيم ليستطيع والداى أن يعودا إلى وطنهما ..

— ألهذا السبب تودين أن تبيعى الطفلة ؟

لو كان هذا يخصنى وحدى ، لكنت أفضل أن أقتلها على أن أبيعها ولكنى سأبيعها من أجلك أنت لتحملك بشمها على العودة إلى أرضك ..

فقال لها وانج : لن أفعل هذا مطلقا ولو أمضيت عمري وحياتي في هذه الأرض القفر اليباب ..

ولكنه عندما خرج مرة أخرى ، عاودته الفكرة رغما عن إرادته ، فنظر إلى الطفلة وهي جالسة مع جدها، وبدت كأنما تكبرت، فلما نظر إليها ابتسمت فقال محدثا نفسه : كان من الممكن أيعها لولا أنها قد ابتسمت لي هكذا ... !!

ثم عاوده التفكير في أرضه ، وقال في عاطفة مشبوبة : ألن أراها مرة أخرى ؟ على الرغم من كل هذا الكد والاستجداء ، فلا نملك مطلقا إلا ما يسد رمقنا ..

وسرى صوت من خلال الظلام وأجابه قائلا : انك لست الوحيد الذي تشكو ، يوجد مئات ومئات مثلك في المدينة .

وسار نحوه الرجل، يدخن غليوننا قصيرا من البوص، لقد كان عائل الأسرة التي تقطن في الكوخ الثالث من كوخ وانج ، وقلبا كان يرى هذا الرجل أثناء النهار ، إذ كان يتام نهاره كله ، وبشتغل ليله بطوله . . وكان أحيانا في المساء ، وقبل أن يبدأ عمله الليلي ، كان هذا الرجل يخرج من كوخه ، ويقف مع الرجال الذين كانوا على وشك أن يدخلوا إلى أكواخهم ليناموا . .

وسأله وانج في مرارة : ولكن أسيستمر الحال على هذا المنوال إلى الأبد ؟

ونفث الرجل الدخان من غليونه، ثم بصق على الأرض، وبعد لحظة قال: — لا . . لن يستمر إلى الأبد . . عندما يكون الأغنياء أغنياء إلى

درجة التخمّة فهناك طرق ؛ وحينما يكون الفقراء فقراء مدقّمين فهناك طرق أيضاً ؛ ففي الشتاء الماضي قد بعنا طفلتين ، ولقد أبتيت جارية واحدة - بتي البكر ، أما الجوارى الأخرى فن الأفضّل أن نبيعها على أن نقتلها ، وهذه هي إحدى الطرق التي تتبع إذا كان الفقراء فقراء إلى الحضيض ، ولكن إذا كان الأغنياء أغنياء إلى درجة التخمّة ، فهناك طريقة ، وإذا لم أكن مخطئاً في زعمي هذا فإن هذه الطريقة سوف تحين عاجلاً . . ثم أشار بيده إلى الحائط خلفهما ثم تابع كلامه متسائلاً : رأيت ما وراء هذا الحائط ؟

فجز وانح رأسه نائياً ، وظل محلقاً . . ثم استطرد الرجل قائلاً : لقد أخذت إحدى بناتي إلى هؤلاء الذين يقيمون وراء هذا الحائط لأبيعها فرأيت حياتهم ، وإنك لن تصدقها إذا ما أخبرتك كم من الأموال تغدو وتروح في ذلك البيت ، حتى جوارهم من النساء يعلقن في آذانهم أفرطاً من حجر البشم ، السكريم واللؤلؤ ، بل إنهن يخيطن اللؤلؤ في أحذيتن ، وإذا وقعت قطعة من الطين فوقها ، فإنهن يرمين أحذيتن بما فيها من لآلىء . .

وكان وانح ينصت ، وقد ففر فاه ، وقال لنفسه : فيما وراء هذا الحائط ،

توجد مثل هذه الأشياء إذن ۱۱

فقال له الرجل : هناك طريقة عندما يكون الرجال مفرطين في الغنى . . ثم صمت هنيهة وكأنه لم يقل شيئاً وتابع حديثه قائلاً : حسناً إلى العمل من جديد . . ثم ذهب ، وابتلعه الظلام ۱۱ ولم يبق وانح لتنج طعم النوم فقد كان مغرقاً في التفكير في الذهب

والفضة واللاّلىء التى توجد فى الجانب الآخر من ذلك الحائط ، بينما رقد فى الجانب الآخر يغطيه نفس الثوب الذى يرتديه يوماً بعد يوم ، لأنه لا يملك لحافاً يغطيه ويقيه البرد ، ويرقد على حصيرة مفروشة على الأرض . . ثم قال لنفسه :

— إنه لمن الأفضل أن يبيع الطفلة لأهل بيت ثرى حتى تستطيع أن تكل أكلا شهياً ، وتزين باللاّلىء . . ثم قال لنفسه رغماً عن مشيئته : حسناً . . فإذا بعته ، وأنت لنا بالمال الوفير الذى يعيننا على العودة إلى الأرض ، فمن أين نحصل على ما نشترى به ثوراً ، ومنضدة ، وسريراً ، ومقاعد من جديد؟ أسنبيع طفلة لكى نموت جوعاً هنالك بدلاً من هنا؟ إننا لا نملك حتى الحبة الواحدة لننرسها فى الأرض . .

ولذلك لم يدرك حلاً ما للطريقة التى حدثها عنه الرجل عندما قال له :
« هناك طريقة يجب أن تتخذ عندما يكون الرجال أغنياء وأغنى بما يجب ، .

الفصل الرابع عشر

أقبل الربيع على قرية الأكواخ ، فأخذت جماعات من النساء في أسمال بالية تخرج مع أطفالها من أكواخها لتبحث عن الطعام في جنبات الريف ، ومنحطفات الطرق . وكانت أولان تخرج كل يوم مع ولديها وسط هذه الجماهير .

لقد كتب على الرجال أن يعملوا ، ولذلك عمل وانج لنج كما كان يفعل من قبل .

لقد كانوا يكدحون في الشتاء وهم صامتون يتحملون في صبر برودة الثلج والجليد تحت صنادلهم المصنوعة من القش ، ويعودون إلى أكواخهم في الظلام ، ويأكلون دون أن يتفوهوا بكلمة ؛ يأكلون الطعام الذي حصلوا عليه من يومهم المليء بالكد والاستجداء ، ثم يغطون في نومهم . وعندما أشرقت طلعة الزبيع عليهم بدأ الحديث يجرى على شفاههم وكان هؤلاء الرجال يتحدثون دائماً عن المال ، عن درهم أنفقوه في شراء ما طوله قدم من القماش ، أو فيما يستطيعون أن يكسبوه في نهارهم وأخيراً كانوا يتحدثون دائماً فيما سوف يفعلونه إذا كان لديهم من المال مثلما يمتلكه الرجل الذي يسكن وراء الحائط .

وبينما كان وانج يصنعى إلى كل هذه الأشياء كان يسمعهم يقولون فقط كم يتمنون أن يأكلوا ويناموا ، وكم من صنوف من الغذاء يتمنون أن يأكلوها ، صنوف لم يتذوقوا لها طعماً من قبل ، وقبل كل شيء كان يسمعهم يقولون كم ييغون ألا يشتغل الواحد منهم قط مثل هذا الرجل وراء الحائط الذي لم يشتغل إطلاقاً . .

وصرخ وانج لنج فجأة :-

إذا ملكت يميني الذهب والفضة ، فسأشترى بها أرضاً ؛ أرضاً طيبة ،
أستنيبها فتخرج لى المحاصيل من باطنها . . . 1

حتى إذا ما سمعوا قوله هذا ، كانوا يقابلونه بالاحتقار ، ولكن
هذا الازدراء لم يكن ليحول وانج عن عزمه وتصميمه ، بل كان يزداد
قلقاً وشغفاً كل يوم للأرض التي كانت لديه من قبل . . .
وهكذا كان دائم التفكير فى الأرض حتى أصبح يرى الأشياء
تحدث فيما حوله فى المدينة كأنها تجرى فى إطار حلم جميل . فكان هناك
على سبيل المثال الورق الذى يوزعه الرجال هنا وهناك ، والذى كانوا
يعطونه منه أحيانا .

لم يتعلم وانج لنج مطلقاً فى شبابه أو أى فترة من حياته معنى هذه
الحروف التي تكتب على الورق ، ولذلك لم يستطع أن يفسر أى شيء
لنفسه من هذه الأوراق المغطاة بعلامات سوداء ، وتباع بواسطة حفنة
من الناس ، أو تعطى بلا مقابل ولقد أعطى مثل هذا الأوراق مرتين . . .
وفى المرة الأولى حمل الورقة إلى بيته ليلا ، وأطلع أباه عليه ولكنه
لم يستطع بدوره أن يقرأه ، وبعد مرور عدة أيام وقد نسى كل شيء . من
أمر هذا الورق وجدته أولان وأخذته ، ثم خاطته فى نعل حذاء مع
الأوراق الأخرى التي إلتقطتها من هنا وهناك لتجعل نعال الأحذية
صلبة قوية . . .

وفى المرة التالية ، قابل وانج لنج شابا من المدينة ، حسن الملبس ،
فناوله ورقة عليها صورة رجل ميت ، رجل يشبه وانج لنج نفسه ، أصفر
ضئيل الجثة على جسده أسمال رثة ، زرقاء لونها . . . وعلى صورة الرجل

الميت وقف رجل قابضاً على سكين طويلة ، فخلق فيها وانج ، واشتاقت
نفسه أن يفهم معنى الحروف التي في أسفل الصورة . فالتفت إلى الرجل
الذي كان يقف بجواره وقال له :

أتعرف حرفاً أو حرفين فيمكنك أن تحدثني عن هذا الشيء المخيف ؟
فقال له أجل : كن رابط الجأش وأصغ إلى المدرس الشاب ؛ أنه
سيشرح لنا كل شيء . . .

وهكذا أصغى وانج لنج ، وسمع ما لم يسمع له مثيلاً من قبل .
وصاح المدرس الشاب يقول : أن الرجل الميت هو أتم أنفسكم ،
وأن الرجل الذي يقتلكم هو الرجل الغني . .

وصعدت صيحة مدوية من حناجر المصغين له ، ولكن وانج لنج
انصرف غير راض عما سمع . . ومهما يكن من أمر فإنه قد أخذ في رضى
تام الأوراق التي أعطاهها له الشاب ، لأنه تذكر أن أولان لم يكن لديها
مطلقاً ورق كاف لتصنع منه نعل الأحذية ، ولذلك أعطاهما لها عندما
وصل إلى البيت .

وبالإضافة إلى الكدر الذي نشره الربيع كان هنالك كدر آخر
أحدثه ونشره الشاب ومن على شاكلته بين سكان الأكواخ . . ولكن
وانج لنج بمفرده ، على الرغم من أنه قد لاحظ هذا القلق ، وشعر بالغضب
الذي استبد بالنفوس ، فإنه ما كان ليرغب في شيء سوى أن يرى أرضه
تحت قدميه مرة أخرى .

وفي هذه المدينة رأى وانج لنج شيئاً جديداً آخر لم يفهمه إذ رأى
ذات يوم بينما كان يبحث عن زبون يحمله على عربته ، رجلاً يقبض عليه

جماعة صغيرة من الجنود المدججين بالسلاح ، وبينما كان وانج لنج يراقبهم في دهشة بالغة ، قبضوا على رجل آخر ، ثم ثالث وبينما هو مفروق في حملته ، قبضوا على رجل آخر ، وكان هذا الأخير ، هو جاره الذي يسكن في الكوخ المجاور له ، والملاصق للحائط .

ثم أدرك وانج لنج أن هؤلاء الرجال كانوا يجهلون تماماً كما يجهل السبب الذي من أجله قد قبض عليهم ، فدفق وانج نقالته إلى زقاق جانبي ، وهروا إلى باب حانوت للماء الساخن ، واختبأ حتى انصرف الجنود ، ثم سأل بعد ذلك صاحب الحانوت عن معنى ما رآه ، فأجابه الرجل الكبير السن بلا اكتراث :

— إنها ليست إلا ثمة حرب قد اشتعلت في مكان ما ، من يدري سبب كل هذا القتال ؟ ولكن هكذا ظلت الأحوال منذ أن كنت صبياً ، وهكذا ستظل بعد أن أموت ، وإني لأعرف ذلك كل المعرفة . إن هؤلاء الجنود ذاهبون إلى ميدان القتال في مكان ما ، وهم يرغبون العمال أمثالك على أن يحملوا لهم فراشهم وبنادقهم ، ولكن من أى بلدة أنت ؟ فهذا المنظر ليس بالجديد أو الغريب في هذه المدينة .

فسأله وانج لنج وهو يلهث : ثم ما ذا بعد ذلك ؟ أى أجر يعطون ؟ وإلى أين يعودون ؟

ولكن هذا الرجل كان شيخاً طاعناً في السن ولذلك أجابه في إهمال : ليس هناك من أجر وإنما يعطون فقط قطعتان صغيرتان من الخبز الجاف كل يوم ، وكمية من الماء من بركة ، ثم قد تعود إلى بيتك عندما تصل إلى المكان المقصود إذا استطاعت ساقك أن تحملك .

فقال له وانج مذعوراً : حسناً . . . ولكن أسرهم . . . فقال له



أخى وانج لنيج رأسه وأخذ الجنود يذرعون الشارع

الرجل : حسناً وماذا يهمهم لأن يعرفوا أو يهتموا بذلك . . ومهما يكن من أمر فإن هذا الشيخ كان رجلاً شفوفاً ورأى ما لم يستطع وانح أن يراه من مخبأه ؛ رأى الجنود مقبلين مرة أخرى ، يفتشون الشوارع ، التي هرب منها الآن كل رجل قوى البنية . .

فقال لوانج لنج : أحنى رأسك إلى أسفل قليلاً . إنهم آتون هنا مرة أخرى . . . فأحنى وانج رأسه إلى أسفل كثيراً ، ثم ذرع الجنود الطريق وهم يدقونه بأحذيتهم الكبيرة متجهين غرباً ؛ وعند ما خفتت أصوات وقع أقدامهم ، اندفع كالتذيفة خارجاً من وراء القصور والحانات ، وقبض على عربته ، وجرى بها وهي خالية من الركاب إلى كوخه . . وكانت هناك أولان بعد عودتها من الطريق لتطهو قليلاً من مادة خضراء كانت قد جمعتها ، فقص عليها في كلمات غير متكاملة ، وهو يلهث أنفاسه كل ما حدث ، وكيف أنه قد نجح بصعوبة كبيرة ثم نظر إلى أولان وقال لها : إننى قد أغريت على بيع طفلى لنعود شمالاً إلى أرضنا .

ولكن بعد أن استمعت له ، قالت له بطريقها الصريحة التي لم تتغير :
انتظر أياماً قليلة ، فهناك حديث غريب سمعته .

يسد أن وانج لم يخرج مطلقاً بعد ذلك في ضوء النهار ، بل إنه كان ينتظر حتى يأتي المساء ، ثم يذهب إلى البيوت التجارية وكان يأخذ نصف ما كان يكتسبه في مقابل أن يجر ليلاً العربات الضخمة المحملة بالصناديق وكان يجرها اثني عشر رجلاً في عناء ومشقة .

وظل طوال الليل يكد ويكدح في الطرقات المظلمة ، ثم كان يعود إلى بيته قبل الفجر لاهث الأنفاس ، محطم الجسد ، لا يكاد يأكل طعامه حتى ينام ليستريح ، ولكن كان في أثناء النهار الساطع ، عند ما كان

الجنود يندرعون الطرقات بحثاً عن العمال ، كان ينام نوماً هادئاً آمناً في أقصى ركن من الكوخ خلف كومة من القش جمعتها له أولان لتكون مأوى له .

ومن كوخه الذى كان يرقد محتباً فيه كان وانج لنج يسمع ساعة بعد أخرى وقع أقدام الجنود ، سائرين في خطواتهم النظامية إلى ميدان القتال، ولم يجرؤ شخص على أن يتحدث مع آخر في تلك الأيام ، وكانت المدينة تهزرباً وهلعاً ، وكان كل رجل يفعل ما ينبغى أن يفعله في الخارج سريعاً ثم يرجع إلى بيته ، ويخلق عليه بابه .

وتهامس الناس في كل مكان بأن العدو يقترب ، وشعر بالجزع كل من كان يمتلك أو يقتنى شيئاً ، إلا أن وانج لنج لم يكن خائفاً ، ومثله كذلك كان سكان الأكواخ لا يخافون شيئاً ، فإذا ما اقترب العدو ، فرحوا باقترابه لأنه لا يمكن أن يروا أسوأ مما كانوا فيه ، وظل كل رجل يتوفر على أداء عمله ، ولم يتجاسر أى فرد أن يتكلم مع أى شخص آخر جهاراً ،

ثم أمر مديرو البيوت التجارية عمالهم أنهم ليسوا في حاجة إليهم حيث أنه قد كف الناس عن البيع والشراء ، وهكذا قبيع وانج لنج في بيته لا يفارقه ليل نهار وقد خيم عليه الكسل ، وكان مسروراً في ياديه الأمر لأنه أحس أن جسمه محتاج إلى قسط كبير من الراحة ، وما دام لم يشتغل فإنه لم يكسب قوته ، وبعد مرور عدة أيام قليلة أنفقوا آخر درهم لديهم ، وأخذ يسأل نفسه في يأس عما ينبغى أن يفعل . وكانما لم يصاب الناس بشر مستطير ولم تحل بهم المصائب ، إذ أغلقت المطاعم الشعبية

أبوابها ، ولم يعد هناك طعام أو عمل ، وكف الناس عن المرور في الطرقات ، فلم يجدوا أحداً يستجدون منه الإحسان .

ثم أخذ وانج لنج طفلة بين ذراعيه ، وتطلع في وجهها وقال لها في حنان : أيتها البلهاء الصغيرة ، أتجبن أن تذهبي إلى بيت عظيم حيث تأكلين وتشرين ، وتلبسين معطفاً يقي جسمك كله ؟

وابتسمت الطفلة ، وهي لا تعي حرفاً واحداً مما قاله ، ورفعت يدها الصغيرة لتمس وجهه ، فلم تستطع أعصابه أن تتحمل ذلك ، وصاح بزوجه قائلاً :

— خبريني . . هل كنت تضرين في ذلك البيت الكبير ؟ - فأجابته دون مواربة وفي كآبة :

— كنت أضرب كل يوم بسوط من الجلد كان معلقاً على حائط المطبخ . .

ثم أخذ وانج يضم الطفلة إلى صدره ويكرر قوله في حنان : آه أيتها البلهاء الصغيرة . . آه أيتها البلهاء الصغيرة . . ولكنه كان في قرارة نفسه يبكي : - ليس هناك من سييل آخر . . ليس هناك من سييل آخر .

ثم فجأة سمع وهو جالس في مكانه ضوضاء آ كأنما انشقت السماء ، وسقط كل واحد منهم على الأرض ، وأخفوا وجوههم؛ فغطى وانج لنج وجه الطفلة بيده ؛ صاح الشيخ في أذن وانج لنج :

— إنني لم أسمع قط مثل هذا في حياتي كلها . .

وصرخ الولدان من الرعب .

ولكن عند ما ساد السكون فجأة كما قد تحطم من قبل فجأة قالت أولان وقد رفعت رأسها : إن ما سمعت به قد بدأ يحدث ، لقد اقتحم

الأعداء أبواب المدينة - وقبل أن يجيب عليه أحد دوت صيحة في المدينة ، وكانت في بادىء الأمر خافتة ، ثم تجمعت في صوت عواء عميق ، ثم علت وعلت حتى ملأت الطرقات .

وحيثئذ نهض وانج لنج على قدميه ، واجتاحه خوف شديد ، وأخذوا يملقون في بعضهم بعضا وكأنهم ينتظرون شيئا لا يعرفونه .

ثم سمعوا من فوق السور قريبا منهم صوت باب كبير يفتح عنوة ، وبغاة برز الرجل الذى كان يخاطب وانج لنج في المساء ودفع رأسه في فتحة الكوخ وصرخ قائلا :

- أما زلتم جالسين هنا ؟ لقد حانت الساعة - إن أبواب الرجل الغنى قد فتحت لنا الساعة .

وكانما مس أولان سحر فهبت زاحفة تحت ذراع الرجل وهو يتكلم . ثم نهض وانج لنج في ببطء شديد ، ثم أجلس الطفلة على الأرض ، وخرج ، وهناك أمام الأبواب الحديدية لبیت الرجل الغنى كانت كتلة هائلة من الناس متصايحة تندافع بالمناكب إلى الامام ، ثم عرف أن على أبواب الأثرياء كانت هنالك كتل من الرجال والنساء متصايحة مرجرة كاد الجوع أن يقضى عليهم ، والسجن يحطمهم ، وكانما أطلق سراحهم في هذه اللحظة ، ليفعلوا ما يشاءون وفتحت الأبواب العظيمة ، وتقاطر الناس وهم يضغطون على بعضهم بعضا حتى أصبحت الكتلة كلها تتحرك حركة واحدة وكأنها كتلة واحدة ، وجاءت جموع من الخلف مسرعة ، وامسكت بوانج لنج ، ودفعته قسراً وسط الزحام سواء أكان راغبا أو رافضا .

واجتاحت الجماهير غرفة في إثر غرفة فلم يستطع أى فرد من أولئك

الرجال أو النساء ممن كانوا يسكنون ذلك البيت . . ولكنه رأى الطعام معداً على المائدة في الغرف ، وأن النار يشتعل أوارها في المطابخ .. مرحياً إن هذا الجمهور الغفير قد عرف غرف الأغنياء ، لأنهم قد اكتسحوا كل شيء في الغرف الداخلية ، حيث كانت توجد سرر السادة والسيدات ، تلك السرر الفاخرة والصناديق المملأى بالأقشعة الحربية والكنوز فانكب عليها الجمهور يخطف كل شيء دون أن يتوقف فرد واحد ليرى ما أخذه وأتزهه . .

وفي وسط هذه الفوضى كان وانج لنج هو الوحيد الذي لم يأخذ شيئاً ، فهو لم يأخذ في حياته كلها شيئاً ليس ملكاً له ، ولم يستطع مرة واحدة أن يفعل ذلك ، ولذلك وقف وسط الجماهير أولاً ، ثم عاد إلى شعوره نوعاً ما ، فاندفع إلى طرف الغرفة فوجد نفسه في نهاية غرفة داخلية حيث تسكن بسيدات الأغنياء وكانت البوابة الخلفية مفتوحة على مصراعها ، ومن خلالها لا بد وأن الجميع قد هربوا في هذا اليوم بلاشك ، وأنهم قد تسلموا يختفون هنا وهناك في منحطقات الشوارع ولكن رجلاً واحداً فشل في أن يهرب وهذا الرجل وحده هو الذي باغته وانج لنج في غرفة داخلية خالية .

وكان رجلاً بديناً ، ضخماً الجثة ، متوسط العمر ، وعند ما لمح وانج لنج اهتز خوفاً من رأسه إلى أخمص قدميه وصرخ ، حتى إن وانج لنج لم يسمعه إلا أن يضحك من مرآه ، وجثا الرجل البدين على ركبتيه ، وصرخ قائلاً :

— إنقاذ حياتي - لا تقتلي - فسأعطيك مالا وفيراً . .

إنها كلمة (المال) هي التي طرأت في عقل وانج واضحة جلية كأنما صوت يتحدث : المال - إن ابنتك قد أنقذت وأرضك كذلك !

صرخ في صوت لم يعرف له مثيلاً من قبل في حيايا صـ
وقال للرجل :
- إعطى المال إذن ..

وأخرج الرجل البدن وهو يبكي وينتحب يديه الصفراوين من جيب
ردائه يتقاطر منهما الذهب وبسط وانج لنج طرف معطفه ، وتلقاه منه
ومرة أخرى صاح بصوت غريب كأنما هو صادر من رجل آخر غيره :
- أعطنى مزيداً من المال .. !

ومرة أخرى أندفعت يدا الرجل من جيب المعطف ، يتقاطر منهما
الذهب ، ثم صرخ في أنات تعسة : لم يعد معى شيء ولا أملك شيئاً سوى
حياقي البائسة .. ثم انهمرت دموعه ..

وسدد إليه وانج لنج وهو يرتعش ويبكي ، وفجأة شعر نحوه بحقد
شديد لم يحسه نحو انسان من قبل وصاح في الرجل قائلاً : أغرب عن
وجهى ، وإلا قتلتك كما لو كنت أقتل دودة سمينة !

وهكذا صاح وانج لنج مع أنه كان رجلاً رقيق الفؤاد ، لم يستطع
أن يذبح نوره ، وجرى الرجل وأطلق ساقبيه للريح ، ثم غاب
عن الأنظار .

وهكذا ظل وانج لنج واقفاً في مكانه والذهب في حوزته . ولم
يتوقف طويلاً لكي يعده ، ولكنه دسه في صدره تحت ملبسه ،
وانصرف من الباب عابراً الطرق الخلفية حتى وصل إلى كوخه
وأحتضن الذهب ، وضمه إلى صدره فشعر بأنه ما يزال دافئاً من
جسم صاحبه ثم غمغم لنفسه مرات ومرات :

دعود إلى الأرض .. في الغد نرجع إلى الأرض ..

الفصل الخامس عشر

قبل أن تنقضى أيام قليلة ، بدأ لوانج لنج أنه قد أصبح قريباً من أرضه ، ولم يشعر في أطواء قلبه في الواقع أنه بعيد عنها . . . واشترى بثلاثة قطع ذهبية بذوراً طيبة من الجنوب وحبوباً من القمح والأرز ؛ وفي اندفاع ومخاطرة اشترى بذوراً لم يزرع مثيلاً لها في أرضه من قبل ، بذور خضر وزهر اللوتس لبركته ، واشترى أيضاً كمية عظيمة من خضروات السلطة الحمراء ، المسلوقة مع لحم الخنزير كتلك الأصناف التي تقدم في الولايم ، واشترى أيضاً فولاً صغيراً أحمر . . .

ودفع خمس قطع ذهبية ثمناً لثور اشتراه من فلاح يحرث أرضه ، اشترى هذا كله قبل أن يعود إلى وطنه وأرضه . . . ولقد رأى الفلاح يحرث الأرض ، فوق بل وقت أسرته معه يشاهدون الثور ، فجذبت رقبة الثور الطويلة انتباه وانج فنادى قائلاً لصاحبه : هذا ثور لا قيمة له ، فإذا تقبل ثمناً له؟ أفضه أم ذهباً؟ فانت ترى أني لا أملك حيواناً ، وفي رغبة ملحة لأن أشتري أي شيء . . .
ورد عليه الفلاح قائلاً :

— دإني لأفضل أن أبيع حياتي على أن أبيع ثوري ، فعمره ثلاث أعوام ، وفي عنفوان قوته . . . وتابع الرجل حرثه ، ورفض أن يتوقف عن العمل أكثر من هذا في سبيل وانج لنج . . .

وحيث بدأ لعيني وانج لنج أن هذا الثور من دون ثيران الأرض جميعاً يجب أن يكون ملكاً له ، ثم قال مخاطباً أولان : ما رأيك في هذا الثور؟ فقالت له أولان : إن عمره أربعة أعوام وليس ثلاث كما قال

صاحبه .. إلا أن وانج لنج لم يجبا ، فقد استهواه هذا الثور ، وأسر قلبه ،
ثم ذهب إلى الفلاح ، وقال له :

— سامنحك مالا وفيراً يعينك على شراء ثور آخر ، وأفضل منه ،
ولكن هذا الثور فسأشتره وسيكون ملكاً لي ..

وأخيراً بعد أن طالت بينهما المساومة والمشاجرة ، قبل الرجل أن
يتخلي عنه بما يوازي ثمن ثورين في تلك المناطق ، وقاده وانج لنج من
حبل مربوط من خياشيمه .

ولما وصلوا بيئهم وجدوا بابه قد تداعى ، والتقف قد انهار ،
ولم يجدوا أثراً للمناجلهم وفؤوسهم التي كانوا قد تركوها .. وما أن تلاشت
دهشتهم الأولى ، حتى بدا لوانج لنج أن هذه أمور تافهة وكانما لم يحدث
شيء إطلاقاً .. وذهب إلى المدينة ، واشترى محرثاً جديداً ، وفأسين
ومنجلين ، وحصرأ ليغطي به سقف بيته حتى يحين الوقت لبناء البيت
من جديد ..

ووقف في المساء على باب البيت ، وسدد نظره إلى أرضه فوجدها
مفككة مزدهرة من أثر الشتاء القارص وجدها جاهزة معدة للغرس
والإنبات وكان الريح ينشر بهاء فرأى في أضواء الشفق أشباح الأشجار
تلوح ممتدة في أطراف الحقل القريب ، وكانت أشجار خوخ و صفصاف
تفتح براعمها عن أوراق خضراء ناضرة رقيقة وانتشرت غلالة من الضباب
من الأرض التي طال انتظارها ، وتعلقت بسيقان الشجر فحبتها .

ولأول مرة ، وبعد وقت طويل ، بدا لوانج لنج أنه لا يود رؤية
إنسان ما ، وأن يظل وحيداً فريداً في أرضه ولم يذهب إلى أي بيت من

بيوت القرية ، وعندما جاء إليه جيرانه ، كان حازماً صارماً معهم ،
وصاح فيهم قائلاً :

— من منكم نزع باب بيتي ؟ ومن منكم سرق فأسى ومنجلى ؟
ثم جاء جاره تشنج يجر نفسه جراً ليرى وانج لنج وقال له : لقد
أقامت عصابة من اللصوص في بيتك طوال الشتاء ، وأن عمك كما يقال
يعرف كثيراً عنهم بل وأكثر مما ينبغي أن يعرف رجل شريف ولكن
من يقول الصدق في هذه الأيام .

لقد أصبح تشنج في الواقع شبحاً من الأشباح ، نحيفاً ضعيفاً ، قد
اخترمه المشيب مع أنه لم تبلغ الخامسة والأربعين من العمر بعد ..
وسمى فيه وانج لنج فترة قصيرة ثم قال له :

— لقد قاسيت وعانيت أكثر مما قاسينا وماذا كنت تأكل

إبان المجاعة ؟

وصعد الرجل تنهيدة عميقة وهمس قائلاً : أى شيء لم تغافه نفوسنا ؟
لقد أكلنا كل شيء : أكلنا كلاباً ميتة .. وقبل أن تموت زوجتي ، طهت
لنا حساءاً في لحم لم اتجاسر على أن أسألهما عن نوعه ولكن كنت واثقاً
أنها ليست لديها الشجاعة على أن تقتل ، وإذا أكلنا كان طعامنا أى شيء
نجده .. ثم توقف ، وصمت قليلاً ثم أستأنف حديثه قائلاً :

— لو كان عندي بذور ، لزرت الأرض من جديد ، ولكن
لا أملك ثمة بذور .. فقال له وانج : تعال هنا . وجذبه إلى داخل البيت
من يده ، وأمره أن يرفع طرف معطفه الممزق ، ثم صب فيه وانج لنج
كثيراً من البذور التي أحضرها معه من الجنوب ، أعطاه بذور قمح وأرز

وكرنب وقال له في : صباح الغد سأحضر إلى حقلك ، وأحرق أرضك
بثورى الفتى .

وما أن سمع تشنج هذا الكلام حتى انفجر في البكاء فجأة ، وقد
أعياه النطق وأعجزه الجواب ، وانصرف إلى حال سبيله وهو يبكي
بكاء أمراً . . .

ولقد شعر وانح لنج بالفرح عندما وجد أنه قد ترك القرية ، ولم
يعد يرى فيها ، ولا يعرف أحد مكانه على وجه العرقة وصار بيته يتدب
من بناه وليس فيه إنسان ما . . .

وكرس وانح لنج نفسه في فلاحه الأرض ، وأخذ يشتغل الساعات
التي كان يجب عليه أن يمضيها في بيته ليتناول طعامه وينام ، بل كان يجب
أن يأخذ لفة من الخبز ، وقليلاً من الثوم ليأكل وهو واقف في الحقل
يفكر في تخطيط الأرض ومهامها ، وكان إذا ما أحس أنه خائر ، منك
أثناء النهار يعمد إلى إلقاء نفضته في أخدود ثم ينام ودفء أرضه يسرى
في جسده ، ويحنو على لحمه . . .

ولم تسكن أولان في بيتها متكاسلة ، إذ كانت تنزع الطين من الحقول
وتخلطه بالماء ، وترمم حيطان البيت ، وأعدت بناء الفرن ، وسدت تقو
الأرض التي غرما المطر . . .

وذهبت ذات يوم إلى المدينة مع وانح لنج وأشتريا سويبا سرراً
ومنضدة ، وستة مقاعد ، ثم اشتروا بدافع البهجة والسرور وعاء شاي
من الخبز الأحمر وستة أوعية لثمائه ، وأخيراً اشتريا (شمعدانين) من
الزئبق ، وشمعتين حراوين . . ثم فكر وانح لنج في التوجه إلى الصنمين
الصغيرين في معبد الأرض وتمم في نفور :

يجب أن أثبت قليلاً من البخور أمام هذين الصنمين في المعبد فهما
يكن من أمر فإن لهما قوة ونفوذاً على الأرض . .

الفصل السادس عشر

وذات مساء ؛ أحس وانج لنج كتلة صلبة في صدر زوجته
فسألها قائلاً ؛

ما هذا الشيء الذى تخفيه في صدرك ؟ . . ووضع يده عليها فوجد
ربطة صلبة إلا أنها لانت تحت قبضة يده ، وعندما أراد أن ينزعها منها ،
رضخت له وقالت تخاطبه :

حسناً . . سأريها لك إذا شئت . . ثم أخذت الخيط الرفيع الذى
تربطها به حول رقبته وقطعته ، وأعطته ذلك الشيء . وكان ملفوفاً في
قصاصة رقة من القماش ، فمزقها بيديه ، وفجأة سقطت في يده كتلة من
الجواهر ، فخلق فيها وانج لنج كالماخوذ ؛ ولم يعرف لها وانج لنج اسماً ،
ولكنه أدرك من لمعانها وتلألؤها في الغرفة التى لم يكن يغمرها النور ،
أنه يقبض بيده على ثروة ، وظل قابضاً عليها وقد عقدت لسانه الدهشة
وظل كلاهما يحملقان سوياً في ذلك الشيء الذى كان في يده ، وأخيراً همس
لزوجه وهو يلهث ؛ من أين . . أين ؟ فهمست بحجية برقة وخفوت قائلة :

د فى بيت الرجل الثرى ، فلقد رأيت حجراً مقلقلاً فى الحائط ، فتسللت
إلى هنالك ، ونزعت الحجر ، فرأيتها تلع ، فأخذتها فى كفى . .

ثم عادا إلى صمتها ، يحملقان فى فى جمال وروعة هذه الأحجار . .
وبعد وقت طويل قال وانج لنج فى ثبات :

د إن كنزاً ثميناً كهذا لا يستطيع الإنسان أن يحتفظ به ، لا بد أن

نبيعه ونضع ثمنه فى مأمن . . فى الأرض فلا شيء مأمون سواها . ١
ولف الأحجار فى الخرقه مرة أخرى ، وبينما كان يفتح معطفه ليضعها
فى صدره ، وقع بصره مصادفة على وجه زوجته ؛ فوجده قد تغير بنور

خافت من الشوق على شفيتها المنفرتين ، ووجهها الممتد إلى الأمام ،
فسألها متعجبا من أمرها : حسنا . . ماذا دهاك ؟

وددت لو استطعت أن أستبقى قطعتين منها ، قالت ذلك في شوق
ملؤه اليأس حتى تأثر تأثراً كبيراً كما لو أثاره واحد من أطفاله ،
اشتاق نفسه الحصول على لعبة أو قطعة من الحلوى .

فصاح في دهشة : والآن ؟ . . فاستطرد في خضوع : لو استطعت
أن آخذ قطعتين صغيرتين فقط - اللؤلؤتين البيضاوين الصغيرتين -
لاستطعت أن أمسكهما في يدي أحيانا . .

وغلبت على مشاعر وانج لنج أشياء لم يستطع أن يفهما ، ثم جذب
الجواهر من صدره ؛ وناولها لها في صمت ، فأخذت تفتش في الأحجار
المتألثة حتى وجدت اللؤلؤتين الناعمتين البيضاوين ، واحتفظت بهما ،
وربطت الجواهر الأخرى ، وردتها لزوجها . أما اللؤلؤتان فقد مزقت
لها قطعة من معطفها ، ولفتهما سويا وأخفتهما في صدرها ، وقد شعرت
بالراحة تمازج قلبها .

وكان وانج لنج يراقبها وقد ملكته الدهشة ، ولا يكاد يفهم من
أمرها شيئا ، وأما الجواهر الأخرى فقد عقد العزم أخيراً على أن يذهب إلى
البيت الكبير ليسأل عن أرض أخرى يشتريها .

وذهب إلى البيت الكبير ، فلم يجد في تلك الأيام حارسا يقف بالباب
بل إنه وجد الأبواب الضخمة مغلقة ، وأخذ وانج لنج يطرقها بشدة
بكلتا قبضتيه ، وأخيراً سمع وقع خطوات بطيئة متجهة نحو الباب وصوتا

مرتعشا يهمس قائلاً : من هناك ؟

وأدرك وانج لنج أنه السيد العجوز بنفسه فأجابه : سيدي . .

لقد جئت في لأمر صغير مع الوكيل الذي في خدمة سيادتكم ..
ثم أجاب السيد المعجوز من خلال فتحه الباب : أن ذلك الكلب قد
تركتي منذ شهور مضت وهو ليس هنا الآن ..

ولم يستطع وانجح لنج ماذا يفعل بعد أن سمع تلك الإجابة ؛ فكان
ضرباً من المحال أن يتحدث بنفسه مباشرة مع السيد المعجوز فقال له في
تردد : لقد جئت بشأن قليل من المال . .

وفي الحال فتح السيد الأبواب على مصراعها وقال بصوت أكثر
ارتفاعاً : لا يوجد مال في هذا البيت ؛ ولا يمكن تسديد الديون فصاح
وانجح لنج سريعاً : لا .. لا لقد جئت لأدفع لا لأسترد ديناً ..

ثم رنت صيحة أخرى لم يسمعها وانجح من قبل ، وأخرجت امرأة
رأسها من الباب وقالت في خشونة إن هذا شيء لم أسمعته منذ وقت
طويل ثم فتحت الأبواب وأدخلت وانجح لنج ، ثم أغلقت ثانية .

ووقف السيد الشيخ أمام وانجح لنج وهو يسعل ويحملك ، وقد التف
برداء قدر من الحرير الرمادي ، وأخذ وانجح لنج يحملك فيه ، وبدا له
أنه من المحال أن السيد الشيخ ، الذي سمع عنه الكثير هو هذا الشيخ القاني
المحطم ، لا يزيد عن أبيه الشيخ شيتا في شكله الباعث على الهلع ، بل
أنه أقل من أبيه الشيخ الذي كان يبدو رجلاً نظيفاً ، مبتسم الثغراً ما ذلك
السيد الشيخ فكان قدراً كما كان شعر لحيته نامياً كثيفاً ..

أما المرأة فكانت تبدو عليها النظافة ، وكان لها وجه جامد ، قوى
الملاح وكان خداهما وشفثاهما ينطقان بالحرمة والصلابة ، وكانت تبدو من
كلامها أنها ليست من أسرة السيد ، وإنما جارية ذات صوت حاد ، ولسان

لاذع . . وفيما عدا هذين الشخصين السيد والجارية لم يكن هناك شخص
آخر في الغرفة

وقالت المرأة بخشونة : والآن ماذا تريد أن تقول عن النقود ؟ -
ولكن وانج لنج لم يستطع أن يتكلم ملياً أمام السيد وهذا ما أدركته
المرأة في الحال فقالت للسيد : فلتغرب عنا الآن ا
وانصرف السيد في الحال دون أن ينطق بكلمة ما ، لا يسمع منه
سوى سعاله وهو يسير

وقالت المرأة مخاطبة وانج لنج في خشونة كبيرة . وبعد أيها الغبي ،
ما شأنك ؟ إذا كان معك مال فدعني أراه
فقال لها وانج في حذر : لا . . . لم أقل لك إني معي نقود . .
لدى عمل

فردت المرأة : إن العمل معناه نقود ا فقال وانج لنج : حسنا ولكني
لا أستطيع التفاهم مع امرأة
فأجابت المرأة : حسنا . . . ولم لا ؟ ثم صاحت في وجهه فجأة قائلة : ألم
تسمع أيها الغبي أنه لا يوجد غيري في هذا البيت . . . سوى أنا والسيد
الشيخ

فقال لها وانج لنج في دهشة بالغة جعلته لا يحسن أداء ما يقول : وأين
هم إذن ؟

فأجابه المرأة : حسنا . . إن السيدة الكبيرة ماتت . . ألم تسمع كيف
أن اللصوص قد انقضوا على البيت ، وكيف أنهم حملوا كل ما شاءوا من
جواري ومتاع ؟ وأنهم قد علقوا السيد الكبير من إبهاميه ثم ضربوه ،
ثم قيدوا السيدة الكبيرة في كرسي ، وهرب كل فرد ، ولكني مكثت

واخفيتها ، وعندما خرجت وجلستهم قد تركوا البيت ، ووجدت السيدة الكبيرة ميتة من الخوف وهي جالسة على كرسيها ..

ولمحت وانج لنج قائلا : وماذا حدث للخدم والجواري؟
فأجابت المرأة في إهمال : آه .. أولئك .. قد غادروا البيت منذ وقت طويل .. كل من حملته ساقاه ترك البيت حيث نصب معين الطعام والمال في منتصف الشتاء .

وسكتت المرأة لحظة ، ثم استأنفت حديثها قائلة : ولكن كل ما حدث لم يكن شيئا مفاجئا ، لقد حدث في الجيل الماضي أن السادة كفوا عن رؤية أراضهم ، وأخذوا المال الذي كان يحضره لهم عملائهم ، وصرفوه فيما لا طائل تحته ..

فسأل وانج لنج : وأين السادة الشبان؟
فقال له المرأة بلا اكتراث : تشتتوا هنا وهناك .
وعندما علم السيد الأكبر بما حدث لأبيه وأمه بعث رسولا ليأخذ والده ولكني أفتعته أن يظل هنا ، ولا يغادر البيت ..

ونظر إليها وانج في إمعان ، فبدأ يدرك حقيقة هذه المرأة ، امرأة قد تعلقت برجل عجوز يحتضر لكي تنال كل شيء تستطيع الحصول عليه منه .. فقال لها في احتقار : وما دمت لا أرى هنا سوى جارية ، فكيف أستطيع أن أتم صفقتي معك ..

وعند سماعها هذا الكلام صرخت فيه قائلة : إنه لينفذ أى شيء أقوله له ..

وأمعن وانج لنج فكره في كلامها ، وقال مخاطبا نفسه : حسنا .. فهناك

الأرض .. بل هنالك آخرون سوف يشترونها عن طريق هذه المرأة إذا لم أفعل أنا ..

وقالت له على التو : إذا كنت قد حضرت لشراء الأرض ، فإن الأرض معدة للبيع ، وهي ليست كلها قطعة واحدة ، ولكن مساحتها كبيرة متناثرة ويمكن بيعها كلها إلى آخر فدان ..

وأدرك وانج لنج أنها تعرف كل شيء يمتلكه سيدها الشيخ ، ولكنه لم يرغب في أن يعقد الصفقة معها ..

فقال لها : ليس من المحتمل أن السيد الشيخ يستطيع أن يبيع أرض الأسرة كلها دون موافقة أبنائه ..

ولكن المرأة أجابت على كلماته بشغف : أما بخصوص هذه النقطة فإن الأبناء قد أخبروا والدهم الشيخ أن يبيع إذا شاء ..

وسألها وانج : ولمن سأدفع ثمن الأرض ..

فأجابت المرأة : ليد السيد الشيخ ، فليد من سواه؟ ولكن وانج لنج عرف أن يد الشيخ مبسوطة لهذه الجارية فأدار لها ظهره وقال : ستم الصفقة في يوم آخر .. يوم آخر ..

ثم نزل إلى الشارع ، وهو في حاجة ملحة لأن يفكر في إيمان وتدير في كل ما سمعه ، ثم عرج على حانوت صغير لشرب الشاي ، وطلب شايًا ، وعندما وضعه الصبي أمامه ، أغرق في التفكير في الأسرة العظيمة الثرية التي هوت من علياتها ، وتشتت أفرادها .

ثم قال مخاطبًا نفسه : إن سبب هذا الإنهيار هو الأرض ! وفكر في ولديه ، واستقر رأيه في نفس ذلك اليوم على أن يجعلها

يشتغلان في الحقل معه ، حتى يسرى مبكراً في عظامهم ودماهم الاحساس
بالتربة تحت أقدامهم .

حسناً . . إنه ما يزال يمتلك المجوهرات ولن يستقر له جنب حتى
يشتري بها أرضاً ، وانتظر لذلك حتى أتاح لصاحب الخانوت أن يأخذ
فترة استرخاء ثم نادى على الرجل وقال له :

تعال اجلس معي ، لتشرب قدهاً وسادفح ثمنه ، وحدثني عن أخبار
المدينة منذ أن رحلت عنها شتاء . . .

وكان صاحب الخانوت مستعداً دائماً لأن يخوض في هذا الحديث ،
وخاصة إذا ما جرع شايه على نفقة الغير ، فجلس وأخذ في الحديث دون
إبطاء قائلاً :

حسناً . . فيما عدا هؤلاء الذين ماتوا جوعاً . . وهذا خبر مشاع ومعاد .
فإن أم الأخبار هو سرقة بيت هوانج .

وكانت هذه الأخبار هي ما كان يتمنى أن يسمعه وانج لنج ، واستطرد
الرجل يحدثه في تلذذ كيف أن البعض قد طرد أو اختطف حتى لم يعد
أحد يهتم بأن يعيش في ذلك البيت على الإطلاق . . وأنهى الرجل حديثه
قائلاً : لا أخذ سوى السيد المسن ، الذي تسيطر عليه سيطرة تامة جارية
تدعى د كوكو ،

فسأله وانج لنج : ألمهذه المرأة السيطرة إذن ؟

فأجاب الرجل : هي في الوقت الحاضر تستطيع أن تصرف كل
الأمور . . .

وسأله وانج لنج أخيراً : والأرض ، أهي للبيع ؟

فأجابته الرجل بلا اكترات : أواه .. ياللاأرض ا لقد سمعت أنها
للبيع ماعدا المساحة التي تدفن فيها الأسرة .

ثم نهض وانج لنج ، وانصرف ، حتى اقترب مرة أخرى من الأبواب
القائمة .. وعادت المرأة مرة أخرى لمقابلته ، وقال لها : خبريني أولا ،

هل سيوقع سيدك الكبير بخاتمه على عقود البيع ؟

فأجابته المرأة في لهفة : أجل . أجل . بيجاتي ..

ثم سألتها وانج في بساطة : هل سأدفع ثمن الأرض ذهباً أم فضة ،
أم جواهر ؟

ولمعت عيناها وهي تتكلم ثم قالت :

سأقبض ثمنها جواهر ..

الفصل السابع عشر

أصبح وانج لنج في حالته الراهنة يملك أرضاً أكثر مما يستطيع أن يحرثه ثور واحد ، وأكثر مما يستطيع أن يحصده رجل واحد ، ولذلك بنى غرفة صغيرة في بيته ، واشترى حمراً ، وقال لجاره تشنج : بغي قطعة أرضك الصغيرة ، واهجر بيتك الموحش ، وأقم في بيتي ، وساعدني في العمل بأرضي .. وفعل تشنج ما أمره به ، بل كان مغتبطاً لأن يقوم بذلك .. وعندما حان وقت الحصاد لم يستطع وانج لنج وتشنج أن يجمعا المحصول بمفرديهما ، إذ كان محصولاً وفيراً فاستأجر وانج لنج عاملين آخرين ليعاوناها فحصدوه جميعاً ..

ورجعت به الذاكرة إلى السادة الشبان الكسالي - آل هوانج - وهو يكدح في الأرض ولذلك أخذ ولديه معه إلى الحقول وجعلهما يشتغلان في أي عمل تستطيع أيديهما الرقيقة أن تقوما به ..

ولكنه لم يُسمح لزوجته أولان أن تشتغل في الحقول ، فهو لم يعد وانج لنج الفلاح الفقير ، ولم يحدث مطلقاً أن أنتجت غلة كما فعلت في ذلك العام فاضطر أن يبني غرفة أخرى ملحقة بالبيت ليخزن فيها محاصيله ، واشترى ثلاث خنازير ، وبمجموعة كبيرة من الطيور والدواجن لتلتقط الحبوب المتناثرة من المحاصيل .. ثم انهمكت أولان في تديير المنزل ، وحياسة الملابس لأفراد أسرتها ، وصنع الأحذية الجديدة ، والفراش من قماش مطرز بالزهور ، محشو بالقطن الذي يجلب الدفء لكل سرير وبعد حين أرقدت نفسها على الفراش ، ووضعت مرة أخرى على الرغم من كونها وحيدة ولا أحد معها يعينها ..

وعندما رجع وانج لنج إلى البيت وجد أباه واقفا بالباب يضحك .
فدلف إلى الغرف الداخلية حيث وجد أولان راقدة وبجوارها
وليداهما التومان : ذكر وأثى . . متشابهان كحبتين من الأرز وقفه
عاليا على ما قد فعلته زوجته ، وابتسمت أولان ابتسامتها البطيئة ، التي
تم على الألم . . .

ولم يعكر صفو حياة وانج لنج حزن ما ، فيما عدا ابنته الكبرى
التي لم تنطق بعد أو تعمل ما يعمله الأطفال في مثل سنها ، ولم تفارقها
ابتسامتها البريئة ، ومررت الشهور ثلث الشهور ، وانتظر وانج لنج أن يسمع
منها كلماتها الأولى ، ولكنها لم تنطق بحرف ؛ وعندما نظر إليها صعد
زفرة حارة وقال : أيتها البلهاء الصغيرة ، ابنتي العزيزة . . .

وكانما أراد أن يعوضها عما حرمت منه ، فأخذ يدللها ويسبغ عليها
عطفه وكانت تتبعه في صمت ، أينما ذهب ، تبسم له كلما تكلم معها ، أو
نظر إليها .

في تلك المناطق التي أمضى وانج لنج وأمه وأبوه حياتهم بين ربوعها
وعاشوا على أرضها ، كانت تحدث مجاعات كل خمسة أعوام ، فإذا كانت
الآلهة رحيمة بالناس ، حدثت هذه المجاعات مرة كل سبع ، أو ثمان ،
أو عشر سنوات ، وكان يحدث هذا بسبب المطر الذي ينعدم تماما أو يتدفق
كثيراً أو بسبب النهر الواقع في الشمال ، كلما امتلأ بمطار وتلوج الشتاء
من الجبال البعيدة ، فانه كان يفيض متدفقا ماؤه في الحقول محترقا الجسور
التي بناها الرجال منذ قرون لتقف حائلا ضد المياه .

وكان الرجال يهربون مرة بعد أخرى من الأرض ، ويهاجرون منها

ثم يعودون إليها ، ولكن وانج لنج أخذ يكرس حياته في بناء دعائم ثروته حتى إذا ما مرت به سنين عجاف ، فلا حاجة به لأن يترك أرضه مرة أخرى ، وظلت المحاصيل تأتي بوفرة سبعة أعوام متتالية ، وفي كل عام منها كان وانج لنج يجني منها ما يزيد على طعامه . . وكان في كل عام يستأجر عمالا كثيرين حتى أصبح لديه ست رجال فبنى بيتا جديدا وراء بيته القديم مكونا من غرفة فسيحة أمامها فناء ، وغرفتين صغيرتين على جانبي الفناء ، وسقف البيت بالقرميد ولكن حيطانه كانت مبنية من الطوب اللبن المجفف من تربة الحقول ، ثم أمر بطلائها بالجير فبدت بيضاء نظيفة . وابتقل هو وأسرته إلى هذا البيت ، بينما سكن عماله وعلى رأسهم تشنج في البيت القديم أمامه .

وفي نهاية العام الخامس كان وانج لنج قليلا ما يشتغل بنفسه في حقوله بل كان يمضى وقته كله في تصريف الشؤون المالية والتجارية في السوق ، وعرض محصوله فيه ، وفي إرشاد رجاله العمال في الحقل . ولقد ضايقه أشد الضيق عجزه عن الإلمام بالقراءة والكتابة ، وسخطه الشديد على نفسه لاحتقار الكتابة له في سوق الحبوب ، ثم كان يقول في نفسه :

لأنه لمن الخجل لي ألا أستطيع القراءة أو الكتابة ، ولذلك سوف أضع إبني من الذهاب إلى الحقل ، وأرسله إلى المدرسة بالمدينة ، وعندما أذهب إلى أسواق الحبوب ، سيقرا لي ويكتب ، وبذلك أضع حدا لهذه السخرية بي ، أنا الذي أصبحت مالكا .

وفي نفس ذلك اليوم نادى على ابنه الأكبر وكان قتي طويلا ، فارح القامة ، في الثانية عشرة من عمره ، يشبه أمه شكلا ، ويشبه أباه في توقد

عينيه ، وعندما وقف أمام أبيه قال له : ارجع عن الذهاب إلى الحقول منذ اليوم ، لأنى أريد فرداً متعلماً فى الأسرة ليقراً العقود ، ويوقع عليها ياسمى ، ولن أشعر بالخجل مرة أخرى فى المدينة .

ولمعت عينا الفتى وقال لأبيه : هذا يا والدى ما كنت أتمناه خلال هذين العامين الأخيرين ، ولكن لم أجرؤ على طلب ذلك منك . .

وعندما سمع ابنه الأصغر بهذا ، جاء إلى أبيه باكية شاكياً وقال له : حسناً . . وأنا كذلك لن أشغل فى الحقول . . ولم يستطع وانج أن يتحمل هذه الضوضاء فقال له على الفور : حسناً . . حسناً فليذهب كل منكما إلى المدرسة . .

ثم أرسل زوجته إلى المدينة لتشتري قاشا تصنع منه ثوباً طويلاً لكل من ولديها ، وأخيراً كان كل شىء معداً لإرسال الأولاد إلى مدرسة صغيرة قريبة من باب المدينة يديرها شيخ طاعن فى السن .

وفى اليوم الذى اصطحبهما فيه ، سار أمام ولديه ، إذ أنه ليس من اللائق أن يسير الأب والابن بجوار بعضهما بعضاً ، وحمل قاشا أزرقاً ملوئاً بالبيض الطازج ليعطيه إلى المدرس العجوز عندما يصل إلى المدرسة ؛ وانحنى وانج لنج فى أدب شديد أمام المدرس وقال له :

— سيدى . . أقدم لك ولدى التافهين وإذا أمكنك أن تدخل شيئاً فى رأسهما السميكين كالنحاس ، فهذا ممكن بضربهما فقط ولذلك إذا شئت أن ترضينى ، اضربهما ليتعلما . .

وعند عودته إلى بيته وحيداً ، كان قلب وانح يمحج بالزهو والنجلاء ،
وبداله أنه لا يداني ولديه أحد من الفتيان في حجرة الدرس طولاً
وقوة ، ونضارة وجه ولذلك أخذ يخاطب نفسه : لن أدهش إطلاقاً
إذا أصبح ابني الأكبر حاكماً بكل ما يناله من تعليم ..

ومن الآن فصاعداً أصبح لا يخاطب الأستاذ الغلامين بالأخ الأكبر
أو الأخ الأصغر ، وإنما أطلق عليهما أسماء مدرسية فسمى الأكبر
(ننج إن) والأصغر (ننج ون) ومعنى الكلمة الأولى من كل اسم كان
علماً على فرد واته ثروته من الأرض ..

الفصل الثامن عشر

وهكذا شيد وانج لنج دعائم الثروة في بيته ، وعند أهلت السنة السابعة ، كان النهر الواقع في الشمال مثقلا بالوفير من المياه بسبب غزارة الأمطار والتلج في الشمال الغربي ، ففاض على شاطئيه ، وجرفها وأخذ ماؤه يجتاح ويغرق جميع الأراضي في تلك النقطة . . ولكن وانج لنج لم يزعج ؛ نعم لم يزعج مع أن ثلثي أرضه قد صارتا بحيرة يستطيع أن يقف الإنسان في مائها إلى كتفيه أو أعلا . . وكانت أسواق الحبوب مدينة له بالمال ، وكانت مخازنه مع ذلك مملوءة بالمحاصيل التي جناها خلال العامين الأخيرين وكان بيتاه عاليين لا يصل إليهما الماء

ولكن منذ أن أصبح كثير من الأرض لا يزرع ، سيطر على وانج لنج كسل شديد لم يسبق له مثيل في حياته من قبل . . وطبعي أن الإنسان لا يستطيع أن يجلس طوال يومه محملاً في بحيرة من الماء قد غمرت حقوله ، ولا يستطيع أن يأكل أكثر مما يكفيه في المرة الواحدة ، وعندما نام وانج لنج طويلاً أراد أن يضع حداً لنومه . . وكان بيته ساكناً صامتاً ؛ ساكناً سكوناً لا يتفق مع دم وانج لنج الحار ، وأصبح والده الشيخ هزيباً ضعيفاً ، ولا يتحدث معه أحد إلا ليسأله عما إذا كان يحتاج إلى الدفء أو الطعام أو الشاي ، وأصبح وانج لنج قلقاً لأن أباه لم يستطع أن يدرك الثروة التي وصل إليها ولم تكن هناك فائدة ترجى من أن يقال له شيء ، لأنه كان ينسى كل ما يقال في الحال .

وكان الشيخ وحفيدته البكاء يجلسان بجوار بعضهما الساعة تلو الساعة

وتفتل الطفلة قطعة من القماش ، ولم يكن لديهما شيء يقولانه لرجل قوى
ثرى ، مثل وانج لنج ، ولقد اعتاد وانج أن يدير وجهه سريعا
كلما نظر إلى ابنته ثم يستغرق مفكراً لحظة من السكون ثم يتطلع إلى
طفليه ، الولد والبنت ، اللذين ولدتهما أولان سوبا ، واللذين أصبحا
يجريان ويمرحان . .

إن الإنسان لا يشعر بالرضا والسكوت على غباوة الأطفال ،
ولقد حانت منه نظرة إلى زوجته أولان ، فبدأ له أنه قد رأها
لأول مرة في حياته ، ورأى لأول مرة أنها امرأة لا يسميها أى رجل
آخر سواه إلا بما فيها من صفات كئيبة ، ومخلوقة عادية تكدح في صمت ،
دون أن تفكر في العناية بمظهرها أمام الناس ؛ وبينما كان ينظر إليها هكذا ،
صاح بها قائلاً: إن أى فرد ينظر إليك ليحسبك زوجة رجل فقير ، لزوج
رجل يملك أرضاً . .

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يعبر فيها عن رأيه في مظهرها ،
فعلت وجهها حمرة الحجل فكست عظام خديها البارزين فغمغمت قائلة :
منذ أن ولدت هذين الطفلين الأخيرين ، وأنا لست في صحة طيبة ،
إنى أحس بالنار تسرى في أعضائى وكيانى كله . .

فأجاب بخشونة أشد بما قصد :

أعنى ألا يمكنك أن تشتري قليلاً من الزيت لشغرك كما تفعل النساء ؟
ألا تصنعين لنفسك ثوباً جديداً من القماش الأسود ؟

ولاذت أولان بالصمت ، ونظرت إليه في ذلة وانكسار . . ومع
أنه كان من أطواء قلبه شاعراً بالحجل لتوبيخه هذه المخلوقة التي

تبعته خلال هذه السنوات الثلاث كالكلب الأمين ، فإنه أستطرد قائلا :
إن قدميك هذه... .

ثم توقف عن الكلام ، وبدأ له حينذاك أنها قبيحة الشكل تماما ،
وأقبح ما فيها هما قدمها الكبيران في حذائهما القطنى الواسع ، ونظر
إليهما فى غضب ، فأدركت ما كان يفعل ، فأخفتها تحت المقعد وأخيراً
قالت له فى همس : أن أمى لم تربط قدمى لأنهم باعونى وأنا طفلة ؛
ولكنى سأربط قدمى طفلتنا الصغيرة .

وشعر بالخزى مرة أخرى ، لأنه أظهر غضبه عليها ، ثم جذب ثوبه
الأسود الجديد حول جسمه ، وقال محنقا : حسنا... سأذهب إلى حانوت
الشاي الجديد لعلى أسمع خبرا جديدا فيبقى لا يرضم سوى حمقى ، وشيخ
وطفلين .

وكان يوجد آنذاك فى المدينة حانوت لشرب الشاي قد افتتحه
حديثا رجل من الجنوب ، وكأنا أراد وانج لنج أن ينسى أنه كان قاسيا
مع زوجته ، لذلك سار صوب هذا الحانوت .

ولم يتحدث فى بادىء الأمر فى هذا الحانوت العظيم ، ولكنه اشترى
شايه فى هدوء ، وشربه . ونظر حوله فى دهشة بالغة ، فوجد أن الحانوت
يتكون من صالة كبيرة والجدران مزدانة بصور من الحرير الأبيض عليها
مناظر لسيدات ، بدت فى عين وانج كأنها نساء حالمات ، وفى يومه الأول
اكتفى بالنظر إليها وشرب الشاي سريعا ، وانصرف .

وبينا كانت المياه تغمر أرضه ، ظل يذهب إلى مشرب الشاي يوما
بعد يوم ، يطلب الشاي ويجلس وحيدا يشربه ، ويحلمق فى صور النساء

الجميلة ، وهكذا كاد يسير على هذا المنوال لعدة أيام وينتهي من ذلك ، ولكنه بينما كان جالسا ذات مساء يرشف الشاي محلقا هبط شخص من درج ضيق في أقصى طرف من الغرفة ، ولمسه من كتفه فأجفل في عنف ، وعندما تطلع إلى أعلى وقعت عيناه على الوجه الدقيق الفاتن للمرأة (كوكو) التي صب في يدها الجواهر يوم أن اشترى الأرض ..

فقال له : حسنا .. وانج لنج المزارع من كان يظن أنه يراك هنا؟ وأدرك أنه يجب عليه أن يثبت لهذه المرأة أنه أكثر من رجل ريفي ساذج فضحك بدوره وقال بصوت مرتفع :

أليست نقودى تستحق الصرف كنفود أى رجل؟ وإنى لأملك المال فى هذه الأيام ...

وتوقفت (كوكو) عند سماعها هذا ، وقالت بصوت ناعم كأنه زيت زهور : ومن الذى لم يسمع بذلك؟ وكيف يستطيع الانسان أن يصرف ماله إلا فى مكان كهذا .. إنه لا يوجد أفضل من خمرا .. أتدوقتها يا وانج؟ فقال لها وقد اعتراه الخجل : أنا لم أشرب إلا الشاي هنا حتى الآن .. فقالت متعجبة وهى تضحك عاليا : شاي وأظن أنك لم تر شيئا آخر؟ أليس كذلك؟

فأجاب : لا .. لا .. لم أر ..

وضحكت المرأة مرة أخرى ، وأشارت إلى صور النساء وقالت : اختر اياهن تشاء ، وضع الفضة فى يدي ، وسأجلسها بجوارك .. فقال لها وانج متعجبا : كنت أحسبها صور نساء فى الأحلام كمثل التى يحكى عنها كاتبو القصص ..

فأجابت (كوكو) : إنهن نساء أحلام ولكنهن بقليل من
الفضة سيتحولن إلى دم ولحم .. ثم انصرفت في طريقها .. ولكن
والبح لبح جلس يتفرس يامعان في الصور باهتمام متجدد ، فوجد بعضاً
آخر يفوق تلك التي رآها من قبل جمالا ، وإن من بينها صورة لغادة
آية في الفتنة، هيفاء القد ، مشوقة القوام، ذات وجه دقيق التقاطيع كوجه
قطرة لطيفة تمسك بيدها برعوم زهرة من اللوتس ذات ساق طويل
لم تفتح بعد .. فأنعم فيها النظر، وخطب نفسه بصوت مرتفع قائلاً: إنها
كلوردة جمالا وشعر بالخبجل عندما سمع صوته فنهض مسرعا ، ودفع
نقوده ، وانصرف إلى بيته وقد لفه الظلام الذي نشر في ذلك الحين
غلالته الفاحمة ..

الفصل التاسع عشر

لو أن الماء قد انحسر عن حقله ، فإن وانج لنج قد لا يعود إلى مشرب الشاي العظيم وهكذا يستطيع أن ينسى ذلك الوجه الدقيق المرسوم على الصورة الحريية ، ولكن الماء ظل آسنا لا يتحرك . وأصبح وانج لنج قلقا يبذل جهده في أن يتجنب نظرات أولان التي كانت تتطلع إلى وجهه بتماسة كلما ذهب هنا أو هنالك أو كلما ألقى بنفسه على كرسيه ، أو انصرف دون أن يشرب الشاي الذي صبته له ، وفي نهاية يوم عمل طويل ، في الشهر السابع ، دخل غرفته دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم ارتدى ثوبه الجديد الأسود اللامع ، ثم ذهب إلى مشرب الشاي .

ووقف وانج لنج أمام الباب في نور المشرب الساطع ، وكاد ينصرف راجعا ، لولا أن انبعثت من بين الظلال امرأة كانت منحنية في المشرب في تحاذل واسترخاء ؛ وكانت « كوكو » ، وعندما عرفته قالت له : أواه . . ما أنت إلا المزارع !

فاستحال غضبه إلى شجاعة لم يعهد لها في نفسه من قبل ، وقال لها : حسنا . . ألا يمكن لي أن أحضر إلى هذا البيت كما يأتي غيري من الرجال؟ فضحكت وقالت له : إذا كان معك من الفضة مثل الآخرين ؟

ورغب في أن يبين لها أنه ثري ، وأن ثراه يسمح له ان يتمتع نفسه فأخرج حفنة من الفضة ، وقال لها : أتكنفي هذه أم لا؟

حملقت في الفضة قليلا ثم قالت : هيا ادخل ، وقل ماتشاء .

غمغم وانج لنج دون ان يعرف ماذا يقول :

حسنا ، لست ادري ماذا اريد . . ثم همس قائلا : « هذه الغادة ذات

الوجه النضر كالورد التي تمسك بيدها زهرة اللوتس .. اود لقياما ..
وازداد وانج لنج هففة على هففة وقلقا على قلقي ، اشد وأكثر مما يميس
بهما إنسان آخر سواه ؛ وظل يذهب كل يوم إلى المشرب حيث يلتقي كل
يوم بالعادة التي تدعى (لوتس) .

ولم يكف عن لقاء الفتاة طوال اشهر الصيف القاطنة ، ولم يعرف
شيئاً عن شخصيتها ، وكان قلبا يصغى إلى حديثها الطويل المناسب ، وإنما
كان يدمن على التطلع في وجهها ، ويديها ، وفي إدراك نظرات عينها
الواسعتين الجميلتين .. وعندما سخرت الفتاة من ضفيرته المدلاة من
شعره انصرف في سكون ، وامر بقصها .. اما جسده القوي الأسمر
الذي قلبا كان يغسله ، فقد أخذ يغسله كل يوم حتى أن زوجته
وقد أزعجها ذلك ، قالت له يوما : إنك ستموت من فرط
هذا الإستحمام .

واشترى صابونا زكي الرائحة ، ليستحم به ، ولم يعد يأكل الثوم
إطلاقا ، مع انه كان طعاما مفضلا لديه ، حتى لا تخرج من فمه رائحة
كريهة ، وهو جالس إلى فتاته .

وعجز كل فرد في الأسرة عن تفسير هذه الأشياء الغريبة . ولكن
ذات يوم خاطبه زوجته اولان في تهاقل : تبدو فيك اشياء تجعلني اعظن
فيك سيداً من سادة بيت هوانج العظيم .

وقهقه وانج لنج عاليا ، ولكنه كان مسروراً في قرارة نفسه ، وظل
طوال ذلك اليوم رقيقا رقيقا في معاملتها عن كل يوم مضى .
وانسابت النقود الفضية ، الثمينة من بين يديه كما ينساب ماء الغدير ،

ليشترى بها دبايس ذهبية وجواهر لفتاته .. اما أولان فقد لاذت بالصمت، لا تبدى نحوه شيئاً سوى النظر إليه في ابتئاس شديد لأنها كانت تحشاه منذ ذلك اليوم الذى أوضح لها رايه فى مظهرها العاقل من الجمال وقدمها الكبيرتين ، وكانت تخشى ان توجه اليه سؤال حتى لا ينفجر فيها غضباً كما هي عادته معها فى هذه الأيام .

وحان يوم كان فيه وانح لنج عائداً إلى بيته ماراً بالحقول ، فاقترب من زوجته بينما كانت تغسل له ملابسه عند بركة صغيرة ووقف بجوارها صامتاً فترة من الوقت ، ثم خاطبها بخشونة لشعوره من نفسه بالخجل قائلاً :

« أين تلك اللآلئ التى تحتفظين بها ؟ »

واجابته فى ذلة وخنوع ، وهى ترفع رأسها من الملابس التى كانت تضرب بها على حجر مسطح أملس .

« اللآلئ .. إنها معى ا ، »

وبعد أن صمت برهة صرخ فيها قائلاً :

« أعطهم لى .. فأنا فى حاجة إليهم .. »

ووضعت يدها المجددة المبتلة فى صدرها ، وأعطته اللفة الصغيرة ، وأخذت تراقبه وهو يفكها ، وسطعت اللآلئ ولمعت فى نور الشمس فى صفاء وسناء ، فضحك مسروراً ولكن أولان عادت تضرب الملابس كما كانت تفعل . وعندما تساقطت دموعها من عينيها فى بطء شديد لم ترفع يدها لتمسحها ، بل ظلت تضرب بعصاها الخشبية على الملابس المنبسطة على الحجر أمامها .

الفصل العشرون

سار وانج لنج على هذا المنوال من حياته الجديدة حتى كادت فضته تنفذ ، ما لم يعد عم وانج لنج بجأة إلى بيت ابن أخيه دون أن يوضح أى شيء عن المكان الذى كان فيه ، أو عما كان يفعل أثناء غيابه ، ووقف أمام الباب وملا بسه الرثة مفككة الأزرار ، وكشر لهم عن أنيابهم جلوس إلى المائدة لتناول طعام الإفطار ، وحينئذ وقف وانج لنج وقال له : مرحبا بك يا عمى ، هل تناولت طعام الإفطار ؟ فأجاب عمه : لا ولكن سأكل معكم .. وجلس على كرسى إلى المائدة وسحب آيسنة وعودين وأكل كالو كان به نهم شديد ، وبعد أن انتهى من طعامه ، قال ببساطة كما لو كان من حقه أن يقول هذا : الآن سأنام هنا ، فأنا لم أتم منذ ثلاث ليال ..

ولم يدر حينئذ وانج لنج ماذا يفعل ، إلا أنه قاده إلى فراش أبيه ، فألقى بنفسه عليه ، وراح فى سبات عميق دون أن ينطق بكلمة ما ..
وعلم وانج لنج أن عمه لن يفارق البيت بعد أن عرف أنه قد أصبح غنيا ، وأدرك أن زوجة عمه قد تحضر إلى البيت أيضا وأن لا أحد يستطيع أن يمنعها .

ووقع ما كان يخشاه إذا خرج عمه من غرفة النوم بعد الظهر ، وقال لوانج لنج : والآن سأحضر زوجتى ، وابنى ، ففي هذا البيت العظيم لن نفتقد طعاما نأكله أو ملابس بسيطة ترتديها ..
ولم يستطع وانج أن يقول شيئا سوى أن يرد عليه بنظرات عابسة ؛

ذلك أنه شعر أنه من المنجل له وهو الرجل الذى يملك الكثير ، ويقتصد الوفير أن يطرد عمه وابن عمه من بيته ، إلا أنه كان فى الواقع حاقلاً أشد الحق لأنه كان من الواجب عليه أن يخفى غضبه وغيظه ، وأن يرحب بأقاربه بالابتسامات ، وظل ثلاثة أيام لا يذهب إلى المدينة . .

وعندما رأى أن عمه وأسرته سيسلكون طريق الأدب فى سبيل الحصول على طعامهم وإقامتهم فى بيته ، عادت أفكاره تتركز حول فتاته لوتس ؛ وأدركت زوجة عمه فى الحال ما كان من أمر وانج لنج فصرخت ضاحكة : إن وانج لنج يبحث عن زهرة يقتطفها فى مكان ما . . وعندما نظرت إليها أولان فى انكسار وهى لا تفهم مرماها ، ضحكت المرأة مرة أخرى وقالت : حسناً فساقول بوضوح إذن أن زوجك قد جن بامرأة أخرى . .

وهذا ما سمعه وانج لنج من زوجة عمه تقوله ذات صباح وهو راقد فى فراشه وطرأت له فكرة فى أن يعهد إليها فى ترتيب زواجه ، فنهض فى الحال من فراشه ونادى خلسة على زوجة عمه ، وعندما تبعته إلى خارج الباب حيث لا يمكن لأحد أن يسمع حديثهما قال لها : لقد أصغيت إلى ما قلته فى الفناء وأنت على صواب ، لماذا لا ينبغى أن أتزوج ما دمت أملك أرضاً تكفى لإطعامنا جميعاً؟ ولكن من سيكون الوسيط لى فى هذا الزواج ؟

وأجابته على هذا السؤال فى الحال : فلتتركن هذا الأمر لى ، وأخبرنى فقط من تكون هذه المرأة . . .

فأجاب وانج لنج في خجل : إنها المرأة التي تدعى لوتس ، وهي تعيش
في مشرب الشاي في الطريق الرئيسي للدينة ..
ففكرت هنية ثم قالت أخيراً :
إني لا أعرف أحداً هناك ..

وحينئذ قص ما يعرفه عن كوكو التي كانت جارية في بيت هوانج
العظيم ، فضحكت وقالت له : تلك الجارية إن هذا في الواقع أمر
بسيط .. فإن تلك الجارية ستفعل أى شيء إذا أحست أن الفضة
تملأ يدها ..

وعندما سمع وانج لنج هذا الكلام. قال لها : الفضة إذن! الفضة والذهب
إني لأضحى بكل شيء حتى بئس أَرْضِي ..

وبعد ذلك لم يذهب وانج لنج إلى المشرب العظيم حتى انتهى من تدير
هذا الأمر ، وكان على الدوام يهرع إلى زوجة عمه ليقدم لها المزيد من
المال والأثواب الحريرية ، والطعام الشهى لتحمله إلى لوتس ،
حتى صرخت في وجه تلك المرأة البدينة آخر الأمر وقالت له : هل أنا غبية ،
أم هذه هي المرة الأولى التي أتتمكن فيها من تدير زواج بين رجل
وخطيلته ؟ دعني وشأني وسأقوم بالمهمة بمفردي ..

وأخيراً حدث وانج لنج نفسه بأنه يلزمه قاعه أخرى لزوجتين
في بيته .. ولذلك بينما كان ينتظر زوجة عمه كي تنجز مهمته ، نادى على
عماله ، وأمرهم أن يبنوا غرفة أخرى ملحقة بالبيت خلف الغرفة
الوسطى . وأن يبنوا أيضاً ثلاث غرف حول الفناء ، إحداهما كبيرة
وعلى جانبيها غرفتان صغيرتان ، وانزع العمال الطين من الحقول ،

وأعدوا الطوب وشيدوا الحيطان ، وبعث تابعيه إلى المدينة لشراء
القرميد للسقف .

وعندما تم بناء الحيطان ، صنع الرجال أرضية من الحجر لغرف
لوتس الثلاث . وأحضر وانج قاشاً أحمر للستائر ، ومنضدة جديدة ،
وكرسيين عليهما نقوش وصندوقاً أحمر مطلياً لامعاً بغطاء مليء بكعك
بالسمسم والحلوى ووضع على المائدة ، واشترى أيضاً سيريراً منقوشاً
وستائره المحلاة بالورد ؛ وكان خجلاً لأن يخبر زوجته أولان شيئاً
عما اشتراه ، ولذلك جاءت زوجة عمه وأخذت تؤدي الأعمال النسائية التي
يرتبك الرجل أشد الارتباك في أداؤها . . .

وتم إعداد كل شيء ، إلا أن مهمة الزواج لم تتم بعد ؛ ولذا استدعى
وانج عاملاً وحفر بركة صغيرة عمقها ثلاثة أقدام مربعة ، وأحاطها
بالقرميد ، ثم ذهب إلى المدينة واشترى خمسة سمكات ذهبية ، واطلقها
تسبح في مائها . . .

وفي أثناء هذا الوقت لم يخبر إنساناً بشيء عن نيته سوى أنه لم يكف
عن توبيخ أطفاله على قذارتهم ، أو يعنف أولان لأنها لم تسوى شعرها
منذ ثلاثة أيام ، وفي ذات صباح انفجرت أولان باكياً ، وارتفع صوتها
في البكاء بشكل ملحوظ لم يعهده فيها من قبل . فقال لها بخشونة :
ماذا حدث أيتها المرأة ؟ ألا أستطيع أن أقول لك مشطى شعرك الطويل
كذيل الحصان دون أن تحدثي كل هذه الضجة ؟

ولم ترد عليه إلا أنها قالت مرة بعد أخرى ، متأوهة :
« لقد حملت لك أولاداً - لقد حملت لك أولاداً . . . »

ولكنه لاذ بالصمت ، وعقد لسانه الخجل أمامها ولذا تركها
وشأنها وحيدة ..

ومرت الأيام على هذا الحال حتى حان يوم قالت له زوجة عمه :
لقد تم الأمر ؛ ولكن يجب أن تدفع مائة قطعة فضية ، كما وأن الفتاة
تريد أقراطاً من الحجر الكريم الأخضر ، وخاتماً من الذهب ، وفتانين
من الحرير ، واثني عشر حذاء ، ولحافين من الحرير لسريها ..
وما أن سمع وانح جزءاً من كلامهما حتى هرع إلى الغرفة الداخلية ،
وأحضر الفضة وقال مخاطباً زوجة عمه : خذي لنفسك عشر قطع
من الفضة ..

فهمست في أذنه همسة عالية قائلة : لا . لن آخذ شيئاً ؛ فنحن
أسرة واحدة ، وإن ما أقوم به هو من أجلك أنت ، وليس في سبيل
نيل الفضة .. ولكن وانح رآها وهي تمد يدها ، فصب فيها فضة
وفيرة ، وقد حسب أنه قد أنفقها في وجهها الصحيح .. وهكذا اشترى
كل ما هو رقيق عرفه أو سمع به ، ثم أخذ ينتظر ..

في يوم مشرق من الشهر الثامن الذي هو نهاية الصيف ، جاءت إليه
فتاته - لوتس ؛ ورآها وانح لنج من بعيد آتية ، ولم يدر ما ذا ينبغي أن يفعل ،
بل إنه دلف سريعا إلى الغرفة التي كان ينام فيها كل هذه الأعوام وأغلق الباب ،
واتنظر في الظلام حتى سمع زوجة عمه تناديه لكي يخرج إليها .. ورأى
كوكو وسمعتها تقول : هيا يا زهرة اللوتس ، فهالك بيتك ، وهذا سيدك . ا
وتهدأت لوتس في رشاقة من محفة جاءت عليها ، وأسكت بيد كوكو ،
وعندما مرت به أحنت رأسها وأسبلت جفניה وهمست في رقة وخفوت
قائلة : أين غرقتي ؟ ثم تقدمت زوجة عمه ، وسارت الفتاة بينهما إلى الفناء

ثم إلى الغرف الجديدة التي بناها وانج لنج من أجلها ، وعندما دخلت أسدلت كوكو الستائر عليها . . .

وبعد قليل جاءت زوجة عمه تضحك ضحكا خفيفاً ، وقالت له : إنها ليست صغيرة السن كما يبدو عليها ، يابن أخي ؛ وإني لأجرؤ على القول بأنها لولا أنها قد شارفت السن التي يكف فيها الرجال عن التطلع إلى امرأة لكان من المستحيل أن الأحجار الكريمة ، أو الذهب ، أو الحرير تغريها على الزواج من فلاح .

ولما رأت الغضب بادياً في وجه وانج لنج . أضافت مسرعة ، ولكنها آية في الجمال ، ولم أر امرأة أخرى تضارعها جمالا .

ولم تحضر أولان طوال هذا الوقت إلى البيت لأنها في فجر ذلك اليوم كانت قد أخذت فأسها ، ونادت طفلها ، وأخذت معها طعاما بارداً ، وانصرفت إلى الحقل ولم تعد إلا ليلا ، ودخلت المطبخ ، وجهزت الطعام وأعدته على المائدة ، كما كانت تفعل دائماً ، ثم نادت على الجد الشيخ ، وأطعمت الطفلة البلهاء المسكينة وأكلت قليلا مع الأطفال وبعد أن اطمأنت على نومهم جميعا ، اغتسلت ، وأخيراً دخلت غرفتها ونامت . وظل وانج لنج يذهب يوماً بعد يوم إلى غرفة لوتس حيث كانت تجلس متخاذلة متكاسلة ، ولم تخرج من غرفتها في أيام الخريف الحارة وإنما كانت تظل راقدة حتى تأتي كوكو وتغسل لها بدنها ، لأن لوتس قد أصرت على أن كوكو يجب أن تبقى في البيت كخادمة لها . .

وكانت ترقد الفتاة طوال النهار في غرفتها المعتمة الرطبة تقضم الحلوى والفاكهة ، وتلبس الأثواب الحريرية الصيفية الخضراء ؛ وعند الغروب كانت تسير في الفناء ، وتذهب إلى البركة وتطلع إلى السمكات الخمسة الحمراء ؛ وكان وانج لنج يقف محلقا في لوتس ، تلك الأعجوبة التي أقتنصها ..

الفصل الحادى والعشرون

كان وانج لنج يتنبأ أن مجيء هذه الغادة - لوتس - وخادمتها كوكو سوف يحدث خلافاً من أى لون ؛ ذلك أن وجود أكثر من امرأة تحت سقف واحد يعكر الصفو والطمأنينة ، وعلى الرغم من أنه رأى من نظرات أولان العابسة ، وخشونة كوكو أن الأمر بينهما ليس على مايرام ، لم يعبأ لذلك مطلقاً أو يكثرث به ، وأخيراً وجد شقاً قايين أولان وكوكو فأدهشه هذا ، لانه كان يتوقع أن تكره أولان زوجته الجديدة لوتس ، ولكن حيث أنها كانت صامته حيال لوتس ، فكان غضبها شديداً ، وحقدتها دفيناً على كوكو .. وكان يبدو أن أولان كلما رأت كوكو كلما اشتد غضبها ، وكان غضباً عميقاً كشيء لم ير وانج لنج له مثيلاً فى حياة زوجته ، ولم يعرف أن مثل هذا النفور قد اضطرت نيرانه فى نفسها وقالت له : ماذا تفعل هذه الجارية فى بيتى ؟

ولما رأى وانج لنج أنها تتوقع منه إجابة على سؤالها ، قال لها فى ضعف :
وما يضيرك فى هذا ؟

وأغرورقت عيننا أولان بدموع حارة ثم تناولت طرف (مريلتها) ومسحت دموعها وقالت : إنه لشيء مؤلم أن يحدث هذا فى بيتى ، وليس لأى بيت أذهب إليه ..

ونظرت إليه فى رثاء وحزن بعينها الصامتين ، ثم انصرفت متسائلة تحسس الباب لأن عينها كانتا تفيضان بالدموع . وأخذ وانج لنج يراقبها وهى تنصرف ، وكان مسروراً بأن يبقى بمفرده ، لشوره بنجمله ، وقال لنفسه أن على أولان أن تتحمل وتصابر .. ولكن الأمر لم يقف بأولان عند هذا الحد ؛ ففى الصباح كانت أولان قد سخنت ماء ، ولكن عندما

دخلت كوكو المطبخ لتأخذ ماء ساخناً لسيدتها ، وجدت القدر فارغاً ،
ولما حان الوقت لأن تغير أولان الماء في القدر لاعداد عصيدة الصباح
ولم يبق في القدر ماء كاف للوتس ، ظلت أولان مستمرة في طهيها ، وهي
لا تنصت مطلقاً لشكوى كوكو .. وحينئذ ذهبت كوكو إلى وانج لنج
وصرخت شاكية له من أولان ، ولكنها ردت ووجهها ينطق بنفور عميق
ومقت شديد قائلة : « لست جارية للجوارى في هذا البيت ، . ولم يستطع
وانج أن يكظم غيظه ، وهز أولان من كتفها هزاً شديداً وقال لها :
« لا تكوني كهذا حمقاء أشد الحق .. إنه ليس للجارية ؛ ولكن لسيدتها .
واحتملت أولان غلظته ونظرت إليه وقالت له في بساطة : ألتك
التي أعطيتها اللؤلئين اللتين كانتا ملكاً لي !

وتراحت يده ، وتبدد غضبه ، وأنصرف وشعور الخزي والخجل
يملاؤه ، وقال مخاطباً كوكو : سنبني فرناً آخر ، ومطبخاً آخر ، إن زوجتي
الأولى لا تعرف شيئاً من لذائذ الطعام التي يحتاج إليها الآخرون والتي
تمتعين بها أنت ، وفي المطبخ الجديد سوف تطهين ماتشائين .

وهكذا أمر العمال أن يبناو غرفة صغيرة وفرناً من الطين ، ثم
اشترى قدراً آخر ممتازاً ؛ وهكذا ظن أن الأمور قد استقرت له في
البيت وأن نساءه قد هدأت وأستكانت .. ولكن على الرغم من ذلك
فإن هذا المطبخ الجديد ، أصبح مصدراً للقلق له ، ذلك أن كوكو كانت
تذهب كل يوم إلى المدينة وتشتري كل أنواع الأطعمة الغالية التي لم يسمع
عنها قبل ذلك إطلاقاً ، وكانت هذه الأطعمة وتكلفه نفقات لا يورد
أن يدفعها ولكن مع ذلك كان واثقاً كما حدثته كوكو أن ذلك الطعام
لا يكلف كثيراً ؛ وكان كذلك يخشى أن يعترض فتغضب لوتس ؛

وهذا بالطبع أضعف قليلا من حبه لها .

ولم يكن هذا كل ما في الأمر إذ نشأت من إعداد الطعام الفاخر مشكلة أخرى ذلك أن زوجة عمه التي كانت تحب الطعام الشهى الغالى ، كانت تغرد بنفسها لتناول طعامها فى الغرفة الداخلية حيث تأكل على هواها وتلتهم كل ما يحلو لها ، ولا شك أن هذا التصرف قد أغضب وانج لنج من لوتس التي أتخذت من هذه المرأة صديقة لها دون أهل البيت جميعا .

وعندما اشتكى لها فى رفق ، صارت محنقة متكذبة وقالت له : إنك تعلم الآن أنه ليس لى فى هذه الدنيا سواك ، وزوجتك الأولى نكرهنى وأطفالك يزعجونى ، أنت إذن لا تحبى .. فلو كنت تحبى لأردت لى الراحة والسعادة .

وخجل وانج لنج من حديثها وقال لها : د لىسكن لك ماتشائين ، ولتسعدى إلى الأبد ،

ومرت الأيام وكلما ذهب وانج لنج إلى غرفة لوتس كانت تجعله ينتظر طويلا حتى تنتهى من حديثها أو أكلها مع خادمتها ، وصارت تهمله ، ولا تهتم بأمره ، وأنفطأت حرارة حبه لها رويدا رويدا دون أن يتنبه لذلك .. بل إن حبه لها أصابته ثغرات أخذت تتسع ، وتزداد غوراً كلما نشبت بينها لحظات من الغضب وازدادت حدة وجفاء لأنه لم يستطع حتى أن يبث شكواه لزوجته أولان ..

وزادت متاعب وانج لنج ، وصادفه كدر آخر مخيف إذا سئقظ والده يوماً فجأة من نومه تحت أشعة الشمس ، وترنخ فى مشيته حتى وصل إلى باب علقته عليه ستائر من الغرفة الكبرى والفناء الذى تترىض فيه

لوتس ، ولم يكن قد لحظ الجدد ذلك الباب من قبل ، واقترب منه ، وأزاح الستار ، وتصادف في ذلك الوقت من المساء أن وانج لنج كان يتزه مع لوتس في الفناء ، وقد وقفا بجوار البركة يشاهدان السمك ، فعندما رأى الشيخ إبنه واقفاً بجوار فتاة هيفاء ، صاح بصوته المرتعش قائلاً : من هذه المخلوقة التي في البيت ؟

نحشى وانج لنج أن تغضب لوتس فقاد الشيخ إلى الفناء الخارجي وهو يهدأه قائلاً : ليهداً بالك يا والدي إنها زوجة ثانية لي تقيم في البيت .. ولكن الشيخ أنى أن يسكت ، وصاح في وجه وانج لنج قائلاً : لقد كان لي زوجة واحدة ، وكان لأني زوجة واحدة ، وكنا نفلح الأرض . وسيطر على الشيخ من ذلك الوقت حقد مريع على لوتس ، وكان يقرب من ستائر غرفتها ويصق على البلاط ، أو يقذف حجارة صغيرة في البركة ليفزع السمك ، وكان وانج لنج يججل أن يلوم أباه ، ومع ذلك كان يخشى غضب لوتس عليه .. وذات يوم سمع وانج لنج صرخات من الغرف الداخلية . فدفق إليها مسرعاً حيث وجد طفليه التوأمين قد اقتادا أختها الكبرى البلهاء ؛ وكان الأطفال الأربعة دائماً مدفوعين بالفضول نحو السيدة التي تعيش في الغرفة الداخلية بمفردها ، غير أن الولدين الكبيرين كانا يججلان من الذهاب إليها ، أما الصغيران فكانا لا يكتفيان إلا بحملتهما إلى السيدة ، ودس أصابعهما في أوعية الطعام التي كانت تحملها كوكوبعد تناولها الطعام . وشكت لوتس عدة مرات لزوجها من أطفاله الذين أصبحوا مصدرراً لمضايقتها وإزعاجها فكان يجيبها قائلاً : حسناً .. إنهم يحبون أن ينظروا إلى وجه فاتن كما يفعل أبوهم تماماً . ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يمنعهم من الدخول إلى غرفتها

ولكن عندما لا يكون في البيت كانوا يدخلون ويخرجون خلصة . .
وفي نفس ذلك اليوم كان الشقيقان الكبيران في المدرسة ، فوجد
الصغيران أن أختهم البلهاء لا بد وأن ترى السيدة في جناحها الخاص ،
وعندما جذبت الفتاة بالاثواب الزاهية التي كانت لوتس ترتديها ، مدت
يدها لتحسسها وهي تقمقه عاليا من فرط السرور ، فأرتاعت لوتس ،
وتملكها الخوف لأنها لم تكن قد رأت الطفلة وهي تدخل الغرفة ،
وصرخت بأعلى صوتها ، فهرع إليها زوجها وانج ، وقابلته بالعويل قائلة :
لو أخبرني أحد قبل الزواج منك بأنه سيكون من الضروري أن أتحمل
حتمى ملاءين ، لو كنت أعلم ذلك ، ماجئت إلى بيتك ، فما أقدر أطفالك ا
فرد عليها وانج بخشونة : إلى لا أقبل أن يسب أطفالى . ولا حتى
طفلى البلهاء . . . ثم خاطب أطفاله قائلا :

ها أخرجاً من هنا يابنى ويابنتى ، ولا تعودا مرة أخرى إلى غرفة
هذه السيدة ، فهى لا تحبكما ، ولا تحب أباًكم أيضاً . .

ولقد غضب وانج أشد الغضب على زوجته التي جرؤت على أن تسب
طفلته المسكينة وعلى أن تسميها بالبلهاء ، وظل يومان لا يقترب من
غرفتها أو يتحدثها ، ولكنه بانقضاء هذين اليومين تخاطبا ثانياً ، ولم
يتعابا على أنهما لم يلتقيا خلال هذه المدة ، وأخذت يده وقربتها من
وجهه ، بيد أنه قد عاد إلى حبا مرة أخرى وإن لم يكن بنفس الدرجة
التي أحبها بها من قبل . .

وحان يوم بعد انتهاء الصيف ، وهبت رياح الخريف الصافية
بقوة على الأرض ونهض وانج لنج كمن صحا من نوم فذهب إلى

باب بيته ورأى أن الماء قد انحسر عن الأرض ، وبدت لامعة والرياح
الباردة الجافة تهب فوقها ، وأشعة الشمس القوية تسطع عليها . . . وسرى
في كيانه حب لأرضه أعمق من أى حب آخر ؛ ومزق الثوب الحريري
الجميل الذي كان يرتديه ، وشمر سراويله إلى ركبتيه وصاح قائلاً : أين
الفأس ؟ أين المحراث ؟ وأين البنور لزراعة القمح ؟ تعال يا تشنج
يا صديقي . . . ناد الرجال ، . . . سأخرج معكم إلى الأرض . . .

الفصل الثاني والعشرون

التأمت جراح قلب وانح لنج عند عودته من المدينة الجتريية إلى بيته كذلك شفى من مرض الحب بأرض حقوله الطيبة السمراء، وصار بأمر عماله بأن يعملوا هنا وهناك، حتى أنجزوا يوماً حافلاً بالعمل الجبار، وهو واقف أولاً وراء الثيران، ثم نادى على تشنج وأعطاه المقود، وتناول نفسه فأسا، وأخذ يقلب به التربة. وكان يفعل ذلك لمجرد شعوره بالسزور وهو يشتغل، وليس بدافع الضرورة أو الحاجة إلى العمل. ولما شعر أنه منهك القوى، رقد بمدأ على أرضه ونام.

وحينما حل المساء عاد متمهلاً إلى بيته منهك القوى، يشعر بالظفر في نفسه، وجذب الستار الذى بباب الغرفة الداخلية فوجد لوتس تسير في ثيابها الحريرية، ولما رآته صاحت جزعاً من الطين العالق بملابسه وأرتاعت واجفلت عندما أقترب منها، ولكنه ضحك وقال لها: ها أنت تزين أن زوجك ليس إلا مزارعاً، وأنت لست إلا زوجة فلاح... ولكنهما صاحتا محتدة محتجة: أنا لست زوجة مزارع، فكن كما شئت!

ثم ضحك ثانية، وخرج من لديها في خفة؛ ثم خيل إليه أنه غاب عن أرضه طويلاً، وأنه وجد أشياء عديدة فجأة ينبغى أن يؤديها... وصار إذا عاد إلى بيته ظهراً أو مساء يأكل بشهية من الطعام الذى أعدته له أولان من الأرز والبقول، وعيدان الثوم محشوة في الخبز، وإذا صاحت لوتس محتجة على رائحة الثوم التى تفوح منه، كان يضحك ولا يبالي، بعد أن شفى من مرض الحب.

وهكذا أحتلت كل من المرأتين مكانها في بيته : لوتس دميته ،
وأولان ساعده الأيمن في العمل تلك الأم التي انجبت له البنين ، وأطعمته
وأطعمت آباءه ، وأطفاله .

وشعر لنج لنج بالزهو والخيلاء في القرية عندما أخذ الرجال يتحدثون
عن زوجته لوتس ، ويمجدونه عليها ، ويعاملونه باحترام من أجلها ،
كفرد يعيش في بيت عظيم . .

وانهمك وانج لنج في أعمال عديدة ، خاصة وأن الأمطار قد هطلت
في موسمها ، ونبتت محاصيل القمح ، وأقبل الشتاء ، فحمل وانج لنج
محصوله إلى الأسواق لأنه كان قد أختزن الحبوب حتى أرتفعت أسعارها
وفي هذه المرة أصطحب ابنه الأكبر معه إلى السوق . .

إن الإنسان ليحس بالكبرياء والفخر عندما يرى ابنه الأكبر يقرأ
بصوت مرتفع الحروف على الورق ، ويضع الفرجون والخبر عليه
يكتب بما يمكن أن يقرأه الآخرون ، وهذا الشعور بالفخر قد ملك على
وانج لنج زمام نفسه ؛ ولم يتظاهر مطلقاً بأنه أمر عادي مألوف في أن
يكون لديه ولد يقرأ ويكتب مثل ولده ، فوقف والفخر يزدهيه يتطلع
إلى نجله مسكاً بيده الفرجون ليسطر ما يكتب . .

وبعد أن انتهى ولده من كتابة الحساب ، ووقع والده باسمه على
عقد بيع الحبوب ، وإيصال الدفع ، سارا سوياً راجعين إلى البيت . .
الآب وإبنه ، وشعر الآب أن عليه واجباً نحو إبنه يؤديه ، ألا وهو أن
يختار له زوجة ، وأن يخطبها له .

ولذلك كرس وانج لنج جهوده في البحث عن فتاة لتكون زوجته
لإبنة ، ولم يكن هذا بالعمل السهل التافه ، فهو عازم على ألا يختار له أنثى
عادية من طبقة العامة ، ولذلك أرهف أذنيه هنا وهناك في مشرب الشاي
لكل ما يقال عن الفتيات أو الرجال الأثرياء ، الذين لديهم بنات على
أهبة الزواج .

أهلت بواكير الربيع ، وبدأت الخضرة تسرى في أشجار الصنصاف
واكتست براعم أشجار التفاح بلون قرمزي أحمر ، وطال الوقت ولم يجد
وانج لنج الفتاة التي سعى في البحث عنها لولده .

أبى الربيع بأيامه الدافئة معطرة بأزهار الخوف والكريز ، وقد
تحول فجأة الابن الأكبر لوانج لنج من طور الطفولة إلى عهد الشباب ،
فصار متقلب المزاج ، حاد الطبع لا يعجبه من الاطعممة هذا أو ذلك
وأصبح برما بكتبه ، ينفجر باكيا إذا غضب والده ويخرج مسرعا من
غرفته . وعلاوة على ذلك كان يضيق بأستاذه ولا يذهب لمدرسته
إلا إذا صاح في وجهه وانج لنج أو ضربه وكان أحيانا يقضى أياما بأكلها ،
متسكعا في شوارع المدينة .

وفي النهاية عندما كان يعضب وانج لنج يضرب ابنة حتى تسمع أولان
الضرب فتندفع مسرعة من المطبخ وتقف بين الوالد وإبنة . وعندما ضربه
ذات مرة وانصرف الصبي وقفت أولان أمام زوجها فأدرك ما تود
قوله - لهذا قال :

تكلمي - ماذا تريدن يا أم أبنائي ؟ .

فقلت : إنه من العيب أن تضرب الصبي كما تفعل فقد رأيت هذا الشيء يصيب
أبناء السادة في قصورهم فكان سيد الأسرة يعالج الموقف بأن يزوج أبناءه ...

فأجابها وانج لنج قائلا: الامر لا يحتاج الآن لذلك فعندما كنت صبيا
لم أكن معتادا هذا البكاء ، وهذا المزاج المتقلب ..
فأجابته أولان ببطء :

لم أر ذلك يحدث إلا بين السادة الشبان . فإنك تعمل في الحقول ،
ولكن ابنتك شبيهة بأبناء السادة الشباب ، وهو لذلك عاطل بالمنزل .
دهش وانج لنج . وعندما فكر قليلا رأى الحقيقة في قولها . وفي
قرارة نفسه شعر بالفخر بأن له إبنا من هذا الطراز وقال لزوجته :
حسنا - وإذا كان ابني شبيها بسيد شاب ، فهذا موضوع آخر ، فإنني
سأزوجه وسنبكر بزواجه ، وهذا ما يجب عمله .
ونمض بعد ذلك ، ودخل الفتاة الداخلي .

الفصل الثالث والعشرون

أدركت لوتس أن أشياء قد صرفت وانج لنج عن التفكير في جمالها وفتنتها ؛ فقالت له يوماً وقد تجهم وجهها :

لو كنت أعلم أنك بعد عام قصير سوف تلقى على نظرة سريعة ولا ترائي دواماً ما كنت تزوجتك - وأشاحت برأسها بعيداً وأخذت تنظر إليه من زاوية عينيها ، فأثار ذلك ضحكة ، وأجابها قائلاً : حسنا إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر دائماً في الجوهرة التي ثبثها في معطفه ، ولكنها ، لو فقدت منه فإنه لا يطيق الصبر على فقدانها ، وإن لافكر في هذه الأيام في ولدي ، الذي يجب على أن أزوجه ، ولست أدري كيف أجد الفتاة الجديرة به ..

منذ أن أصبح الابن البكر لوانج لنج فارح الطويل ، مشوق القوام ، مكتمل الرجولة المبكرة ، أخذت لوتس تخصه بالخطوة والإيثار ، وأجابت زوجها قائلة :-

أعرف رجلاً ، كان يتحدث كثيراً عن ابنته ، وقال عنها أنها صغيرة فاتنة مثلي ، ولكنها مازلت طفلة ..

فسألها وانج لنج : من يكون هذا الرجل ؟ وما هو عمله ؟
فأجابته قائلة : لقد كان رجلاً طيباً ، ولا أعرف ماذا يكون عمله على وجه الدقة ، ولكنني سوف أسأل كوكو التي تعرف كل شيء عن الرجال وأموالهم ..

ثم أخذت تصفق يديها فجرت إليها كوكو من المطبخ ، وسألها

لوتس عن اسم ذلك الرجل ، وأجابتها على الفور : آه .. إن اسمه ليو ،
تاجر الحبوب ، وسوقه كائن بشارع القنطرة الحجرية .
وقبل أن تنهى كلماتها ضرب وانج لنج كفيه بعضهما في بعض في
سرور وقال :

إنه في المكان الذي أبيع فيه حبوبى ، وإنه لأمر رائع ، ويمكن حقا
إنجازه ... ولقد بدا لوانج لنج أنه من حسن الحظ أن يتزوج ولده من ابنة
التاجر الذى اشترى منه الحبوب ..
وكان من عادة كوكو إذا ما كلفت بعمل تؤديه ، أن تشمم رائحة
المال فيه كما يتشمم الفأر رائحة الدهن ولذلك قالت على الفور : - إني على
استعداد لأن أودى خدمة لسيدى ..

وكان وانج لنج متشككاً ، ولكن لوتس قالت في إنشراح :
كوكو سوف تذهب إلى ليو؛ حتى إذا ما أدت مهمتها على مايرام ،
فستأخذ أتعابها كوسيلة للزواج - ولكن وانج لايج قاطعها قائلاً :
كلا .. فأنا لم أقرر شيئاً بعد ، وينبغى أن أفكر في الأمر ، وأتدبر
الموضوع لعدة أيام ، وسأخبرك بما أستقر عليه رأى ..
وكاد وانج لنج ينتظر عدة أيام ليفكر في الأمر على شتى وجوهه
ما لم يأت ابنه الأكبر ذات يوم ساعة الفجر ووجهه ملتهب ، أحمر قان
من إفراطه في شرب الخمر فتعثرت في مشيته وسقط بلا وعى على الأرض .
فارتاع لذلك وانج لنج ، ونادى على زوجته أولان ، وتعاونتا سوياً على
رفع الصبي ، ثم أرقده أولان على فراشه ، وهو يعط في نوم عميق
لايبدى حراكاً كجسد ميت ..

وذهب بعد ذلك وانج لنج إلى غرفة طفليه التوأمين ، ونادى على
ولده الأصغر قائلاً : أين كان أخوك الأكبر ليلة أمس ؟ فيسيطر
الرب على الصبي وانفجر يبكي ويتأوه ، ثم قال لأبيه : لا أعرف أين
كان ، فيما عدا أنه قد خرج مع ابن عمك أو ابن عمنا ..

فتوجه وانج لنج إلى غرفة عمه يستشيط غضباً ، ونسى أنه سوف
يتحدث مع عمه وشقيق والده ، وتذكر فقط أن هذا الرجل ليس إلا
والد الفتى عاطل ، نزق طائش قد أفسد ابنه الجميل الخلق ، وصاح بأعلى
صوته قائلاً : لقد أويت في بيتي وكرأ من الأفاعى المتمردة ، الناكرة
للجميل ؛ ولقد كافأتى هذه الأفاعى بأن عضتى ..

وكان عمه في ذلك الوقت يتناول طعام الإفطار حيث لم يكن ليستيقظ
قبل منتصف الظهر وخاطب وانج في تكاسل : كيف حدث هذا الآن ؟

وحيث قص عليه وانج لنج ما كان قد حدث ، ولما لم يجبه عمه على
ذلك إلا بالضحك والسخرية ، قال له وانج لنج : هيا أخرج الآن من
بيتي ، أنت وأولادك فإني لأفضل أن أقوض أركان البيت بالحريق على
أن أدعك تقيم فيه !

ورأى وانج لنج أن عمه لا يعاب به ، ولا يكثرث لما قاله ، فتقدم إلى
الامام ، وخطأ نحوه ، ويده مرفوعة إلى أعلاه ؛ وحينذاك التفت نحوه
عمه وقال له :

اطردني من بيتك إذا جرؤت على ذلك .. ثم فتح رداًه ، وأظهر
لوانج ما كان يخفيه بين طياته ، وتحت بطاته .

فوقف وانج لنج مبهوتا ، ساكناً لا يريم ، إذ أدرك في الحال أنه قد
رأى لحية مزيفة حمراء ، وقطعة من القماش الأحمر .. وكانت هذه



اطردني من بيتك إذا جرؤت على ذلك . . . !

الاشياء هي الشارات التي كانت تتخذها عصابة من اللصوص كانت تعيش في المنطقة الشمالية الغربية ، ولم أحرقت هذه العصابة من بيوت ، ولم من فلاحين قيدتهم بالحبال على أبواب بيوتهم حيث كان يجدد الناس على هذا الحال في الصباح إما قد فقدوا عقولهم من الخوف والرعب ، وإما موق لاحراك بهم فأخذ وانج لنج يحملق فيما قد رأى ، ثم استدار على عقبه ، وأنصرف دون أن ينبس ببنت شفة ؛ وفي انصرافه سمع ضحكة عمه المكتومة وهو ينحن ليتناول طعامه من وعاء الأرز .

وظل عمه يغدو ويروح كأن كان يفعل من قبل ، ولم يجرؤ وانج لنج على أن يقول له شيئا سوى أن يبادله بعض الكلمات المؤدبة خشية أن يفعل به عمه مكروه ، وأدرك فجأة السبب الذي من أجله قد سُرق رجال كثيرون ، والسبب الذي من أجله لم يسرق مثلهم ، وأنه ظل طيلة هذا الوقت في أمان واطمئنان ، وأنه سيظل هكذا مادام يطعم عمه وزوجه وابنته .. ولم يفتح عمه مطلقا بعد ذلك في أن يغادر البيت ، بل إنه أعطى فضة لزوجة عمه وأبنا .. وظل يراقب ابنه ، وفلذة كبده ، ولم يأذن له بمغادرة البيت بعد غروب الشمس ، على الرغم من أن ابنه كان يغضب لذلك ، ويقذف بنفسه هنا وهناك ، ويضرب إخوته الصغار بغير سبب ؛ وإنما كان مدفوعا إلى ذلك باستيائه ، ومزاجه المنحرف .

وما زاد الطين بلة ، كأن متاعبه السابقة لم تكفه هو أن كوكو جاءت من لندن تاجر الحبوب لتخبره أن الفتاة صغيرة وليست أهلا للزواج بعد ، ويجب أن تنتظر ثلاثة أعوام أخرى . وسيطر على وانج لنج الرعب من ثلاثة أعوام أخرى عليه ان يتحمل

خلالها غضب ابنه وتكاسله وتعطله ، ولذلك صاح في أولان تلك الليلة وهو يتناول طعامه قائلاً : حسنا .. دعينا نخطب لأطفالنا الآخرين طالما نجد في أنفسنا القدرة على ذلك ، فكلما تعجلنا كلما كان ذلك أفضل .. فإني لأطيق أن يحدث مثل هذا العذاب من جديد ثلاث مرات أخرى .

وفي صباح اليوم التالي ، مزق أثوابه الطويلة ، وخلع حذائه وقذف بها بعيداً وعاد إلى سابق عهده وعاداته عند ما كان كان يجد شتونه المنزلية قد ثقلت عليه وتكاثرت ، فتناول فأسا ، وانصرف موليا وجهه شطر حقوله .

وظل يذهب إلى أرضه يوما بعد يوم ، وظل على هذا الحال أياما عديدة ، وكأنا شاء القدر أن يشفيه من همومه ، فبعث من الجنوب ذات يوم سحابة خفيفة صغيرة ، وراقبها رجال القرية مثله ، فسيطر الخوف على مشاعرهم ؛ لأن ما كان يخشونه هو الجراد الذي انطلق من الجنوب ليلبتلع ما زرعه في حقولهم ، وظلت أبصارهم مغلقة بالسما والهواء ، حتى هبت ريح فطوحت بشئ تحت أقدامهم ، ولما تبينوه وجدوه جراد مميته . وعلى ذلك نسي وانج لنج كل ما كان يشغل باله ، واندفع وسط الفلاحين الذين سيطر عليهم الرعب ، وصاح فيهم قائلاً :

إنه لقي سبيل أرضنا الطيبة سنكافح قلبا وقالبا هذه الأعداء التي أتت إلينا من السماء . !

ولكن الجراد ظل ينتشر في الهواء ، ويتكاثر فوق الأرض ، ونادى وانج لنج على عماله ، ووقف تشنج صامتا مستعداً لتلبية أى أمر بجوار وانج ، وكان يحيط به فلاحون شبان آخرون ، أخذوا يشعلون النار ويضرمونها في الحقول ، فأجروا عيبدان القمح

التي كانت تقف شاحنة ناضجة ، في انتظار من يحصدها ، ثم أخذوا
يجفرون الخنادق المتسعة ، ويجرون فيها الماء المنساب من الآبار ، وظلوا
بكاخون دون أن يذوقوا للنوم طعاما .

وأحضرت لهم أولان طعاما ، كما أحضرت النسوة الطعام لأزواجهن
وكان الرجال يأكلون وهم وقوف في الحقل أثناء الليل وأطراف النهار .
ثم ادلمت صفحة السماء ، وانتشر في الجو دوى عميق ، أحدثته
أجنحة الجراد التي لا حصر لها ، وهي تتلاطم كالعباب بعضها في بعض .
وكان الجراد يسقط على الأرض ، ثم يطير على ذلك الحقل ثم يتركه
بأكمله ، ثم يحط على حقل آخر ، ثم يتركه عاريا بلا زرع كما لو كان الوقت
شتاء . . . وخرج وانج لنج عن جادة الصواب ، وتمسكه غضب شديد ،
فأخذ يضرب الأرض بلا هوادة ، ويطأه بجذائه ، وكان رجاله يجذون
حذوه ، وأخذ الجراد يتساقط في ألسنة النيران المشتعلة ، ثم يطفو ميتا
على صفحة المياه الجارية في الخنادق التي حفروها لهذا الغرض وهلكت
ملايين من الجراد .

ولكنه لم يكن شيئا يذكر بجانب الجراد الذي لم يقض عليه بعد .
وكان جزاء وانج لنج على كفاحه هو أن أفضل حقوله قد أنقذت ،
كما تبقى له من القمح ما يمكن أن يجنيه ، وأنقذت كذلك أحواض أرزه
الصغير ، ولذلك كله كان وانج راضيا قانعا . . . ثم أكل بعد ذلك كثير
من الناس الجراد بعد أن شووه . ولكن وانج لنج رفض أن يأكل مثلهم
إذا كان يمتبره قدرا ملوثا لما أتزله من خسارة فادحة بأرضه .
ومهما يكن من أمر فإن حملة الجراد قد عادت على وانج لنج بهذه

بفائدة جمة إذ مكث سبعة أيام وهو لا يفكر في شيء سوى أرضه .
ولذلك أخذ يخاطب نفسه في هدوء : حسنا . . إن لكل إنسان متاعبه !
ويجب أن أعيش صابراً على ما ألم بي من متاعب ، وإن عمي ليكبرني
في السن ، وهو لا شك سيموت ؛ وستمر أعوام ثلاث بخيرها
وشرها على ولدي . ولن أقتل نفسي من الهم .
وجنى قمحه وهطلت الأمطار ، وغمرت عيدان الأرز في الحقول
الفياضة بالماء ، ثم أقبل بعد ذلك الصيف .

الفصل الرابع والعشرون

في ذات يوم على أثر عودة وانج لنج من الحقول ظهراً ، جاءه ولده الأكبر ، وقال له : أبتاه ، إذا أردت مني أن أصير عالماً فإنه لم يبق لدى المعلم الشيخ في المدينة ما يمكنه أن يعمله لي .

وكان وانج لنج في تلك اللحظة قد غمس فوطة في ماء ساخن في آنية وأمسك بها وهي تبعث بخاراً أمام وجهه فقال له : حسنا .. وماذا تريد الآن ؟

وتردد الصبي لحظة ، ثم قال : حسنا .. إذا شئت أن أكون عالماً ، فإني أفضل أن أذهب إلى الجنوب في المدينة ، والتحق بمدرسة كبيرة لتعلم فيها ما يجب أن يعلم .. فسمح وانج لنج وجهه بالفوطة الساخنة ، وأجاب بحدة : حسنا ، وما هذا الهراء الذي تقوله ؟ إنني أقول لك ، إنك لن تذهب ، فالعلم متوافر في هذه الجهات .

ولكن الشاب ظل واقفاً في مكانه ، وأخذ يحمق في والده بكرامية ثم قال له : لن أمكث في هذا البيت الأحمق ، الذي أراقب فيه كآني طفل ، سأسافر وأتعلّم شيئاً ، وأرى جهات أخرى .

ونسى وانج لنج أنه كان فخوراً بأن ابنه كان متعلماً يعرف الكتابة وأنه كان ماهراً في قراءة الكتب وصاح فيه قائلاً : اذهب الآن إلى الحقول ، وضع قليلاً من الطين على جسمك ، حتى لا يحسبك الناس امرأة واشتغل قليلاً في مقابل الأرز الذي تأكله ..!

وظل الفتى واقفاً ينظر إلى أبيه في كراهية ، ولكن وانج لنج لم يلتفت حتى يرى ماذا كان يفعله الصبي .

ومهما يكن من أمر فإن وانج لنج عندما دخل في تلك الليلة إلى الغرف الداخلية، وجلس إلى جانب لوتس ، وهي راقدة على السرير وكوكو تروح عنها بمروحة قالت له لوتس في تحاذل : إن ابنك الأكبر يريد الذهاب إلى الجنوب .

وحينئذ تذكر وانج لنج ما كان من حنقه على ولده، فأجابها في خشونة: وما شأنك بذلك؟ إنى لا أرغب أن يأتى إلى هذه الغرف بعد أن وصل سن الشباب ..

فأسرعت لوتس تقول: كلا . . كلا . إن كوكو هي التي تقول ذلك.. ففكر وانج لنج في غضبه فقط على ابنه ، وقال :

كلا . . إنه لن يذهب . . لن أضيع مالى هباء . .

ولم يرغب فى أن يتحدث بعد ذلك فى هذا الموضوع .

وبعد ذلك مرت الأيام ولم يتحدث أحد خلالها فى هذا الأمر، وبدأ على الشاب أنه قد أصبح فجأة راضياً ، ولكنه لم يشأ أن يذهب إلى المدرسة إطلاقاً ، وسمح له بذلك وانج لنج .

وبعد أن عادت حياته إلى الهدوء ، وعاد ابنه إلى الرضا ، كان من

الممكن أن يكون وانج لنج قدير العين ، لولا أنه ذات ليلة كان جالسا

بمفرده ، وهو يحسب على أصابعه ما يمكنه أن يبيعه من حنطته وأرزه

فاذا بأولان تأتى إلى غرفته فى هدوء . . وكانت أولان بمضى الستين قد

نحف جسدها ، وأصبحت هزيلة ، وغارت عيناها ، حتى إذا ما سألها

أحد عن صحتها فإنها لا تزيد عن قولها : أحس ألما كالنار فى أحشائى . . !

وكانت تهض من نومها عند الفجر ، وتودى عملها ، وكان وانج لنج

لا ينظر إليها إلا كما ينظر إلى مائدة أو كرسي فى البيت ، إلا أنها لم تقل

شيئا ، بل ظلت تؤدي عملها من طهي ، أو غسيل للملابس في البرد حتى في أيام الشتاء القارس ، عندما تكون المياه متجمدة كالثلج في حاجة إلى التفتيت . .

ولم يخطر ببال وانج لنج أن يقول لها : لماذا لا تستأجرين بالفضة الفائضة عن الحاجة خادمة ، أو جارية .

نعم لم يخطر بباله أن الحاجة تدعو إلى ذلك ، مع أنه كان يستأجر عمالا لحقوله .

وفي ذلك المساء ، عندما كان جالسا بمفرده وقفت أمامه : وقالت له أخيراً :

أريد أن أقول لك شيئاً . .

فحملق فيها بدهشة ، ثم أجابها قائلاً :

حسناً . . قولي ما تشائين . .

وحينئذ قالت له في همسة خسنة :

إن ابنتنا الأكبر يدخل كثيراً جداً إلى الغرف الداخلية يثرثر مع

من فيها . . نعم إنه يذهب إليها عندما لا تكون أنت في المنزل .

فحملق وانج لنج في أولان .

ثم استطردت تقول : حسناً . . فتعال ياسيدي إلى البيت في أوقات

غير متوقعة .

ثم أردفت بعد صمت : إنه لمن الأفضل أن ترسله بعيداً . .

إلى الجنوب . . .

ثم انصرفت صامتة ، وتركته جالسا في مكانه . . وقال مخاطباً نفسه :

لا مرأ في أن هذه المرأة غيورة !

ثم تذكر كيف أن لوتس كانت تعلم برغبة ابنه في أن يسافر الى الجنوب ..

قَالَ مخاطباً نفسه مرة أخرى : سأتمين هذا الأمر بنفسى !
ثم انصرف ليراقب رجاله كما كانت عادته في أوقات الحصاد والزرع
وأخيراً صاح بأعلى صوته عسى أن يسمعه أى فرد فى المنزل فيرد عليه :
إنى ذاهب الآن إلى قطعة الأرض بجوار الخندق ، ولن أعود
إلا متأخراً .

وعندما سار إلى منتصف الطريق ، جلس وأخذ يفكر فى نفسه
مرة بعد أخرى قائلاً : هل أعود؟

ثم راوده غضبه ، وعاد إلى بيته عن طريق آخر ، ودلف إلى الداخل
ووقف يصغى بجوار الستارة التى كانت معلقة بالبواب المؤدى إلى الغرفة
الداخلية ، وسمع صوت رجل يهمس ، فتبين له أنه صوت ابنه .

وامتلاً قلب وانج لنج بغضب شديد لم يعرف له مثيلاً فى حياته قط
فأطبق أسنانه ، وخرج ، وانتقى عوداً رقيقاً ليأى من الخيزران ، وانزعه
من بين الأغصان ، ثم عاد أدراجه إلى داخل الغرفة حيث وجد ابنه
واقفاً فى الفناء يثرثر مع لوتس التى كانت جالسة على كرسى صغير بلا
مسند على حافة البركة .

ولم يسمع كلاهما دخول وانج لنج أو اقترابه ، ولكن كوكو هرعت
إلى الخارج فرأته واقفاً ، فصرخت فنظروا نحوها فرأوه .

وتهاوى وانج لنج على ولده ، وظل يضربه حتى انهزم منه الدم ..
وعندما صرخت لوتس . وأخذت تجذبه من يده ، ضربها كذلك .. ثم
ألقى بعد ذلك بالعصا ، وهمس مخاطباً ولده وهو يلهث : هيا اذهب الى

غرفتك ، ولا تهور في الخروج منها حتى أنخلص منك ، وإلا قتلتك . .
ونفض الصبي دون أن ينطق بكلمة واحدة ، وانصرف ،
وجلس وأنج لنج على الكرسي الذي كانت جالسة عليه لوتس ،
وعاد إليه تنفسه في طمات طويلة ، ولم يقترب منه أحد وظل جالسا هكذا
حتى هدأ وتلاشى غضبه .

ثم نهض في مشقة ، وانصرف ، وعندما مر بغرفة ابنه نادى عليه
دون أن يدخل إليه وقال : هيا ضع لوازمك في صندوق واذهب من الغد
إلى الجنوب إلى حيث تشاء ولا تعد إلى البيت حتى أبعث في طلبك ا
ثم سار في طريقه حتى وصل إلى غرفة أولان ، فوجدها تحيك له
بعض الأثواب .

فتبين له أنها إذا ما سمعت ضربا وعويلا ، فلا تبدى حراكا ، وظل
يغدو ويروح في حقوله تحت أشعة الظهيرة المحرقة شاعرا بتعب يوم
كامل من العمل .

الفصل الخامس والعشرون

كان لوانج لنج يختلف تمام الاختلاف عن ابنه الأكبر كما يحدث عادة بين أخين يعيشان تحت سقف واحد ، وكان به من الصفات ما ذكر وانج لنج بأبيه ، وقال وانج لنج عنه :

« إن هذا الصبي سيكون تاجراً ناجحاً ، ولن أبعث به بعد اليوم إلى المدرسة ، وسأحاول أن أجعله صيباً لأحد التجار في سوق الحبوب .
ولذلك نادى على كوكو ذات يوم وقال لها : اذهبي إلى والدخطيبة ابني الأكبر ، واخبريه أن عندي ما أقوله له .

فذهبت كوكو إلى التاجر ، وجاءت تقول :

إنه سيرك عند ماشاء ، إذا تكلمت بالذهاب إليه لتشرب كأساً من النبيذ ظهر هذا اليوم ، أو إذا شئت فإنه على استعداد لأن يحضر إلى بيتك بنفسه .

ولذا اغتسل وانج لنج ، وارتدى ردائه الحريري ، وخرج مخترقاً حقوله ، وذهب إلى شارع الكبارى ، كما أخبرته كوكو ، ووقف أمام بوابة حيث رأى بايين على يسار القنطرة ، حيث بيت التاجر ثم دق الباب بيده .

وفتحت له الباب خادمة ، وسألته عن شخصيته ، ولما أعطاه اسمها ، ظلت تحمق فيه ، ثم قادتة إلى الجناح الذى يقيم فيه الرجال ، ثم ظلت تحمق فيه مرة أخرى ، لأنها كانت تعلم أنه والدخطيب السيدة الصغيرة ثم انصرفت لتنادى على سيدها ، ولما صار وحده فى الغرفة أخذ ينظر حوله ، ويتفحص بعينه ما يرى ، وسره أن كل ما فى الغرفة كان يدل على

رخاء وإن لم ينبيء عن ثراء عظيم . . فهو لم يكن يريد لابنه الأكبر زوجة من أسرة غنية حتى لا تسكبر عليه ، وتتمرد ، وتلح في طلب مالذ وطاب من الطعام ، وغالى الثياب فتصرف بذلك إبنة عن حب والديه .

ولجأة سمع صوت أقدام ثقيلة ، ودخل الغرفة رجل بدين طاعن في السن ، ونهض وانج لنج ثم انحنى لإحتراما ، ثم تبادلوا الانحناء ، وأخذا ينظران بعضهما إلى بعض خلصة ، ويقران بعضهما البعض ، لما يتحلى به كلاهما من وقار ورخاء ، ثم أخذا يجلسيهما ، يجرعان من الخمر المعتقة التي صبتها لهما الخادمة ، وجرى بينهما حديث ذو شجون ، وأخيرا قال وانج لنج :

لقد جئت بخصوص أمر ، وإذا لم يكن لديك رغبة في أن نتحدث فيه ، فدعنا نخوض في موضوعات أخرى : إذا كنت تحتاج إلى خادم لك في سوق الحبوب ، فليكن ابني الثاني خادما ، وأنه لولد ذكي ، أما إذا لم تكن في حاجة إليه ، فدعنا نتكلم في أشياء أخرى .

فأجابه التاجر في بشاشة ومرح كبيرين :

وهكذا تجدني في حاجة قصوى الى مثل هذا الشاب الذكي ، وياحبذا

لو كان يقرأ ويكتب . .

فأجابه وانج لنج في ازدهاء : ان كلا الولدين متعلمان تعليما لا بأس به .

فقال له ليو : ان هذا يدعو الى الاغتياب . . فدعه يأتى الى

حينما يشاء .

ونفض بعد ذلك وانج لنج ، وقد انفرجت أساريره بشرا وحبورا

وقال مخاطبا صديقه : اننا الآن صديقان أفليس لديك ولد لأزوجه

ابنتي ؟

وضحك التاجر ملء أعطافه ، إذ كان رجلاً بديناً ، تبدو عليه آثار
النعمة ، وقال له : عندى ابن ثان ، يبلغ من العمر عشرة أعوام ، ولم
أخطب له بعد ، فكم عمر إبتك ؟
وضحك وانج لنج مرة أخرى ، وقال له : ستبلغ العاشرة فى عيد
ميلادها القادم ، وإنها كالزهرة اليانعة نضارة وجمالاً .

وضحك الرجلان سوياً ، ولم يزد وانج لنج على ذلك شيئاً ، إذ كان
هذا الموضوع بما لا يصح مناقشته سوياً وجهاً لوجه بعد مدار بينهما
من حديث . وانصرف من بيت التاجر مغتبطاً أشد اغتباط ، وعندما
وصل بيته أخذ يتطلع إلى ابنته ، فألفها طفلة فاتنة المحيا ، وقد ربطت
أما قدمها ربطاً محكماً حتى تبدو رشيقة فى خطوها .

ولكن عند ما أمعن وانج لنج نظره فيها عن كثب ، رأى أثار الدموع
فى خديها ، وكان وجهها يبدو شاحباً شحوباً ملحوظاً ، تبسم برزاقه
لا تتناسب مع سنها الصغير فجذبها إليه من يدها الصغيرة ، وقال لها . خبرينى
لماذا كنت تبكين ؟

وتدل رأسها إلى الأرض خجلاً وقالت بما يشبه الهمس : أبكى
لأن أمى تربط قاشاً حول قدمى ربطاً شديداً أكل يوم ولذلك لا أستطيع
أن أنام ليلاً .

فقال لها متعجباً : ، سمعتك تبكين .. فأجابته فى بساطه : كلا .. فإن
أمى أمرتى ألا أبكى بصوت عالٍ لأنك شقوق ، رقيق الفؤاد ، تألم
لألى ، وقد تأمرها أن تتركنى وشأنى ، وحيث لن يجبنى زوجى ، مثلاً
تفعل معها ، أى لاتحبها .

وعندما سمع وانج لنج هذا الكلام ، أحس كأن خنجرأ قد طعنه
لأن أولان قد أخبرت طفلتها أنه لايجبها ، وهي أمها : فقال لها على الفور:
حسنا لقد سمعت اليوم عن زوج جميل لك وسنرى لك إذا كانت كوكو
تستطيع أن تدبر هذا الموضوع .

فأبتسمت الطفلة ، وأسقطت رأسها إلى الأرض ، وقال وانج لنج لكوكو
في تلك الأامسية : إذهي ، وحاولي أن تسمى هذا الأمر .

ولكنه استيقظ في تلك الليلة ، وبدأ يفكر في أولان ، وكيف
أنها كانت خادمة مخصصة له ، وقلب فكره فيما قالته له الطفلة ، وملاؤه
الحزن ، لأنه على الرغم من غموضها فإن أولان أستطاعت أن تتغلغل
في أعوار نفسه ، فرأتها على حقيقتها .

ولأول مرة بعد عيشته الطويلة كل هذه الأعوام بدأ وانج لنج يفكر
في أولان ؛ وبدأ ينظر إليها في حزن دفين ، ورأى أن جسمها قد بدأ
هزيبلا ، وأن جلدها قد أصبح متصلباً أصفر ولم يكن يفكر من قبل
في سبب رغبتها الشديدة في الاستقرار دائماً في البيت لا تبارحه وسبب
تجوالها في البيت في بطة شديد ولكنة بدأ يتذكر الآن - بعد أن ركز
تفكيره في زوجته أولان - أنها كانت في بعض الأحيان تن وتوجع
في الصباح كلما استيقظت من نومها ، وكما انحنت على الفرن تضع فيه
الوقود ، وكما نظر إليها ، وإلى الإبتفاح الشديد في جسمها كما امتلأ قلبه
بالحزن ، وأخذ يجادل نفسه ، قائلاً : إنها ليست غلطى إذا كنت لم أحبا
ثم يعود ليطمئن نفسه قائلاً : إتنى لم أضربها ، ولقد أعطيتها فضة
كلما طلبتها منى .

بيد أن وانج لنج لم يستطع أن ينسى ما قالت له الطفلة ، وظل يطيل
البنظر إليها كلما أحضرت له الطعام وكلما جالت في البيت ، وفي ذات مرة
عندما انحنى لتكنس أرضية الغرفة المصنوعة من الطوب بعد أن تناولوا
طعامهم ، لمح وجهها وقد استحال إلى لون رمادى أغبر ؛ وقد وخطه ألم
ألم دفين ، ثم أخذت تلهث لهثات متتابعة بطيئة خافتة فسألها في خشونة
قائلا : ماذا بك ؟

ولكنها أشاحت بوجهها ، وأجابته بوداعة : إنه المرض القديم
الذى أصابني في أحشائي .

ثم ظل يحمق فيها ، ثم قال لفتاته الصغرى : خذى المكنسة من أمك
واكنسى بدلا منها فهى مريضة .

ثم قال لأولان بعطف لم تعده فيه منذ سنين : ارقدى فى سريرك ،
وسأمر البنت أن تأتيك بماء ساخن .

فأطاعت وذهبت إلى سريرها صامتة ، وأخذت تن أنات خافته ؛
ثم جلس يستمع إلى أنينها حتى لم يعد يحتمل سماعه فقام وقصد إلى المدينة
ليسال عن طيب . .

وكان الطيب جالسا بلاعمل يحتسى كوب شاي ، ولما ذكر له وانج
لنج أعراض المرض الذى تقاسى منه زوجته ، فتح درجا وأخرج لفافة
من القماش الأسود وقال له : الآن أذهب معك .

ولما وصلا إلى البيت ، وجدا أولان قد غلبها النعاس ، وكانت حبات
العرق كقطرات الندى تلعب فوق شفثها العليا وجهتها ، وهز الطيب
رأسه عندما رآها ثم قال : إنها لحالة عصبية ، فإذا أردت منى أن أعالجها

من غير أن أضمن الشفاء ، فسأعطيك وصفة من اعشاب ثم يعليها جميعا
ثم تشرب منقوعها، ولكن إذا أردت لها شفاء تاما مضمونا ، فإني أطلبك
بخمسةائة قطعة فضية .

وعندما سمعت أولان هذه الكلمات ، خمسمائة قطعة فضية ، استيقظت
فيجأة من نعاسها ، وقالت في ضعف :

كلا إن حياتي لاتساوي كثيراً هكذا . . إن قطعة أرض كبيرة
يمكن شراؤها بهذا المبلغ الكبير .

ولما سمعها وانج لنج تقول هذا ، عاوده حزنه القديم ، وأجابها في
وجشية : لا أريد موتا في بيتي ، بل يمكنني دفع هذه الفضة .

وعندما سمعه الطبيب ، لمعت عيناه ، ولاحظ فيها علامات الطمع الشديد
ولكنه خاف عقوبة القانون إذا لم يف بوعده . وماتت المرأة
ولذلك قال :

كلا . . إنى إذا نظرت إلى يياض عينها أراني قد أخطأت - لا بد لي
من خمسة آلاف قطعة فضية لأضمن لك شفاءها التام .

فنظر وانج لنج الى الطبيب في صمت وحزن وأدرك ما يقصده ؛ انه
لا يملك مثل هذا القدر من الفضة وكان يعلم انه حتى لو باع أرضه ، فلا
فائدة ترجى من ذلك حيث ان الطبيب قد قال في بساطة : (ان المرأة
ستموت)

وخرج مع الطبيب ، ودفع له عشر قطع فضية ، ولما ذهب دخل
وانج لنج المطبخ المظلم الذى قضت اولان معظم وقتها فيه ، ثم ادار وجهه
نحو الحائط الأسود واخذ يبكي . .

الفصل السادس والعشرون

بيد أنه لم يكن هناك موت مفاجيء لحياة أولان ؛ ففي كل أشهر الشتاء الطويلة كانت ترقد فوق فراشها . تجود بروحها ، ولأول مرة ، أدرك وانج لنج وأبناؤه أنها كانت عماد حياتهم في البيت ، وأنها كانت مصدر راحتهم جميعاً ولم يكونوا مقدرين لهذا . . .

وبدا كأن أحدآ لا يعرف الآن كيف يشعل الخطب ، ويبقى عليه مشتعلا داخل الفرن ، ولا أحد يعرف عما إذا كان زيت السمسم أو زيت القرطم يصلح لطهى هذا الخضار أو ذلك ، وكان الفتات ، وبقايا الطعام ، يتساقط ويظل أسفل المائدة من غير أن يكتسه أحد ، حتى يصبح وانج لنج ضجرآ من رائحته ، فينادى كلبآ من الفناء ليلحق هذا الطعام ويلتهمه ، أو يصبح على صغرى بناته لتقذف به إلى الخارج ..

وكان الصبي الأصغر يعمل هذا أو ذلك ليلآ فراغ أمه في خدمة جده الذى أصبح عاجزآ عن أداء أى عمل بنفسه كالطفل الصغير ، ولم يستطع وانج لنج أن يجعل الشيخ يدرك ما حدث لزوجته أولان ، أو يفسر له لماذا لم تعد تحضر له الشاي ، والماء الساخن ، ولكن وانج لنج اقتاد والده إلى غرفة أولان وأراه إياها وهي راقدة على فراشها ، فبكى الشيخ لأنه أدرك إدراكآ طفيفآ أنها ليست على ما يرام ...

أما البنت البلهاء المسكينة فلم تكن لتدرك شيئآ إذ كانت تبتسم وتلوى قطعة من القماش في نفس الوقت ، وكان لا بد لشخص ما أن يفكر

في إحضارها إلى فراشها بالليل ، وليقوم بإطعامها وإجلاسها في الشمس ،
أو يقودها داخل المنزل إذا أمطرت السماء .

إن تذكر كل هذا كان أمراً مفروضاً على واحد من أفراد العائلة، ولكن
وانج لنج نفسه كان ينسى واجبه نحو الفتاة ، ولقد حدث ذات مرة
أن تركها الجميع بالخارج ليلة كاملة ، مما جعل وانج لنج يغضب على ولده
وابنته لأنهما نسيا أختهما المسكينة البلاء ، ولكنه أدرك أنهما لا زالوا
طفلين يحاولان أن يأخذا مكان أمهما ، وأنه ليس في مقدورهما القيام
بعملها .. وبعد هذا الحادث رأى وانج انج أن يرعى ابنته المسكينة بنفسه
ليلاً ونهاراً ...

لم يلتفت مطلقاً وانج لنج إلى العناية بأرضه في خلال أشهر الشتاء
الحالكة عندما كانت زوجته راقدة تعاني الموت فأحال جميع أعمال فصل
الشتاء ، ومراقبة العمال إلى تشنج الذي كان يؤدي واجبه بأمانة ، وكان
يخضر مساءً وصباحاً إلى باب الغرفة التي ترقد بداخلها أولان مستفسراً
هن صحتها ، وفي النهاية لم يستطع وانج لنج أن يتحمل مرض زوجته لأنها
لم تتماثل للشفاء ، ولهذا طلب من تشنج . ألا يسأل عن صحتها أكثر من
ذلك ، وأمره أن يقوم بعمله على الوجه الأكمل ، وهذا ما فيه
الكفاية ..

وكان وانج لنج في خلال فترة الشتاء المظلمة القارسة يجلس غالباً
بجوار فراش زوجته فإذا وجد الجو بارداً أشعل الفحم في مدفأة من
الحزف لتدفأ ، وكانت في كل مرة تتمم بضعف قائلة :
حسناً . ولكن هذا يكلفك أكثر من اللازم .. وأخيراً عندما
قالت ذلك يوماً لم يبق في قوس صبره منزع ، فانفجر قائلاً :

هذا كلام لا يمكننى احتماله ! إني لأرغب في أن أبيع كل أرضى لو
أمكننى شفائك بها ..

فابتسمت له وقالت هامسة : كلا .. لن أدعك تفعل ذلك لأنى حتما
سأموت على أية حال .. ولكن الأرض تبقى من بعدى ..

ولكنه لن يدعها تتكلم عن موتها ولذلك نهض وانصرف عندما
بدأت تذكر الموت ، ومع هذا كان موقناً أنها ستموت ، ولذلك كان
عليه ألا يغفل عن واجبه ، فتوجه يوماً إلى المدينة ، وذهب إلى صانع
توابيت ، وأخذ يتفرس في كل تابوت معد للشراء ، واختار تابوتاً جيداً
أسود من الخشب الثقيل الجامد .. ثم قال له النجار الذى كان بجواره
ينتظره حتى يختار التابوت : إذا اشتريت اثنين معاً فإن ذلك يكون أرخص
بنسبة الثلث عما لو اشتريت اثنين مفردين .. ولماذا لا تشتري تابوتاً لنفسك
أيضاً فتطمئن على أنك قد أعددت لنفسك عدتها ؟

فأجابه وانج لنج : كلا ! سيقوم أولادى بهذه المهمة لى حين أموت !
ثم فكر فى والده العجوز فقال ثانية : ولكن هناك والدى العجوز
وسيموت يوماً ما فى القريب ، ولهذا فسأشتري التابوتين ..

ثم وعده الرجل أن يطلى التابوتين بدهان أسود جيد ، ويرسلهما إلى
منزله وعند عودته أخبر أولان بما فعله فسرت لأنه قد أعد ما يلزم لموتها ..
وكان غالباً ما يجلس وانج لنج ساعات عديدة كل يوم ولا يبادلها سوى
كلمات قصار نظراً لضعفها ؛ وبذلك لم يكن هناك بينهما ثمة حديث ..
وغالباً ما كانت تفقد وعيها ، ولا تعرف أين تكون ، وأحياناً أخرى كانت

تستم عن أيام طفولتها ، وبذلك عرف وانج لنج لأول مرة ما بقلها من ثنايا الكلمات القصار هذه :

« سأحضر الأظعمة إلى الباب فقط وإنه لمن الخير أن أعرف أنني قبيحة المنظر ولا يمكنني الظهور أمام السيد العظيم . . . » مرة ثانية قالت لاهثة : « لا تضربيني . لن آكل من الطبق مرة ثانية ، وسمعتها مرات تقول دحسنا أعرف إنني قبيحة المنظر ولا أحد يمكنه أن يجني ،

عندما قالت ذلك لم يستطع وانج لنج أن يتحمل هذا الكلام فأمسك بيدها . . ولكنه عندما أمسك بتلك اليد المتصلبة الميتة لم يكن يجبها من قلبه . ولهذا السبب كان أكثر عطفًا وشفقة على زوجته وجلب لها طعاما خاصا ومهما كان من عمل يشغله فانه لم يستطع نسيان أولان ، وأحيانا كانت أولان تفتيق من غيوبتها وتنبه لما حولها ، وقد طلبت كوكو ذات مرة ونادها وانج لنج ، ولما حضرت استندت أولان على ذراعها وهي ترتعش ، ثم قالت في وضوح تام : لقد عشت أنت في جناح السيد الكبير وكانوا يعدونك حسناء ولكن أنا كنت زوجة لرجل ، وقد ولدت له أولاداً ، وأنت لا تزالين جارية . . . وعندما أرادت كوكو أن ترد عليها بغضب قادها وانج لنج إلى الخارج قائلاً لها :

إن هذه المريضة لا تعرف ما تقصد بكلامها الآن . . .

وعندما رجع إلى الغرفة قالت له أولان :

بعد موتى لا تأتي هذه الجارية ولا سيدتها إلى غرفتي ولا يمسأ شيئاً من حاجياتي . وإن فعلا ذلك فانتى أعيد روجي ثانية حاملة معها اللعنة

ثم غرقت في نومتها المنقطعة وقد سقطت رأسها على الوسادة .
ولكن بيوم واحد قبل انبثاق العام الجديد . تحسنت فجأة أولان
وجلست على السرير وطلبت شايًا تشربه . وعندما حضر وانج لنج
قالت له :

الآن يقترب العام الجديد ولا يوجد كعك بالمنزل ولا أطعمة جاهزة
ولقد فكرت في شيء ما . فاني لا أريد أن تكون هذه الجارية بمطبخي
ولكنني أرغب أن ترسل في طلب عروس ابني ، خطيبة الابن الأكبر
فاني لم أرها حتى الآن ، وعندما تحضر ، فأسا خبرها بما ينبغي أن عمله ...
سر وانج لنج لأن زوجته استعادت قوتها على الرغم من أنه لم يحفل
بأعياد هذا العام .

وأرسل كوكو إلى تاجر الحبوب .. ليو وبعد برهة من الوقت وافق
ليو على هذا الطلب عندما علم أن أولان ربما لا تعيش طول فترة الشتاء
وعلى كل حال فابنته لها من العمر ستة عشر ربيعًا وهي أكبر من بعض
زميلاتنا اللاتي يذهبن إلى بيوت أزواجهن .

ولكن بسبب حالة أولان لم تكن هناك مآدب وولاتم؛ فالصبيّة
العذراء أتت بدون جلبه على محفة ، غير أن أمها وخدام عجوز حضرا
معها ، وعادت أمها بعد أن تركت ابنتها مع أولان ولكن الخادمة مكثت
لخدمة سيدتها الصبيّة .

لم يتكلم وانج لنج مع الفتاة العذراء لأن ذلك لم يكن من اللائق
ولكنه كان مسرورًا منها لأنها كانت تعرف واجبها ، وكانت تتحرك
بهدهوء داخل المنزل وعيناها منسبلتان ، وكانت على قدر من الجمال ولكنها

لم تكن جميلة جمالا فاقما يجلب لها الغرور ، وكانت سليمة في كل سلوكها فكانت تذهب إلى حجرة أولان وترعاها ، وهذا ما أراح وانج لنج من آلامه نحو زوجته لأنه أصبح هناك سيدة بجوار فراشها ، كما أن أولان كانت راضية .

رضيت أولان لثلاثة أيام أو أكثر ، ثم فكرت في شيء آخر وقالت لزوجها :

هناك شيء آخر قبل أن أموت ..

فأجابها وانج لنج غاضبا لهذا القول :

لا يمكن أن تتكلمي عن الموت وتجلي لي السرور ...
فلبتسمت عندئذ برفق وأجابته :

لا بد من موتي لأنني أشعر بالموت في أعضاء جسمي الداخلية ، ولكنني لن أموت قبل أن يعود ابني الأكبر إلى المنزل وقبل أن يتزوج هذه الصبية العذراء الفاتنة عروسه ، إنني أحب له أن يتزوج هذه الفتاة كي أموت راضية مرضية !

ولم يشأ وانج لنج معارضة زوجته ولو أنه رغب وقتا أطول استعدادا لزواج عظيم لابنه الأكبر .
ولكنه قال لها :

حسنا . لنلي لك هذا الطلب وسأرسل اليوم رجلا إلى الجنوب ليبحث عن نجلي ويأتي به إلى المنزل لزوجه وأن عليك وعداً هو ألا تذكري الموت وأن تجدي صحتك لأن المنزل بدونك صار كوكرا للحيوانات . ١

قال ذلك ليرفح عنها وقد سرها ذلك القول على الرغم من أنها لم تتكلم

مرة أخرى بل رقدت ثانية، وأغمضت عينيها مبتسمة قليلا .
وأرسل وانج لنج رسولا ليحضر له ابنه وأمر كوكو أن تجهز مائدة
على أحسن طريقة يمكنها القيام بها بما دفعها أن تستدعي طباطخين من
حانوت الشاي بالمدينة لمساعدتها وقال لها :
جهزي المائدة كما كانت تجهز بالمنزل الكبير في مثل هذه المناسبات
ولك فضة وفيرة

ثم ذهب إلى الغرفة ودعا كل من يعرف ثم توجه إلى المدينة وقام
بدعوة جميع معارفه . وقال لعمه :

أدع من شئت بمناسبة زواج ابني . .

كان وانج لنج ودوداً لعمه ويعامله كضيف عظيم وقد فعل ذلك
منذ اللحظة التي عرف فيها عمه على حقيقته، وفي الليلة السابقة لهذا الزواج
جاء الإبن الأكبر لوانج لنج فنسى والده كل المشاكل التي سببها له ابنه
الشاب عندما حضر إلى المنزل لأنه غاب عنه أكثر من عامين ولم يعد ابنه
صبياً ولكنه أصبح رجلاً فارح القوام وسيم الحيا ، وإقتاد ابنه إلى أمه .
جلس الشاب بجانب فراش أمه وقد تحجرت الدموع في مقلتيه عندما
رأى ما آلت إليه صحة أمه ، وقالت أولان في بساطة :

يجب أن أراك تزف ثم أموت

كان على الصبية العذراء التي ستزف الأيراها خطيبها الآن . فأخذتها لوتس
إلى الفناء الداخلي استعداداً للزواج ولا أحد يمكنه أن يفعل أفضل مما فعله .
لوتس وكوكو وزوجة عم وانج لنج اللاتي أخذن الصبية في صباح يوم
زفافها أشرفن على استحمامها وتنظيف جسمها من أخمص قدميها إلى قمة رأسها
وربطن قدميها من جديد بأقشة جديدة بيضاء أسفل جواربها الجديدة .

ثم ألبسوها ملابسها الجديدة التي جلبتها معها من منزلها ثم بعد ذلك لبست الملابس الحمراء المعدة للزواج والمصنوعة من الحرير (والساتان) الأحمر، ثم سوين جبينها ليكون لامعا مريحا، ثم وضعن مسحوقاً أبيض وطلاء أحمر على وجهها، ثم وضعن على رأسها تاج العروس، وعلى وجهها قناعاً ذا خرز، وألبسها حذاء مركزشاً وصبغن أطراف أصابعها وعطرن كفيها، وكانت الفتاة مستسلمة لمن في خضر مناسب لها ولسها .
وحينذاك كان وانج لنج، وعمه، وأبوه والمدعون ينتظرون في الغرفة الوسطى وحلت الفتاة بينهم تعتمد في سيرها على جاريتها الخاصة وزوجة عم وانج لنج، منكسة رأسها إلى أسفل حياء كأنما لا تريد أن تتزوج؛ وسر لذلك وانج لنج، وأطمأنت نفسه على أنها عذراء توائم روح ابنه

وجاء بعد ذلك الإبن الأكبر لوانج لنج مرتدياً ثوبه الأحمر، وحلته السوداء؛ وكان شعره لامعا . وذقنه مخلوقا، وسار خلفه شقيقاه، وقال وانج لنج لنفسه لو أن زوجته قد صحبت من نومها، وغادرت فراشها، وشاهدت أبنائها، لكان يوماً مرحاً سعيداً .

ورأى وانج أن ابنه الشاب يسترق النظرات إلى العذراء، فازداد مرحة وقال يخاطب نفسه في ازدهاء : حسنا . لقد اخترت له واحدة يجبها لنفسه .

ثم انحنى الشاب والفتاة سوياً للجد ثم لوانج لنج، ثم ذهبا إلى غرفة أولان حيث كانت راقدة في سريرها، وكانت قد طلبت منهم أن يلبسوها ثوبها الأسود حين جاء إليها، وذهبا توألسها، ثم انحنيا أمامها ثم ربتت يدها على فراشها وقالت لها :



... ثم وضعن على رأسها تاج العروس ..

أجلسا هنا واشربا النبيذ ، وكلا من أرز الزفاف ، فإني سأتمتع
بمشاهدة زواجكما مادمت سأتهدى بعده وأحمل إلى مشواى .

ولم يجيبها أحد على قولها ، ولكن جلس الإثنان بجوار بعضهما
البعض ، وكلاهما فى خجل من صاحبه ، ولاذا بالصمت ، وجاءت زوجة
عم وانج لنج بجسمها البدين ، وشخصيتها القوية ، تحمل وعائين من النبيذ
الساخن ، فشرب كل منهما من كأسه ثم مزجا نبيذاً لعائين ، ثم شرباه
وأكل كلاهما من الأرز ، ثم خلطاه سويًا . وهكذا تم زواجهما ، ثم انحنيا
مرة أخرى لأولان ، ثم لوانج لنج ، وبعد ذلك انصرفا سويًا وانحنيا
لجميع الضيوف .

واكتظت الغرف بالموائد وفاحت فيها رائحة الطعام ، ورنت فى
جنباتها الضحكات ، لأن المدعوين كانوا لأحصر لهم ، جاءوا من كل
فج عميق .

وكانت كوكو قد أحضرت الطهاة من المدينة ليعدوا الطعام للوليمة ،
فأكل الجميع هنيئًا ، وشربوا مرثًا ، وقد سرى فى نفوسهم المرح
والسرور .

وشاءت أولان أن تترك الأبواب مفتوحة ، والستائر مرفوعة ،
حتى يمكنها أن تسمع الضججة والضحك ، وتشم رائحة الطعام ، وكلما جاءها
وانج لنج يسألها عن صحتها ، قالت له أن كل شىء يسير على هواها ، وأنها
قريرة النفس ، وهى راقدة تصنى إليهم .

ثم انتهت المأدبة ، وانصرف المدعوون ، وأرخصى الليل سدوله ، وشمل
أولان الضعف والإعياء ، ونادت على ولدها وعروسه اللذين تزوجا فى
تلك الليلة ، وخاطبتهم قائلة : إتنى الآن راضية مسرورة ، وليفعل بى

مرضى مايفعل، فيابني إعتن بوالدك وجدك ، وأنت يابنتي إعتني بزوجك
ووالده وأبيه الشيخ ، ويابنتي البلهاء الجالسة في الفناء ؛ فهذا هو واجبكما
نحو هؤلاء ولا أحد سواهم .

وكانت تعنى بهذه الجملة الأخيرة لوتس ، التي لم تتحدثها مطلقا ، ثم
كأتما نسيتمهم جميعا ، ورقدت تتمم .

ثم صرفهم وانج لنج جميعا من غرفتها ، وجلس بجوارها ، وهي تنام
حيناً وتستيقظ حيناً آخر . . . وظل ينظر إليها وفتحت عينها وهي تنظر
إليه ، واتسعت حدقتها ، وأخذت تحملق فيه ، ولا ترفع عينها منه
وكأتما تسأل نفسها في دهشة من يكون ، وفجأة سقط رأسها على الوسادة
المستديرة ، وفاضت روحها إلى بارئها !

وما أن رقدت ميتة ، حتى بدا على وانج لنج أنه لا يستطيع أن يتحمل
البقاء بجوارها ، ولكي يواسي نفسه ، انشغل بالذهاب إلى المدينة
لينادي على رجال ليختموا التابوت ، ووجد أن اليوم الملائم لنفنها هو
اليوم الأول بعد ثلاثة أشهر من موتها، ولذلك ذهب إلى المعبد في المدينة،
وساوم رئيس الكهنة هنالك، واستأجر مكانا ليضع فيه التابوت حتى تمر
الأشهر الثلاث لنفنها بعد ذلك . . . ثم فرض وانج لنج مراسم الحداد على
نفسه ، وأطفاله ، فجعلهم يرتدون أحذية من قماش أبيض خشن ، وهو
اللون المناسب للحداد ، كما جعلهم يربطون حول رؤسهم قطعة من القماش
الأبيض ، وجعل النساء في البيت يعقدن شعرهن بشرائط أبيض !

وكان شبح الموت قد نجيم على البيت لا يريد أن يفارقه ، فحدث ذات
ليلة أن كان والد وانج لنج كان ممدداً في فراشه أثناء نومه وعندما دخلت
الابنة الثانية في الصباح لتحمل له الشاي، وجدته ممدداً بلا حراك، ورأسه

ملقاة على الوسادة ، ولا حياة فيه .. فصرخت من هول ما رأت ، وجرت
وهي تبكي وتولول إلى أبيها ، وهرع إليه ابنه وانج لنج ، فوجد أباه ميتا ،
وبعد ذلك غسل جسد أبيه بنفسه ، وأرقده في حنو وحنان في تابوته
الذي كان قد اشتراه له من قبل ، ثم ختمه وقال لنفسه :

سندفن الجثتين في يوم واحد ، وسنشيعهما إلى مرقدهما الأخير سويا ،
وسأختار قطعة أرض فوق التل حيث أواريهما التراب ، وعندما أموت
سأدفن معهما كذلك ..

وهكذا أخذ ينفذ ، ما وعد به ، فبعد أن ختم تابوت والده ، وضعه
فوق دكتين بالغرقة الوسطى ، حيث ظل في مكانه هذا إلى أن حان يوم
الدفن .. وكان يوماً من أيام الريح ، واستدعى وانج لنج القساوسة
من المعبد ، وظلوا يدقون الطبول ، ويرتلون الليل بأكله رحمة بهذين
الذين ودعا الحياة .

وبعد أن انتهى رجال الدين من ترتيبهم ليلا . ارتدى وانج لنج رداء
أبيض خشن ، وأعطى واحداً مثله لكل من عمه ، وابن عمه ، وولديه
وزوجة ولده ، وابنتيه ، وطلب كراسي من المدينة لحملهم فوقها ، وهكذا
ركب لأول مرة في حياته على أكتاف الرجال وسار خلفه تابوت زوجته
أولان ، وسار عمه أمام تابوت والده ، وحتى لو تس التي لم تكن لتظهر
أمام أولان أثناء حياتها سارت الآن أمام تابوتها محمولة على كرسي حتى
يبدو أمام الآخرين أنها قد أدت واجبها للزوجة الأولى لرجلها .

وشقوا طريقهم إلى المقابر وهم يبكون وينتجون ، وكان العمال
وتشج قد سبقوهم وهم يرتدون أحذيتهم البيضاء ، ولم يستطع تشنج

أن يصرخ كما يفعل الآخرون ، ولم تتساقط الدموع من عينيه ، بل كان حزنه صامتا، ولما أهيل التراب فوق التابوتين ، وسوى سطح الرمين ، انصرف في صمت ، وأرسل الكرسي الذى وصل به إلى المقبرة ، وعاد أدراجه إلى بيته وحيداً كثيباً ، ومن خلال السكون والثبات المسيطرين عليه برزت له فكرة جليلة : أنه كان يتمنى ألا يأخذ اللؤلؤتين من أولان بينما كانت جالسة تغسل ملابسه عند حافة البركة ، وألا يرى بعد ذلك لوتس وهي تحلى أذنها بهما ..

وهكذا أخذ طريقه إلى البيت والهموم تثقل قلبه ، واستمر في سيره وحيداً ، مخاطباً نفسه : هنالك يرقد نصف حياتى العزيزة ، بل النصف الأفضل والأنبيل ..

ثم فجأة انهمرت دموعه فترة قصيرة ، ثم جفف عينيه بظهر يده ، كما يفعل طفل ...

الفصل السابع والعشرون

في خلال تلك الفترة كلها كان وانج لنج لا يكاد يفكر فيما ستنتجه أرضه من غلة فقد كان منهمكا أشد انهماك في ولائم الزفاف، ثم في مراسم دفن زوجته ووالده، إلا أن تشنج جاءه يوما وقال له: الآن وقد انقضت الأفراح والآراح، عندي ما أقوله لك بخصوص الأرض ..

فأجابه وانج لنج: قل ما تريد .. فأنا لم أفكر فيما إذا كنت أمتلك أرضا أم لا في تلك الأيام السالفة، لم أفكر في شيء سوى دفن موتاي .. وصمت تشنج برهة احتراما لوانج لنج وهو يتحدث حديثه الحزين . ثم قال له في رقة: نسأل الله أن يجنبنا المكروه، فإن هذا العام يبدو فيه الفيضان مختلفا تمام الاختلاف عن كل عام مضى . فالماء يطغى على الأرض مع أن الصيف لم يحن بعد، وما زال الوقت مبكرا جدا للفيضان .

وذهب وانج لنج إلى أرضه، ورأى صدق ما قاله تشنج، وكانت مساحات الأرض المجاورة للخندق مبللة كما لو كان الماء ينبثق من باطنها حتى استحال القمح الذي على سطح الأرض ذاوبا أصفر .

كان الخندق يبدو كالبحيرة، والقنوات كأنها أنهار، حتى أن الإنسان الساذج ليستطيع أن يتنبأ على الرغم من عدم هطول الأمطار، أن الفيضان سيكون عاتبا عاليا، وأخذ وانج لنج يجرى سريعا في اتجاه أرضه، وسار خلفه تشنج وهو ينظر إلى القنوات المترعة بالماء، حتى حافة جسورها .

وحدث أن اجتاحت مياه النهر سداً إثر سد، حتى لم يستطع أحد أن يحدد في أي مكان كانت السدود قائمة في ذلك الريف بأكله وأمتلا النهر

بالماء وفاض ، ثم أخذ عبابه كالبحر يحتاج كل الأرض الزراعية الطيبة ،
وظفت المياه على سطح نبت القمح والأرز الصغير فبدا كأنهما غارقان
في قاع البحر .

وأخذت القرى الواحدة تلو الأخرى تتحول إلى جزر ، وأخذ
الرجال يراقبون المياه وهي تعلو وترتفع ، وعندما أوشكت على أن
تصل إلى أبواب بيوتهم بمقدار قدمين ، ربطوا مناظدهم وأسرتهم سويًا
ووضعوا أبواب بيوتهم فوقها لتكون كعوامات ؛ وكدسوا ما استطاعوا
من فراشهم وملابسهم ونسائهم وأطفالهم فوق هذه العوامات ، وظفت
المياه على البيوت المبنية من الطين فيدست حيطانها . وتشققت وانفجرت
وذابت في الماء، وهكذا أصبحت هذه البيوت أثرًا بعد عين .

وجلس وانح لنج أمام باب بيته ، وأخذ يتطلع إلى المياه التي مازالت
بعيدة عن بيته الذي كان مشيداً على ربوة عالية متسعة ، يبد أنه رأى
هذه المياه وقد غطت أرضه ، وأخذ قلبه يرتجف وهو يراقبها خشية أن
تغرق القبور الحديدية الصنع ، إلا أنها لم تصبها بسوء بعد ، على الرغم من
أن الأمواج الصفراء كانت تمتد حول الموقى في نهم .

وكان ذلك العام خالياً من المحاصيل من أى نوع . وكان الناس
يتضورون جوعاً في كل مكان وقد استبد بهم الغضب لما لحقهم من جديد
قذوب بعضهم جنوباً ، أما هؤلاء الشجعان الذين ملأهم الغضب ، والذين
لا يعبأون بشيء لما يفعلون ، انضموا إلى عصابات من اللصوص المنتشرة
في كل مكان في أرجاء الريف .

وأدرك وانح لنج أن مجاعة لم يرها مثلاً سوف تحتاج الأرض حيث
أن المطر لم يسقط في ميغاده لزراع القمح لفصل الشتاء ولذلك لن تجود
الأرض بالمحصول للعام القادم .

ولم يرض وانح لنج أن يبيع أو يشتري شيئاً بعد حلول الشتاء إلا أمر به واحتفظ بكل شيء في حوزته في رعاية وعناية . . وكان كل يوم يعطى زوجة ابنة ما يلزم من طعام لبيته ولنشجع ما ينبغي أن يحصل عليه عماله ، على الرغم من أنه كان يتألم لأن يعطى رجلاً عاطلين ، وحينما حل فصل الشتاء القارس وتجمدت المياه . أمر رجاله أن يذهبوا إلى الجنوب ليستجدوا ما يسد رمقهم ، أو يعملون حتى يمكنهم العودة إليه في الربيع . وكان يعطى لوتس فقط السكر والزيت سرأ لأنها لم تتعود على حياة الشظف والخشونة .

ولم يكن وانح فقيراً ؛ وإن تظاهر بالفقر ، فإنه كان يكتنز فضة مخبوءة لديه ، وبعض الذهب قد أخبأه في قدر دفنها تحت أرض أقرب حقوله بجوار سفح البركة ، وكان قد اختزن حبوباً من العام الماضي لم يبعها في السوق ، وعلى ذلك لم يهدده شبح الموت جوعاً في بيته .

وكان الناس حولهم يموتون جوعاً ، وتذكر صرخات الجائعين أمام بوابة البيت العظيم حيناً مر بها يوماً ، وكان يعلم أن هناك كثير من الناس يكرهونه أشد الكراهية ، لأنه كان لا يزال يجد له طعاماً له ولأولاده . ولذلك ظلت أبواب بيته مغلقة .

ومع ذلك كان يدرك تمام الإدراك أنه لن يكون في مأمن في أوقات قد انتشرت فيها اللصوص ما لم يعتمد على عمه الذي أنقذه من شرهم . ولذلك كان مهذباً في معاملة عمه وزوجته وابنته ، وبقى الثلاثة في بيته يكرم وفادتهم كأنهم ضيوف .

ومع أن وانح لنج قد أدرك أن عمه قد كبر وأصبح كئيباً مهملًا يضمره أن يشكو إذا ماترك وحيداً فإن ابن عمه الشاب وأمه

كانا بزعمنا إذ سمعنا يوماً وهو واقف عند الباب يقولان لعمه العجوز:
حسناً... إنه يمتلك المال والطعام، فدعنا نسأله أن يأتينا فضة... ثم
استطردت المرأة تقول: إننا لن نحصل على منال عزيز كهذا لأنه يعرف
لولاك وأنت عمه، لسرق ولترك بيته حاوي الوفاض حيث أنك تأتي في
المركز التالي بعد رئيس عصاة اللحي الحمراء.

وكان وانج لنج واقفا يسترق السمع خلسة، فعندما سمع كلامها تملكه
الغضب حتى كاد ينفجر غيظاً، إلا أنه لاذ بالصمت حتى يدبر ما يستطيع
أن يفعله حيال هؤلاء الأفراد الثلاث، إلا أن تفكيره لم يهده إلى شيء
وفي اليوم التالي جاءه عمه من أجل الفضة، وقبل أن ينقضي يومان، جاءه
مرة ثانية، وثالثة، يطلب فضة، وصرخ فيه وانج لنج أخيراً قائلاً:
حسناً أترانا سنعاني مرارة الجوع مرة أخرى؟..

فضحك عمه، وقال له في إهمال: إنك لسعيد الطالع، فهناك رجال
أقل منك ثراء قد علقوا بعروق سقوفهم المحترقة.

ولما سمع وانج لنج ذلك، تصبب العرق البارد من جبينه، وأعطى
عمه الفضة دون أن ينبت بينت شفة، وهكذا على الرغم من أن أياها كانت
تمر عليهم دون أن يأكلوا لحماً فإن هؤلاء الثلاثة كان يجب أن يقدم لهم
اللحم ومع أن وانج لنج كان قلباً يدخن التبغ، فإن عمه كان ينفث
دخان غليونه بلا انقطاع.. ١١

ومنذ أن تزوج ابن وانج لنج الأكبر، كان قلباً يرى ما يحدث
حواله، وكان يجعل زوجته تختفي عن الأنظار غيرة من نظرات ابن عمه
وهكذا أصبحت عدوين بدلاً من صديقين وكان وانج لنج نادراً
ما يسمح لزوجته أن تتحرك من غرفتها إلا في المساء، عندما يخرج ابن عمه

مع أيه وكان كلما رأى ثلاثتهم يفعلون ما يشاءون بأيه . كان يغضب لذلك ، ويقول لأيه : حسنا .. إذا عطفت على هؤلاء الثلاثة أكثر من عطفتك على ابنتك وزوجته ، أم أحفادك فإن هذا ليبذو غريبا ، ومن الخير لنا أن نؤسس لنا بيتا في مكان آخر ..

وكان وانج لنج يخبره في بساطة مالم يخبر به أحدا سواه : إنى لأبغض ثلاثتهم أشد مما أبغض حياتى ، وإذا ما هدتانى تفكيرى إلى حل ما ، فانى لأتوانى عن اتخاذه، ولكن عمك رئيس عصاة من اللصوص المتوحشين، فإذا ما أطعمته ولاطفته ، شعرنا بالأمن.

وبعد أن سمع الابن الأكبر كلام أيه ظل يحملق فيه ، ولكنه عندما فكر فى كلمات والده ، استبد به الغضب ، وانفجر قائلا : كيف تكون طريقته هذه وسيلة للخلاص منهم ؟ دعنا نقذف بهم جميعا فى الماء ليلة ..

ولكن وانج لنج لا يرضى بالقتل سيلا ولا يستطيعه ، على الرغم من أنه ليفضل قتل عمه على ذبح ثوره ، وهو مع ذلك لا يستطيع أن يقتل أحدا يكرهه وقال لابنه : كلا . حتى ولو كان فى استطاعتى أن أفعل ذلك ، فلن أفعله لأنه لو علم اللصوص الآخرون بقتله ، فإذا ينبغى أن نفعل ؟ فإدام هذا الرجل حيا فنحن فى أمان .

وعندئذ سكت الإثنان ، وكلاهما مغرق فى تفكيره فيما ينبغى أن يفعله ؛ غير أن وانج لنج مالبث قليلا حتى صاح قائلا وهو لا يزال يسرح بفكره : لو وجدنا طريقة نستطيع بها أن نقيم فى بيتنا ، ونجعلهم لا يأذوتنا ، فإلها من فكرة لو صحت ! ولكن لا يوجد سحر كهذا . ا

وصاح الشاب قائلاً : لقد هديتني إلى ما ينبغي عمله ! دعنا نشتري لهم
أفيونا وندعهم يستمتعون به ، أفيونا كثيراً حتى ندعهم يأخذون منه
ما يشاءون كما يفعل الأغنياء ..

ولكن وانج لنج الذي لم تصدر منه هذه الفكرة أولاً ، ظل
متشككاً حيناً ..

قال له في بطنه : إن هذا ليتكلف كثيراً ، فان الأفيون غال
كالحجر الكريم ..

فجادله ابنه قائلاً : حسناً ، إنه لأغلى لدينا وأعز من الحجر الكريم
أن نتركهم ضدنا هكذا .. وأن نترك علاوة على ذلك ، ذلك الشاب
يحتلس النظر إلى زوجتي .

ولكن وانج لم يرض أن يبدى موافقته في بادئ الأمر ، لأنه لم يكن
بالأمر السهل الذي يصح اتخاذه ، إذ يكلفه حقيبة مليئة بالفضة لينفذه .
وكان من المشكوك فيه أن ثمة أمر قد يتخذ ، ما لم يقع له حادث ،
وهو أن ابن عم وانج لنج كان يغازل ابنة وانج الثانية ، والتي كانت
ابنة عمه ، وكشقيقتة بصلة الدم

وكانت هذه الابنة رائعة الجمال ، فانتة المحييا ، وكانت بشرتها ناعمة .
شاحبة كأزهار اللوز ، وكان أنفها دقيقا ، وشفثاها حراوين دقيقتين ،
وكانت قدمها صغيرتين .

وأمنسك بها ابن عمها ذات ليلة وهي بمفردها في الفناء آتية من المطبخ ،
فصرخت مستغيثة ، فجرى إليها وانج لنج وضرب الرجل على رأسه ؛
فضحك ضحكة غليظة ، ثم قال له : إن ما حدث ليس إلا لعب ..
أليست أختالي ؟ .

ولكن وانج لنج جذب الفتاة بعيداً ، وأرسلها إلى غرفتها . وأخبر
وانج لنج ابنه تلك الليلة ما حدث ، وأجابه الشاب قائلاً : يجب أن نرسل
الفتاة إلى المدينة في بيت خطيبها .
ولذلك ذهب وانج لنج في اليوم التالي إلى المدينة ، إلى بيت التاجر ،
حيث قال له :

إن ابنتي قد بلغت الثالثة عشر من عمرها ولم تعد طفلة ، وهي صالحة
الآن للزواج . ولقد ماتت أمها ، وهي بنت رائعة الجمال ، وبيتي مليء
بهذا وذلك ، ولا أستطيع مراقبتها طول الوقت ، وحيث أنها ستكون
فرداً في أسرتك ، فدعها تمسكك لديك .
وأجاب التاجر الشفوق قائلاً :

حسناً . . . دع الفتاة تأتي وسأتحدث مع زوجتي ، ويمكنها أن تحضر
وتبقى في أمان مع حماتها ، وبعد الحصاد التالي ، أو حوالى ذلك الوقت
يمكنها أن تزوج .

وعلى هذا استقر الأمر ، وسر خاطر وانج لنج ، وانصرف .
وفي طريقه إلى البوابة الكائنة في السور حيث كان تشنج ينتظره
في قارب ، مر وانج لنج بحانوت لبيع الطباق والأفيون فدلف إليه ليبتاع
لنفسه قطعة من التبغ ليضعها في زجيجته في المساء ، وعندما أحضرها
البائع على الميزان . قال وانج لنج له في تردد : وما ثمن الأفيون ، إذا
كان لديك منه ؟ فأجابه البائع : إن يبع الأفيون جهاراً محرم قانوناً ،
ونحن نبيعه بهذه الطريقة ، فإذا شئت شراؤه ، وكانت الفضة معك فإنه
يوزن في العرقة خلفنا ، وثمان الأوقية منه قطعة واحدة من الفضة .
ولكن وانج لنج لم يتح لنفسه أن يفكر طويلاً فيما يقوله ، بل إنه
أجاب هلي الفور : سأخذ ستة أوقيات منه .

الفصل الثامن والعشرون

في ذات يوم قال وانج لنج لعمه :
بما أنك شقيق والدي ، فهناك بعض الطباقي الجيد .

فتناولوه معه منه في نهم ، لأن رائحته كانت زكية ، واشترى غليوننا
وبدا يدخن الأفيون ، وهو راقد طيلة النهار ، وأخذ وانج لنج يبحث عنه
على تدخينه ، وكذلك زوجة عمه وابنها ، ولم يعبا وانج لنج بالفضة التي
دفعها ثمنا للأفيون لأنها كانت تجلب له راحة البال . .

ولما انتهى الشتاء ، وبدأت المياه تنحسر عن الحقول ، استطاع وانج لنج
أن يجوس خلال حقوله ، حدث ذات يوم أن ابنه الأكبر تبعه إلى
هناك وقال له في ازدهاء : سيكون لدينا قريبا فم جديد ، يحتاج إلى
الطعام ، ألا وهو فم حفيدك !

وحيثنذ مسح لنج يديه أحدهما بالأخرى منشرحا وقال : ما أظييه
من يوم !

وظل وانج لنج طيلة الربيع لا تفارقه فكرة الولادة المقبلة ، ولذا
كانت الراحة تمازج قلبه .

ولما انتهى فصل الشتاء وأعقبه الصيف ، بدأ الناس الذين قد هاجروا
بديارهم يعودون وقد خارت قواهم ، واستبد بهم القلق بعد الشتاء ،
فكانوا فرحين لعودتهم على الرغم من أن بيوتهم التي تركوها قد استحالت
الآن إلى طين أصفر ، ولكن يمكنهم أن يبنوا من هذا الطين بيوتا
أخرى ، وهرع الكثيرون إلى وانج لنج ليقترضوا منه مالا ، وكان

الضمان الذي يطلبه منهم دائماً هو الأرض وإذا لم يستطع بعضهم ان يقترض مالا ، كانوا يبيعون الأرض .

وكان هنالك بعض الناس الذين لم يرضوا أن يبعوا أرضهم فكانوا يبيعون بناتهم، وكان بعضهم يأتي إلى وانج لنج لهذا الغرض ، لأن الجميع كانوا يعرفون أنه ثرى وقوى قلبه يفيض بالرحمة والخير . .

واشترى وانج لنج خمساً من الجوارى ، اشترام جميعا في يوم واحد لأنه كان رجلا ثريا ؛ يسمح له ثراؤه أن ينفذ كل ما يستقر عليه رأيه . .

وبعد مرور عدة أيام ، جاءه يوما رجل يحمل فتاة صغيرة رقيقة تبلغ من العمر سبعة أعوام أو نحوها . يرغب في بيعها، ولكن وانج لنج أجاب أولا أنه لن يشتريها لأنها صغيرة جداً وضعيفة جداً ، إلا أن لوتس رأها فانعطف قلبها نحوها ، وقالت له : إني أريد هذه الفتاة لنفسى لأنها جميلة . . .

فنظر وانج لنج إلى الطفلة ، فراعه منها عيناها الجليتان الوجلتان ، ونحافتها فقال تارة ليدخل السرور على نفس لوتس وتارة أخرى ليرى الطفلة بعد ذلك وقد أطعمت وسمنت : حسنا . . . لنشتريها ، ما دامت هذه مشيتك . . وعلى ذلك : اشترى الطفلة بعشرين قطعة فضية ، وعاشت الطفلة عنده في الغرف الداخية ، وكانت تنام أسفل فراش لوتس . . .

أقد ظن وانج لنج أنه يستطيع أن يخلد إلى السلام في بيته ، فلما أقبل الريح ، وحان معه الوقت المناسب لزراعة الأرض ، كان وانج لنج سير هنا وهناك ، ينظر إلى كل قطعة وحينما ذهب كان يأخذ معه أبته الأصغر ، الذي سيتولى مهام الأرض بعده ولذلك كان يعدموبعله ،

وكان الصبي يسير منكس الرأس ، وكانت تبدو من عينيه نظرة عابسة ولم يكن أحد يعرف فيما كان يفكر . .

بيد أن السلام لم ينشر ربوعه على بيت وانج لنج ، وكان يعزى ذلك إلى ابن عمه ، وأبنة الابن الأكبر .

فعندما عاد وانج لنج إلى بيته مع ابنة الأصغر ، ودخلا البيت سويا اتحى الابن الأكبر بأبيه جانبا ، وقال له : لن أقبل أن يظل ابن عمي مقيا في بيتنا بعد ذلك ، وهو لا يكف عن اختلاس النظر إلى زوجتي والتسكع في البيت ، ولا يرفع عينيه عن الجوارى . . إلا أن وانج لنج قال له : ألا أنتهى من كل هذه المتاعب في بيتي بين الذكور والاناث ؟ وبعد أن صمت برهة صاح قائلا . حسنا وماذا تريدنى أن أفعل ؟ . .

فأجاب الشاب في ثبات : أتمنى لو أسطعنا إن نترك هذا البيت ، ونذهب إلى المدينة ونعيش فيها ، و نترك عمى وزوجته ، وابنه هنا وبذلك يمكننا أن نعيش في أمان بالمدينة خلف البوابات .

فضحك وانج لنج بمرارة عندما قال له ابنة تلك الكلمات ، وأجابه قائلا : هذا بيتى ويمكنك أن تعيش فيه ، أو تتركه . . .

ثم نهض ، وبصق على الأرض وسلك أمامه كما يسلك فلاح على الرغم من أنه كان يشعر بالفخر بابنه في قرارة نفسه . . إلا أن ابنة الأكبر لم يسلم بسهولة فتبع أباه وهو يقول حسنا . . فهناك بيت هو انج القديم الكبير ، والجناح الامامى منه مكستظ بعامة الشعب ، ولكن الغرف الداخلية مغلقة وساكنة ، وتستطيع أن تستأجرها ، وتعيش فيها في أمان . ثم ترك الدموعه العنان فأغرورقت عيناه ، فتركا ولم يحفظها ...

ولم يبد إن كانت الدموع وحدها قد أثرت في وانج لنج ، ولكنه

تأثر في الواقع من كلمات ابنه عندما قال له : بيت هوانج العظيم .
لم ينس وانج لنج مطلقاً أنه قد ذهب ذات مرة يسأل إلى ذلك البيت
الكبير ، وأنه قد وقف هناك شاعراً بالهجل من نفسه أمام هؤلاء الذين
كانوا يسكنون فيه ؛ وقفزت في رأسه فكرة بجملها هو ، أستطيع أن
أجلس على المقعد الذي كانت السيدة الكبيرة تجلس عليه . .

ولم يرد على ابنه ، ولكنه سبغ في أحلامه وفيما يستطيع أن يفعله إذا
شاء الذهاب ؛ ولكنه بعد ذلك كان أشد استياءً من تبطل ابن عمه
ورأى حقيقة أنه كان ينظر نظرات مريبة ، وغمغم وانج قائلاً : الآن
لا أستطيع أن أعيش مع هذا الكلب في بيتي .

وأخذ ينظر إلى عمه ، وزوجته فأدرك أنهما قد رضيا كل الرضا
بالأفيون ، واستسما للنحاس يداعب أجفانهما ؛ وأدرك كذلك أنهما أصبحا
لا يزعجانه كثيراً ، ذلك أن الأفيون قد أسدى لوانج لنج ما كان يتمناه
من تأثير عليهما وعندما ذهب وانج لنج ذات يوم إلى المدينة ليرى ابنه
الثاني في سوق الحبوب ، سأله قائلاً : حسنا يابني ، مارأيك فيما يريده
أخوك الأكبر ، أن تنتقل إلى المدينة في البيت الكبير ، إذا أستطعنا أن
نشأجر جزءاً منه ؟

ولما ابنه الثاني ، وأصبح شاباً فتياً على الرغم من أنه كان ضئيل الجسم
أصغر الجلد ، ذاعينين ما كررتين ، فأجابه قائلاً : إنها لفكرة ممتازة ، وتناسيني
تماماً ، وبذلك أستطيع أن أتزوج ، وأسكن مع زوجتي في ذلك البيت
ونش تحت سقف واحد كما تفعل الأسرة الكبيرة .

لم يكن وانج لنج قد فعل شيئاً حيال زواج هذا الابن ، لأنه كان

لديه الكثير مما يشغله ويزعجه .. ومهما يكن من أمره الآن فإنه قال له :
لقد حدثت نفسي طويلاً أنه ينبغي أن أزوجه ، ولكنني شغلت عنك
بهذا الأمر أو ذاك ، فلم يعد لدى وقت كاف للتفكير . ولكن سأعمل
بلا شك على زواجك من الآن .

وعلى ذلك رد عليه ابنه : حسناً ، سأزوج إداً ، وإن الزواج شيء
جميل ، الرجل له الحق في أن يتزوج أولاداً ، ولكنني لا أود أن تخطب
لى فتاة من المدينة كما فعل أخي ، إنها ستحدث على الدوام عما يوجد
فى بيت أبيها ، وتضطرنى إلى إنفاق مالى ، وهذا سيكون داعياً لغضبى .
وأستمع وانج لنج إلى ابنه فى دهشة ، لأنه لم يكن يعرف أن زوجة
ابنه على هذا الحال ، فهو لم ير فيها سوى أنها كانت امرأة سليمة فى سلوكها
ولا غبار على مظهرها الذى كان يبدو آية فى الجمال ، ولكن حديث ابنه
بدا له صحيحاً ورأيه سديداً ، فنظر إلى الشاب ، فراعته منه حركاته المتدة
الرزينة ، ونظرات عينيه المشوبة بالغموض ، فقال له : آية فتاة تريد إداً ؟
فأجابه الشاب على الفور كما لو كان قد دبر أمره من قبل : أرغب
فى الزواج من فتاة تقيم فى القرية ، من أسرة تمتلك أرضاً ، وليس لها
أقارب فقراء .. فتاة تقدم صداقاً محترماً ، ليست بالقبيحة أو المليحة وأن
تكون طاهرة ماهرة أريد . . . أن أتزوج فتاة مثل هذه .

ودهش وانج لنج عندما سمع هذا الكلام ، وأعجب فى الوقت نفسه
برجاحة عقل ابنه ، وقال له ضاحكاً : حسناً .. سأبحث لك عن مثل هذه
الفتاة ، بل إن تشنج سيبحث لك عنها فى القرى . . وانصرف
وهو يضحك ، واتخذ طريقه صوب البيت الكبير ، وحيث أنه لم

يجد أحداً يعترض سبيله ، دلف إلى البيت ، فوجد الغرف الامامية ملأى
بالعامه ، التي تكدست في غرف العظام ، حينما رحل عنها عطاؤها .
ولو كان وانج لنج لا يزال في أيامه السالفة ، لتخيل نفسه واحداً من
هؤلاء الناس ، ولكنه الآن في حاضره يمتلك فضة وذهباً قد وضعهما في
جباً أمين ، لذا احتقر هؤلاء الدهماء ، بل كان شعوره ضدكم كالألو كان ينتمى
إلى أهل هذا البيت العظيم .

وعندما دخل الغرفة الداخلية ، وجد امرأة عجوز نائمة ، وبينما كان يتطلع
إليها أصبح يفكره في السنوات الطويلة التي مرت منذ أن جاء إلى هذا البيت شاباً
يحمل على ذراعه طفله الحديث الولادة .. ولأول مرة في حياته شعر
وانج لنج ان العمر قد تقدم به .

فقال للمرأة العجوز ، وقد ران على وجهه الحزن : استيقظي
ودعيني أدخل .

ونفضت المرأة وهي تطرف بعينها ، وقالت له : لا يمكن أن أفتح
الباب إلا هؤلاء الذين قد يستأجرون الغرف الداخلية بأكملها .

وقال وانج لنج فجأة : حسناً ، وأنا كذلك قد استأجرت إذا اعجبني المكان .
ودلف ورائها ، وقد تذكر الطريق جيداً ، وكان الصمت يخيم على
الغرف ، وتبعها إلى البهو العظيم نفسه ، ورجعت به الذاكرة إلى الورا
سنوات عديدة مضت عندما وقف هنالك ينتظر جارية من البيت ليتزوجها
وسار إلى الأمام وجلس حيث كانت السيدة الكبيرة تجلس في ثوبها
الستان القطنى ، وحينئذ أحس أن شعور أبارضى الذى طالما اشتاقت نفسه إليه
قد بدأ يخبر قلبه ، ولذلك قال فجأة : دان هذا البيت سيكون لى .. ،

الفصل التاسع والعشرون

كان وانج لنج إذا ما قرر شيئاً في تلك الأيام ، لا يستطيع أن ينجزه في الحال . لذلك أخبر ابنه الأكبر بأن يدبر الأمور لانتقالهم إلى البيت الكبير ، وبعث إلى ابنه الثاني أن يحضر لكي يساعد أخاه وعندما أعدوا أنفسهم لذلك ، انتقلت ذات يوم كل من لوتس وكوكو ، وجواريهما وحملت منقولاتهما ، ثم تبعهم ابن وانج لنج الأكبر ، وزوجته وخدمهم وبقية الجوارى ..

يبد أن وانج لم يرغب في الذهاب في الحال فأبقى معه ابنه الأصغر ، ولما حانت لحظة الفراق والرحيل عن أرضه التي ولد فيها ، لم يستطع أن يتحمل ذلك في يسر ، وقال مخاطباً أولاده عندما أخذوا يشجعونه : حسناً فلتعدوا إلى غرفة خاصة ، وسأحضر عندما تجددوا الفتاة التي سيتزوجها ابني الثاني .

ولم يبق ثمة شخص في البيت سوى عمه وزوجته وابنه ، وتشنج وعماله علاوة على وانج لنج ، وابنه الأصغر وابنته البهاء .
نام وانج لنج ، وأراح جسمه لشعوره أنه مكدود منك ، وكان البيت هادئاً ، وكان ابنه الأصغر وديعاً لا يعترض سبيل والده ..

وأخيراً بدأ وانج يلب نحو النشاط فأمر تشنج أن يجد في البحث عن فتاة لابنه الثاني . وعندما سمع تشنج ما يريد به وانج لنج ، حتى قام واغتسل ، وارتنى ثوبه القطنى الأزرق الجميل ، ثم أخذ يزور هذه القرية أو تلك ، ثم عاد أخيراً وقال : وجدت فتاة على بعد ثلاثة قرى ، فتاة طيبة .

عاقلة لا عيب فيها سوى أن ابتسامتها لا تفارق ثغرها ، ووالدها لا يعارض في زواجها ، وسيقدم صداقا لابأس به ، كما وأنه يمتلك أرضا .
وسر وانج لنج ، ووجد فيما قاله له تشنج غايته وكفايته ، ولذلك عندما وصلته وثائق الخطوبة ، وقع عليه بصمته ، وقال :

لم يبق لى سوى ولد واحد لم يتزوج ، وهأنذا قد شارفت النهاية .
في هذه الزيجات ، وإنى لمسرور أن بدأت أشعر براحة البال .
ولما تم إعداد كل شيء ، وحدد يوم الزفاف استراح وانج لنج ، وأخذ يجلس فى الشمس وينام فى دفتها كما كان يفعل والده من قبل .

ولاحظ وانج لنج أن تشنج قد أصابه ضعف الشيخوخة ، قد أصبح بطيء الحركة ميالا إلى النوم بعد الأكل ، وأن ابنه الثالث لم يتعد طور الطفولة ، ولذلك وجد أنه من الخير له أن يؤجر حقوله البعيدة لبعض القرويين فجاءه كثيرون ليستأجروها ، واتفق معهم على الإيجار وهو أن يأخذ نصف المحصول والنصف الآخر يأخذه المستأجر .

ومنذ أن قلت مشاغله ، إعتاد وانج لنج أن يذهب أحيانا إلى المدينة ، وينام فى الغرفة التى أعدت له ثم يعود إلى أرضه فى مطلع النهار ، وهكذا أصبح عملا رتيبه براحة حقوله الرقيقة وهوائها النقي ، والبهجة تملأ نفسه .

وكأنما شاءت الآلهة أن تسبغ عليه رحمتها ، وأن يهدأ باله فى شيخوخته الهرمة ، إذ جاءه ابن عمه الذى اتباه القلق من البيت بعد أن سمع عن حرب فى الشمال ، وقال لوانج لنج : يقال إن حربا مشتعلة فى الشمال من منطقتنا ، فسأذهب ، وأحوض غمارها إذا ما احطيتنى فنته

اشترى بها ملابس وفراشاً وبندقية مصنوعة في الخارج كي أحملها على كتفي .
وأعطاه وانج لئح الفضة في الحال . وقال يخاطب نفسه : حسناً فمما قريب
قد يقتل ، فأحياناً يموت كثير من الناس في الحروب .
وكان وانج لئح منشرح الصدر ، هادئ البال ، ولكنه أخفى ما بنفسه ،
وطمان زوجة عمه عندما بكت قليلاً لسماح رحيل ابنها .

وهكذا ساد اليأس السكون ؛ فلم يبق سوى العجوزين اللذين يخلدان دائماً
للنوم في البيت الريني ؛ أما في بيته فكانت عقارب الساعة تقترب من ميلاد
حفيدة ؛ وكلما قربت وأوشكت كلما مكث وانج لئح في بيته بالمدينة وقتاً أطول
وهو يفكر في حوادث الدهر التي مرت به ، وأنه في هذا البيت الكبير بيت
هوانج يعيش مع زوجته وأولاده وزوجاتهم وأن الطفل يوشك أن يولد
من الجيل الثالث .

وكاد قلبه يثب من صدره من فرط سروره لميلاد حفيدة ، فلم يترك شيئاً
طلياً إلا واشتراه ؛ وبدأ يميل إلى تناول الأطعمة الشعبية ، التي لا يتذوقها إلا
الأغنياء . وأكل معه أولاده وزوجته لوتس . ولما رأت كوكو كل ما حدث
ضحكت ، وقالت له : إن هذه الأيام لتذكرني بالأيام السعيدة الماضية في هذه الغرف .
وعلى منوال هذه الحياة الحافلة بالدعة والسكسل ، أخذ وانج لئح يسير مترقباً
لميلاد حفيدة وفي ذات صباح ذهب إلى جناح ابنه الأكبر حيث قابلته ابنة ، وقال له :
لقد حانت ساعت الوضع إلا أن كوكو تقول إن الوضع سيستغرق وقتاً طويلاً . .
وعاد وانج لئح إلى بيته في المدينة ، وجلس وقد أحس لأول مرة منذ مرور
سنوات عديدة أنه خائف ، وأنه في حاجة إلى معونة الله فتهض وذهب إلى حانوت
البخور ؛ واشترى بعض البخور ثم توجه إلى المعبد بالمدينة ليحرقها أمام آلهة
آلهة الرحمة . .

وبينما كان يراقب السكاكين وهو يضع البخور في الرماد ، فكر وقد تملكه
ذعر مفاجئ من فكرة خطرت في باله هي : وماذا لو لم يجيء المولود ذكراً ،

بل لمشي . ثم نادى سريعاً : حسناً إذا كان المولود ذكراً فسأدفع ثمن رداء
أحر جديد للآلهة ؛ ولكن لن أدفع شيئاً إذا كان المولود بنتاً . .

ولأنه لم يكن ليفكر في هذا الأمر من قبل ، فإنه انصرف ؛ واشترى بخوراً
أخرى ، مع أن اليوم كان حاراً مليئاً بالغبار ثم ذهب بعد ذلك إلى المعبد الريفي
الضغير حيث كان الصنمان جالسين برعيان الحقول والأراضي ، ودفع أمامهما
البخور وأشعله ، وأخذ يغمغم لها قائلاً لقد عطينا بكما ، وما زلنا نعتي ،
أنا ووالدي وولدي ، فإذا لم يجيء المولود ذكراً ، فلن أقدم لكما شيئاً . .

وأخيراً بعد أن لا حظ أن الظلام سيرخي سدوله ، عاد إلى البيت وبعد أن
انتظر طويلاً جاءت لوتس إلى المنزل ثم انحنى على كوكو بسبب ضخامة جسمها
وقدمها الدقيقتين ، ورنت ضحكاتها وقالت بأعلى صوتها : حسناً . . في بيت
ابنك الآن ولد ولقد رأيت الطفل جميلاً ، سليم البنية . .
فضحك وانج لنج بدوره وقال : حسناً لقد كنت أنتظر هنا كرجل يولد له
طفله الأول ، وهو يخشى كل شيء . .

وعندما ذهبت لوتس إلى غرفةها ، جلس وانج في مكانه وأخذ يفكر مخاطباً
نفسه : لم يتملكني مثل هذا الخوف عندما ولدت لي زوجتي طفلاً الأول . لم يني
الأكبر . . ثم أظله الصمت ، وعادت به الذكرى في ذلك اليوم لما دخلت زوجته
بمفردها إلى الغرفة الصغيرة المظلمة ، وكيف أنها دون أن يعاونها أحد ، قد أنجبت
له بنين وبنات ، ولدتهم في صمت ؛ ثم كيف كانت تعود إلى الحقول لتعمل ثانية .
بجواره . . نعم لقد بدا له أن هذا قد حدث منذ أمد طويل . .

ولما مر شهر من عمر الطفل أقام والده وليمة ، ودعا إليها كل عظام المدينة
وصنع مئات من بيض الدجاج بلون أحمر قرمزي ، ووزعها على ضيوفه ، وكان
البيت يهوج بالمديح والفرح يملأهم ، وتذكر وانج لنج الرداء الأحمر الذي
وعد به آلهة الرحمة ، ولذلك هرع إلى المعبد ليدفع ثمنه . .

وفي طريق عودته ، جاءه رجل يجرى من حقول الحصاد واخبره أن تشنج راقد مختصر ، وأنه طلب حضوره ليراه في لحظاته الأخيرة .

ومع أن طعام غذائه كان معداً ؛ وأن لوتس نادى عليه أن ينتظر حتى غروب الشمس ، إلا أنه انطلق خارجاً ، وبعث لوتس في أثره جارية بمظلة من ورق زيتي ؛ وكان وانج لنج يجرى مسرعاً فلم تستطع الخادمة أن تسير وراءها المظلة فوق رأسه لتقيه حرارة الشمس .. ودخل وانج لنج تواراً إلى الغرفة التي أرقدها تشنج ، وجلس بجواره ، وأمسك يده ، وانحنى فوقه ، وقال له بصوت مرتفع في أذنه .
أنا بجوارك ، وسأستري لك تابوتاً لا يضارعه إلا تابوت والدي ..

ولم يبد تشنج حراكاً بعد أن خاطبه وانج لنج بل ظل راقداً يلهث ، ويلفظ روحه حتى صعدت إلى بارئها .. وبعد موته ، انحنى فوقه وانج وظل ييكيه بدموع لم يندف لها مثيلاً عند موت أبيه ؛ وأمر بإعداد تابوت من أجود صنف واستأجر كهنة لجنازته ، وسار خلف نعشه في ملابس الحداد البيضاء ؛ وجعل إبنه يضع حول مرقفه شارات بيضاء كأن قريبا له من أسرته قد مات . بيد أن به شكاً له قائلاً : أن تشنج لم يكن إلا رئيساً للخدم ، وليس من المناسب أن نحزن هكذا لوفاة خادم .

ولو ترك وانج لنج على هواه لكان قد دفن تشنج في جدار المقبرة المبنية من الطين حيث كان يرقد أبوه ، وزوجته أولان .. ولكن أولاده أبوا ذلك . ولذلك دفن تشنج عند مدخل الجدار ، وشعر وانج بالراحة وقال : حسناً .. هذا المكان يناسبه وهذا صنيع يستحقه ، لقد كان تشنج يقف حائلاً بيني وبين الشر .

ثم أمر أولاده بأن يدفنوه بجوار تشنج عند موته .
وبعد ذلك أخذ وانج لنج لا يذهب لرؤية حقوله إلا لماماً ، فبعد وفاة تشنج ، أجز كل ما استطاع من أرضه ، ولكنه لم يكن ليرضى بأن يتحدث عن بيع ما حوله قدم من الأرض .

وأسكن أحد عماله وزوجته وأطفاله في البيت الريفي ليبنى بمدنى الأفيون
الفارقين إلى أذقانهم في أحلامهم .

ثم قال مخاطباً ابنه الأصغر : حسناً يمكنك أن تأتي معى إلى المدينة ، وسأخذ
ابنتى البلهاء معنا حيث يمكنها أن تعيش في الجناح الذى أقيم فيه . . إن هذا
المكان شديد الوحشة ولا يمكنك أن تقم فيه بمفردك ، ولا أحد يملك شيئاً
عن زراعة الأرض خاصة بعد وفاة تشنج .

وهكذا صحب وانج لنج ابنه الأصغر ، والبلهء معه إلى البيت الكبير
فى المدينة .

وفىءا بعد أصبح وانج لنج لا يأتى إلا نادراً إلى البيت الريفي القسائم
وسط أرضه .

الفصل الثلاثون

والآن لم يبق لدى وانج لنج أمنية رجوها إلا وقد تحققت ، وإنه
ليستطيع الآن أن يجلس على كرسيه تحت أشعة الشمس بجوار ابنته البلهاء ؛
وكان من الممكن أن تسير حياته على هذا النهج لولا ابنته الأكبر الذي لم يكن
ليرضى بشيء ؛ وإنما كان يطمح في الحصول على كل شيء ، ولذلك عاد إلى أبيه
يقول : إن زواج أخى الأصغر سيكون بعد ستة أشهر ، وليس في غرفنا
ما يكفينا من أشياء .

وأرى أن تكون الغرف الخارجية لنا ، وينبغي أن يكون لدينا ما يناسب
أسرة تمتلك الوفير من المال ، والأرض الطيبة مثل أسرتنا . .

فتضايقا وانج لنج من الشاب ، وصاح فيه قائلا : إفعل كما تشاء . أفعل
كما تشاء ، ولا تزجني قط بما تطلب .

وما كاد الابن يسمع هذا ؛ حتى انطلق من أمامه ، خشية أن يضير
أبوه رأيه . .

ولما أقبل العيد الذي يتفق فيه الناس على الإيجارات ، وجد عامة الشعب
القاطنين في الغرف الخارجية أن الإيجارات قد ارتفعت ارتفاعا فاحشا ، وأن
عليهم أن يجدوا لأنفسهم مكانا آخر يقيمون فيه فتقلوا أمتعتهم ، وهم يسبون
ويستخفون لأن رجلا ثريا سولت له نفسه أن يفعل ما يحلو لها .

وأحضر ابن وانج لنج نجارين ، فاصلحوا الأبواب ، وأعاد بناء البرك ،
وأضنى على كل شيء جمالا إلى أقصى ما يدرك من جمال .

وذهب المال في سبيل هذه الأشياء من يد وانج لنج قطعة أثر قطعة ، ولم
يكن يعرف كم أعطى ، ما لم يأت إليه ابنه الثاني ذات صباح ويحدثه قائلا : أبتاه
هلا توجد نهاية لهذا المال المنهمر ؟ وهل نحن في حاجة إلى أن نسكن في قصر ؟

وأدرك وانج لنج أن ولديه على وشك التشاجر ، فقال له : حسنا . . ما هذا إلا تكريما بزواجك .

فاجابه الشاب : إنه لمن الشاذ أن يكلفنا زفاف عشرة أمثال قيمة العروس وهذا ميراثنا قد أوشك على النفاذ ، لافي شيء سوى إرضاء لكبرياء أخي الأكبر . . .

فأجابه والده سريعا : سأتحدث مع أخيك في هذا الأمر ، وسأقبض يدي عن الدفع .

وفي ذلك المساء تحدث مع ابنة الأكبر قائلا : كفانا ما بعثرناه من فضة . . هذا يكفي .

وكان الابن راغبا في طاعة أبيه لأنه شعر بالرضا في غرفه وأبائه على الأقل في وقته الحاضر ، ولكنه بدا يقول ثانية : حسنا . . يكفي ذلك ولكن هنالك شيء آخر ، إنه من أجل أخي الأصغر ، فليس من المناسب أن يشب هكذا جاهلا ، وينبغي أن يتعلم شيئا ، وسوف نستدعي مدرسا في البيت ليعلمه ، وما دمت أقيم معك هنا وأساعدك ، وأخي الأكبر في تجارته الراجعة ، فدمع إذا الصبي يختار ما يحلو له .

وأخيرا قال له وانج لنج : ابعثه إلى . .

وبعد هنيهة جاء الابن الثالث ووقف أمام أبيه ، فرأى وانج أمامه صبيا فارعا نحيفا ، لا يشبه أباه أو أمه ، إنما فيمن أمه صمتها .

وخاطبه وانج لنج قائلا : يقول أخوك إنك تريد أن تتعلم القراءة واقترض من هذا أنك لا تريد أن تعمل في الحقل ، وبهذا لن يكون لي ابن يعمل في الأرض . .

وكان وانج لنج يخاطبه بمرارة ، ولكن الصبي لم يقل شيئا ، فغضب وانج

لنج من صمته ، وصرخ فيه قائلاً : لماذا لا تسلم ؟ أضحج أنك لا تريد أن تعمل في الأرض .

وأجاب الصبي بكلمة واحدة : نعم .

وصاح وانج لنج مرة أخرى ، وقد شعر أن أبناءه يسيئون معاملته :

ما هذا الذي تريد أن تفعله معي ! أغرب عن وجهي . !

وانصرف الصبي مسرعاً ، وقال وانج لنج لنفسه أن بنته أفضل من إبنيه . .

ومهما يكن من أمر ، فانه تصرف كما يتصرف دائماً حالما يتبدد غضبه ، إذ يترك أبنائه يفعلون ما يشاءون ؛ ونادى على ابنه الأكبر ، وقال له :

هات معلماً لإخيك الثالث إذا رغب في ذلك .

ثم نادى على ابنه الثاني وقال له :

وحيث أنه ليس لي ابن يعني بالأرض ، فاز واجبك أن تصعد بالإيجارات وأن تأخذ الفضة التي تأتي من غلة المحصول في كل عام .

وسر الابن الثاني سروراً كبيراً لأنه سيعرف الدخل ، وكان حريصاً كل الحرص في يوم زفافه على ألا يندر أو يسرف ، حتى أنه أعطى الجوارى والخدم من النقود أقل ما يجب ، بما جعل شقيقه الأكبر ينجعل من تصرفه ، قفحهم مزيداً من الفضة ، وهكذا نشب بينهم خلاف في قس ليلة الزفاف .

ولقد اضطر كذلك الاخ الأكبر أن يدعو عدداً ضئيلاً من أصدقائه ، لأنه كان خجلاً من تقدير أخيه ، ولأن حرومه كانت قروية .

وبدا على كل من كان يسكن البيت من أسرة وانج لنج أنه كان يعاني القلق

واضطراب البال فيما عدا الحفيد الاصغر لوانج لنج ، ومن هذا المولود الصغير استطاع جده وانج لنج أن يستلهم الراحة والطمأنينة فكان لا يكف عن مراقبته ورعايته ، ومداعبته ، والتقاطه كلما سقط على الارض..

ولم يكن هو الطفل الوحيد في البيت فان أمه زوجة الابن الاكبر لوانج لنج كانت تلد بانتظام ، كما وضعت زوجة الابن الثاني في مياعدها ، فولدت طفلة ابنتها البكر ، فكان ذلك مناسباً ألا تلد ذكراً بدافع الاحترام لزوجته شقيق زوجها ؛ وهكذا أصبح لوانج لنج في خلال خمسة أعوام أربعة أحفاد ، وثلاث حفيدات ، فامتلا البيت برنين ضحكاتهم ، وعويل بكائهم .

إن خمسة أعوام ليست بالمدى الطويل في حياة الإنسان إلا إذا كان في ربيع العمر ، أو في خريفه ، فإذا كانت هذه الاعوام الخمسة قد منحته هؤلاء الاطفال جميعاً ؛ فانها قد انتزعت أيضاً عم وانج لنج ، ذلك الرجل الحالم المسن ..

ولم يدر وانج لنج في أية ساعة مات عمه ، إلا أن روحه فاضت ، وورقه ممدداً لا حراك به ذات مساء عندما دخلت عليه خادمته لتحمل وعاء حساء ، فدفننه وانج لنج في يوم قارص برده ؛ شديد زمهريره ، ووضع التابوت في مقبرة الاسرة التي كانت في مكان منخفض عن مقبرة أبيه وأعلى من القبر الذي أعده لنفسه . ثم أمر الاسرة كلها بالحداد عليه فلبسوا ملابس الحداد عاماً كاملاً لان هذا كان من تقاليد الاسرة الكبيرة إذا مات أحد افرادها او أقربائها..

ثم نقل بعد ذلك وانج لنج زوجة عمه إلى المدينة ، واسكنها غرفة في أقصى جناح البيت . وخصص لخدمتها جارية لتسهر على راحتها ؛ واعد لها تابوتا من الخشب ، وظلت هذه المرأة العجوز تمتص الافيون في جنل وارتياح وظل تابوتها إلى جانبها لتطمئن كلما رآته .

الفصل الحادى والثلاثون

كان وانج لنج قد سمح طوال حياته عن حرب تشتعل نيرانها هنا أو هناك ولكنه لم يرد ذلك بنفسه مطلقا ورجاء بدأت الحرب تندلع نيرانها ، كما لو كانت رياح عتيقة قد انشقت عنها السماء .. وسمع عنها وانج لنج لأول مرة من ابنه الثانى الذى قال له : أن سعر القمح قد ارتفع فجأة لان الحرب يقترب شيئا بشيء كل يوم ويجب أن نحتفظ بمخزائنا من الحبوب إلى أن يحين الوقت لأن سعرها سيزال فى ارتفاع مستمر كلما أخذت الجيوش تقترب منا .

وبعد ذلك اكتسحت جماعة من الرجال المكان الذى يعيش فيه وانج لنج وأسرته ذات يوم فى بواكير الصيف ، وكان حفيد وانج لنج الأصغر واقفاً بالبوابة ذات صباح مشرقة شمس ، وعندما رأى صفوفًا طويلة من رجال ترتدى أردية رمادية ، صاح قائلًا : أنظر إلى هؤلاء القادمين ، يا جدى .

فذهب وانج لنج إلى البوابة ووقف معه ، فرأى رجالًا يملأون الطريق وكانت وجوههم متجممة تنطق بالشر لجذب وانج لنج الطفل إليه ، وقال له : دعنا ندخل ونغلق البوابة ، فهم لبسوا رجالًا طيبين ، ومرآهم لا يشجع على النظر اليهم .. هيا يا حبيبى الصغير .! ورجاء ، قبل أن يدير وانج لنج ظهره رآه أحد الرجال ، فصاح عليه قائلًا . إيه يا ابن عمى .. قتل وانج لنج إلى هذا النداء ، فرأى ابن عمه ، فضحك هذا بخمسة ، ونادى على رفيقائه قائلًا : هنا يمكننا أن نقيم ، يا اخوانى ، فهذا رجل غنى وقريبى !

وقبل أن يستطيع وانج لنج أن يتحرك أو يفتق من رعبه ، وجد الرجال يجواره ، ينهرون من خلال بوابته ، فجرى وانج لنج والطفل صوب ابنه الأكبر ، فلما سمع ماسرده عليه وانج لنج ، بدأ عليه الألم ، وانصرف إلى الرجال وما أن وقع بصره على ابن عمه ووجد أن كل رجل يحمل فى يده سكينًا ، حتى



أيه... يا ابن عمي العجوز...!

خاطبهم قائلاً . مرحبا بكم ، مرحبا بك يا ابن عمي في بيتك ، سنعدطعاما حتى يستطيع هؤلاء الرجال أن يأكلوا قبل أن يتابعوا سيرهم .

فقال له ابن عمه مكشراً عن أنيابه : فلتفعل ولكن لا تسرع بعد ذلك ، فأتنا سوف نقيم هنا عدة أيام ، أو شهرا ، أو عاما أو عامين لأننا سنمكث في المدينة حتى نلج نداء الحرب .

وتظاهر الابن الأكبر بأنه يجب أن يذهب ليعد الطعام ، فأمسك بيد أبيه وهرع كلاهما إلى الفناء الداخلي ، وأغلق الابن الأكبر الباب بالمزلاج ، وجاء الابن الثاني يجرى ، وأخذ يندق الباب وهو يلهث ويتنادى قائلاً . هنالك جنود في كل مكان ، وفي كل بيت . . . يجب أن نعطيهم كل ما يرغبون ، ولنندع الله أن تنتقل الحرب إلى أماكن أخرى في أقرب وقت . . .

فقال الابن الأكبر . يجب أن نضع النساء سويا في أقصى غرفة ، وأن تظل الأبواب محكمة الغلق .

وفعلوا ما استقر عليه رأيهم ، وظل الابن الأكبر ووالده يراقبان البوابة صباحا ومساء ، وكان الابن يأتي إليهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكان ابن العم مقيما معهم ، ولأنه كان قريبهم لم يستطع أحد أن يمنعه فكان يجمول في أنحاء البيت بمطلق حزيته ، حاملا سكينته اللامع مفتوحاً في يده ، وهو يتطلع إلى هذه المرأة أو تلك .

وبعد أن شاهد ابن العم كل شيء ، ذهب ليرى أمه ، فصحبه وانج لنج ليدله على مكانها ، فوجدوها نائمة في فراشها فلم يستطع إبنا أن يوقظها إلا في مشقة ، ثم أخذ يحمق فيها ليرى الحال الذي وصلت إليه ، والتغير الذي طرأ عليها ، وعندما رقت لتنام مرة أخرى ، انصرف بمسكا بندقية في يده كعصا .

ولم يفيض وانج لنج وأسرته أحداً من هذه الجماهير الغفيرة من الرجال العاطلين قدر كراهيتهم وخشيتهم من ابن عمهم لانه كان يجرى هنا وهناك

كيفية يشاء ملقياً بنظراته على الجوارى ؛ ورأته كوكو وهو يفعل ذلك فقالت :
هنالك أمر واحد يجب أن نتخذه ، ألا وهو أن نزوج إحدى الجاريات مادام
يقيم بيننا .

وعلى ذلك طلب وانج لنج من كوكو أن تذهب ، وتسال بن العم عن أية
جارية يختارها .

وفعلت كوكو ، وعادت تقول إنه يختار الجارية الصغيرة الشاحبة الوجه التي
تمام في فراش السيدة ، وكانت هذه الجارية تدعى (ير بلسم) أى (زهرة الكثرى)
وكان وانج لنج قد اشتراها في سنة مجاعة ، ولأنها كانت فتاة رقيقة ، أشفقوا عليها ،
وسمحو لها بأن تؤدي أبسط الاعمال لسيدتها لوتس ، وعندما سمعت بذلك ير بلسم
بكت حتى كادت تموت من البكاء ، وهرولت إلى وانج لنج ، وأحنت رأسها إلى
قدميه ، فقال للوتس : دعينا تفعل ما يمكننا ، فزسل جارية أخرى لابن عمي .

وعلى ذلك اخذت كوكو فتاة بدينة أو شكت على العشرين إلى ابن العم
ليزوجها ؛ ولكن الفتاة الصغيرة ظلت متعلقة بقدمي وانج لنج ، فأنهضها برقة
ووقفت أمامه ، فرأى أن وجهها فاتناً صغيراً ، يعضاوى الشكل ، وكانت
رقيقة ، شاحبة الوجه وفيها دقيقتاً مشوبا بالاحمرار ، فرفعت عينها إليه ، واخذت
تطلع إليه ، ثم سرت من امامه ، وذهبت إلى ابن العم .

وأقام ابن العم شهراً ونصف ثم اشتعل أتون الحرب ، وانصرف الجنود
إلى ميدان القتال ، مختلفين ورائهم الفوضى التي احسدها . ووقف ابن عم
وانج لنج امامهم جميعا ، وبندقيته على كتفه ، وقال في استهزاء . إذالم ارجع
إليكم ، فأنذا قد تركت حياتي الأخرى ، وحفيداً لأمي .
وبعد ان ضحك معهم جميعا ، انصرف مع رفقاته الآخرين .

الفصل الثاني والثلاثون

كانت الجارية التي تزوجها ابن عم وانج لنج قد انجبت طفلة فأعطاها بعض الفضة وامرها ان تعني بزوجة عمه في فترة حياتها ..

وبعد موتها بعث في طلب احد رجاله ليزوجه الفتاة لأنها كانت قد رجته ان يزوجها من فلاح . فقبلها الرجل شاكر امتنا . لأنه كان رجلا فقيرا فقرا مدقما ويستجبل عليه الزواج إلا من واحدة مثلها .

وبدأ وانج لنج يحلم بأن السلام سوف يشمله حقيقة ، لأنه كان مشرفا على الخامسة والستين من عمره ، ولكن السلام تخلى عنه لان زوجته ابنته كانتا تكرهان بعضهما بعضا ، وبذلك انتقلت الكراهية إلى الزوجين ايضا ، ونشب الخلاف بينهما . واستحال إلى غضب شديد ..

وكان وانج لنج يعاني ضيقا خفيا من لو تس منذ ان رفض تزويج جارتها من ابن عمه . وكانت تشعر بالغيرة من الفتاة ، واعتادت أن تصرفها من الفرقة كلما جاء اليها وانج لنج . ثم ادرك وانج لنج ان الفتاة جميلة وشاحبة كمنارة الكثرى فبدأ يفكر فيها مليا .

وكان المتاعب التي أحدثتها نساء بيت وانج لنج لم تكفه ، حتى جاء ابن وانج لنج الاصغر بمتاعبه . وكان قد عاش بين الجنود عندما اقاموا في المدينة ولذلك ذهب إليه ، وقال له : إني اعرف ما سوف اقوله ، سأكون جنديا . وسأهرع لاشترك في الحرب .

فصاح وانج لنج قائلا : إن هذا لعمرى الجنون بنفسه . ولن اتذوق مطلقا طعم الراحة مع ابنائي .

فقال له الصبي فجأة : وقد استقرت عيناه تحت حاجبيه : ستشيب

حرب لم نسمع بمثلها على الإطلاق ؛ ستحدث ثورة وقتال ميريان ، وبذلك ستكون أرضنا حرة .

فقال له والده وقد ملأته الدهشة :

لست أدري ما تريد أن تعبر عنه . . إن أرضنا حرة ، فإني أؤجرها لمن أشاء ، وأنت تأكل منها ، وتكتسى منها ، ولست أدري أية حرية تريدها أكثر من هذه الحرية التي تتمتع بها الآن .

ولكن الفتى غمض في مرارة قائلاً : إنك طاعن في السن ولا تعي شيئاً .
ففسكر وانج لنج ثم قال في بطء . حسناً سنزوجه في القريب يا بني ..

فأجابه الصبي : لست شاباً عادياً ولي آمالي . . إني أود المجد لنفسى .

وعلاوة على ذلك لا يوجد في هذا البيت جمال سوى فتاة شاحبة جميلة التي تعنى بالمرأة في الغرف الداخلية :

وحيث أن أدرك وانج لنج أن ابنه يقصد بير بلم (زهرة الكمثرى) فامتألق به

بغيره شاذة وبعد أن انصرف ابنه أخذ يتمم لنفسه :

لم يعد لي سلام وأمن في هذا البيت كله ..

الفصل الثالث والثلاثون

هلم يستطع وانج لنج أن ينوق طعم الراحة من تفكيره المتصل فيما قاله أبنته عن زهرة الكمثرى ، بل أن يفكر فيه أحتم عقله ، ولم يصارح أحداً بشيء ، بل ركن إلى الجلوس بمفرده في غرفته ..

وهكذا مر عليه اليوم طويلاً بملا كثيراً . . . ولما أرخى الليل سدوله كان لا يزال وحيداً ، ولم يجد واحداً في البيت كله يستطيع أن يلجأ إليه كصديق وبينما كان جالساً في الظلام تحت شجرة الكاسيا المزدهرة الزكية الرائحة مر بجواره شخص حيث كان جالساً ، فنظر نحوه مسرعاً ، فوجدتها زهرة الكمثرى فتنادى عليها : يا زهرة الكمثرى . . تعال . . إلى . . . وما أن سمعته ، حتى أتت إليه

وانحنى بحسدهما نحو الأرض ، وأمسكت بقدميه ، وأستقرت أمامه وقال لها :
إني رجل عجوز . . طاعن في السن . . ا

وقالت له : أحبك . . أنت رحيم القلب . .

وفاض قلبه بالحب لهذه العذراء . . ا -

وبعد أن تزوج وانج لنج من (زهرة الكمثرى) ظل الأمر طوي الكتمان
ولم يعرفه أحد على عجل ، لأنه لم يقل شيئاً على الإطلاق ولما ينبغي أن يتكلم وهو
سيد في بيته ؟

ولكن كوكو علمت بالأمر أولاً وقالت له : حسنا إن السيدة يجب أن تعلم :
وخشي وانج لنج من غضب لوتس عليه ووعده كوكو بأن يعطيها حفنة من
فضة ، وأن يعطي لوتس أي شيء تريده . .

ولم يتبق غير أولاده الثلاثة ، وجاء إليه واحداً إثر الآخر ، فأتاه ابنه الثاني أولاً .

كان هذا الصبي إذا جاء تحدث عن الأرض والمحصل ، وبينما كان
يحدث والده ، وأخذ ينظر حوله هنا وهناك في أرجاء الغرف ليتبين صدق ما سمعه
عن أبيه ؛ فنادى أبوه قائلاً : هات شايا يا طفلي ، لي ولأبني . .

وخرجت (زهرة الكمثرى) ، وحلق فيها الابن ، ولكنه لم يتفوه بلفظ
ودارت بينهما أحاديث ذوشجون ، وبذلك رأى كل ما كان يريد ، ثم انصرف .

وجاء الابن الأكبر قبل أن يتتصف النهار وكان وانج لنج يخشى من عقرته
فلم يتاد على (زهرة الكمثرى) أولاً ؛ ثم رأى ابنه الأكبر على ما هو عليه : رجل
ضخم الجسم ؛ ولكنه يهاب زوجته التي نشأت في المدينة ، ويحرص كل الحرص
على أن يكون حريق الأصل . .

لذلك أحس وانج لنج نحو ابنه الأكبر بعدم الاكتراث ؛ ونادى على
زهرة الكمثرى قائلاً : تعال يا طفلي ، وصبي من جديد شايا لابني الآخر . .

وجلس الرجلان يخيم عليهما الصمت ثم قال الابن لآبيه الشيخ أخيراً :
ما كنت أصدق هذا . . .

فقال له وانج متسائلاً : ولم لا ؟ أن هذا بيتي ؛ وهي جاريتي الخاصة . .
وبعد هذا لم ينطق الابن بكلمة أخرى ثم نهض وأنصرف . . .

ولما أرخى الليل سدوله جلس وانج لنج في الغرفة الوسطى المطلة على الفناء ،
وأضيت الشموع الحمراء على المنضدة ، وجلس وانج لنج يدخن ؛ وجلست
أمامه (زهرة الكثرى) في صمت ، وقد عقدت يديها في هدوء على حجرها . .
وكانت تحتل النظرات أحياناً إلى وانج لنج ، ثم يبادلها النظر ، والزهو يملأ
جوانحه ، لما فعله معها .

ثم ظهر ابنه الأصغر فجأة أمامه ، ولم يكن قد رآه أحد وهو يدخل الغرفة
وكانت عيناه تشعان بالنور ، وقد سددهما في والده ؛ ثم قال له في صوت هادئ :
إنى ذاهب الآن لأصبح جندياً .

وشعر وانج لنج بالخوف فجأة من ابنه الذي لم يهتم بأمره إلا نادراً منذ
ولادته ، وكرر الابن قائلاً مرة بعد أخرى :

إنى ذاهب الآن . . ذاهب حتماً الآن . . وفجأة التفت ونظر إلى الفتاة مرة
ثم نظرت بدورها إليه ، ثم وضعت كلتا يديها على وجهها ، حتى لا تراه ، ثم
أرخی الشاب نظره منها ، وغادر الغرفة ، ثم عاد السكون يخيم على المكان . .
وأخيراً التفت وانج لنج نحو الفتاة ، وقال لها في رقة وحزن . إنى رجل طاعن
في السن ، ولا أصلح لك ؛ أعلم ذلك . أعلم أنى رجل مسن .

ولكن الفتاة أنزلت يديها من فوق وجهها ، وصرخت قائلة : أجبك جاباً
لا أحده .

ولما انبلج الصباح ، رحل الابن الأصغر عن البيت ، ولا يذرى أحد
أين رحل .

الفصل الرابع والثلاثون

تقدم العمر بوانح لنج ، وابتدأ غرامه (زهرة الكثرى) لم يهدأ ، وكانت الراحة تمازج قلبه لأنها لاتعادر غرفته ، وفي سليل حبها له ، كانت رحمة بابنته البلاء بما اتلج فؤاده ، وجعله يعهد بها إلى (زهرة الكثرى) لتعنى بها يعد موته .

وأخذ وانح لنج ينطوى كل يوم على نفسه يعيش وحيداً إلا من ابنته البلاء وحبيته (زهرة الكثرى) ، وكان أحياناً ينظر إليها ، فيثقل قلبه بالمم ويقول: إنك تعيشين هادئة يا بنيتي .

وكانت تجيبه دائماً بلطف وعرفان كبير بالجميل : إنها حياة هادئة ، وأنت بار بي . .

ولم يكن ليقول شيئاً ، لأنه أصبح الآن ينشد السلام ويهدف إلى الجلوس في غرفته بجوار ابنته وزهرته .

وهكذا مرت حياة وانح لنج ؛ وتتابعت يوماً بعد يوم ، والشيخوخة تخترمه وتذب في أوصاله ، وقال لنفسه أن حياته قد انتهت ، وأنه قانع بما راض عنها ، وكان تارة يذهب إلى الغرف الأخرى: وتارة يرى لوتس ؛ وكانت تقابله بترحاب لأنها كانت قد هرمت كذلك وقد سرها طعامها وخمرها والفضة التي كانت تطلبها ، وكانت تجلس مع لوتس ولا تفارقها ، وقد أصبحتا صديقتين تنانجان سوياً ، وتأكلان ، وتشربان وتنامان سوياً ، ثم تعودان إلى الحديث قبل الأكل والنوم .

وكان كلما دخل وانح لنج إلى غرف أولاده هرعوا لإحضار الشاي إليه ، وكان غالباً ما يسألهم قائلاً ، لأنه كان يسريع النسيان . كم حفيد لي الآن ؟

وكان أحدهم يجيبه على الفور .
إن أبناءك جميعاً أحد عشر ولداً ، وثمان بنات .

ثم يسألهم قائلا . أتذهبون إلى المدرسة ، وهل تدرسون الكتب الأربعة ؟
فكانوا يضحكون من كبره وجهله . ويقولون له :
كلا ، يا جدنا ، لا أحد يدرس الكتب الأربعة منذ الثورة .
وبعد فترة أصبح لا يذهب إلى زيارة أولاده ، إلا أنه كان ينادى كوكو
ويسألها : هل زوجات أولادى فى ونام ؟

وكانت كوكو تبصق على الارض ، وتقول :إنهما كاهرتين قرصدان بعضهما
لبعض ، وذات مرة سأل كوكو : ألم يسمع أحد ابني الا صغر أين ذهب ؟
وكانت كوكو تعرف كل شيء يحدث فى البيت فقالت له : حسنا يقال إنه
قد أصبح الان ضابطا عظيما فى شيء . يقال له الثورة فى الجنوب .

وكان وانج لنج يأخذ أحيانا خادما وفراشا ، وينذهب إلى أرضه وينام
فى بيته القديم المبنى من الطين ، وذهب يوما فى أواخر الربيع بجوس بين حقوله
ومر بمكان بجوار تل منخفض حيث دفن موتاه فأخذ يتطلع إلى القبور
الواحدة بعد الأخرى وتذكر كل من رقد فى ترابها ، لقد لاحوا فى خاطره
فى وضوح وجلاء أكثر من أى شخص آخر فيما عدا ابنته البلهاء (وزهرة
الكثرى) ، ثم فكر فجأة وقال حسنا .. سأكون هنا عاجلا .. ثم أخذ يحملق
فى قطعة الأرض التى سيدفن فيها وتخيل أنه موجود تحتها ، وأنه قد عاد إلى
باطن الأرض إلى الابد ، وغمغم قائلا : يجب أن أرى التابوت .

وأشترى له ابنه تابوتا من خشب خاص لدفن الموتى ، خشب لايبلى
كالحديد وبذلك هدأ بال وانج لنج .

واستقر عزمه على أن يعود إلى البيت فى الريف فى صحبة كل من (زهرة
الكثرى) والبلهاء والخدم الذين قد يحتاجون إليهم ، وأمر بنقل تابوته معه ؛
وهكذا اتخذ مسكنه مرة أخرى على أرضه .

وجلس وانج لنج فى الخريف فى المكان الذى كان يجلس فيه أبوه مستندا

ظهره إلى الحائط؛ ولم يعد يفكر في شيء الآن على الإطلاق إلا في طعامه وشرابه وأرضه .

وكان أحيانا يشكو قليلا من أبنائه إذالم يعودواكل يوم إلى البيت ، فقالت له (زهرة الكهثرى) : لديهم شئون كثيرة ؛ ولقد أختير إبنك حاكما في المدينة بين الأثرياء ، ولديه زوجة جديدة ، أما إبنك الاصغر فقد أخذ يؤسس لنفسه سوفا عظيما للحبوب .

وأصغى لها وانج لتنج ، إلا أنه كان ينسى مايقال كلما ألقى بنظرهعلى أرضه.. وذات يوم أدرك بوضوح وجلاء ، لفترة قصيرةما كان يحدث حوله ، وكان ذلك في يوم جاءه ولده ، وأخذ يتهاديان حول البيت في طريقهما إلى الأرض وتبعهما وانج لتنج في صمت ، فسمع إبنه الثاني يحدث أخاه قائلا . سنبيع هذا الحقل، وذلك أيضا وستقتسم ثمنهما بالتساوى .. إلا أن الرجل لم يسمع سوى كلمات(سنبيع الأرض) فصاح قائلا :

يا لكما من أحمق شريرين طاملين ، أتبيعان الأرض ؟ فأخذ يهدأته ، ثم قال له . كلا .. كلا . لن نبيع الأرض مطلقا .. فقال لهما : انها لنهاية أسرة . عندما تبيع الأرض . منها خلقنا ، ولإيها مرجعنا .

وانحنى ، وتناول قبضة من تراب أرضه ، وظل ممسكا بها ، وغنم قائلا : إن نهايتكما آتية لاريب فيها ، إذا بعنا الأرض ..

وامسك الأبنان بأبيهما ، كل من ناحية ، بينما كان يضغط بيده على تراب أرضه الدافئ ، ثم شرعا يهدأته ، وكلاهما يردد الواحد بعد الآخر .
كن مطمئنا ، يا ابانا ، كن مطمئنا . لن نبيع الأرض .

ولكنهما كان يتبادلان النظر والإبتسام من فوق رأس أبيهما .

(تمت بحمد الله)

الأرض الطبية ببيت

ترجمة

محمد جواد عفيفي

ليسانسيهف الأدب الإنجليزي - جامعة القاهرة
دبلوم معهد التحرير والترجمة والصحافة » »
دبلوم معهد التربية العالي للمعلمين - عين شمس

مكتبة الطبع والنشر مكتبة الصباح بالقبالة
تليفون ٧٦٦٩٢

كتب مترجمة للأستاذ محمد جاد عفيفي

١- قصة مدينتين عن تشارلز دكنز

٢- مستر بكويك د د د

٣- أوليفر تويست د د د

٤- قصص قصيرة لأعلام من الكتاب

٥- الأرض الطيبة عن بيرل بيك

٦- المساة القمرية د ويلكي كولنز

وتطلب من ملتزم الطبع والنشر مكتبة الصباح بالفجالة

لصاحبها : محمد كمال الدين صبيح



لقد وهبني الله الأرض، والزوجة، والولد...!

مقدمة

الأرض الطيبة: قصة الكفاح الذئوب ، والأمل المتؤب ،
والسعى الخئب لأءاء الواجب ا

هى قصة الأرض الئى يفبض بالخبر باطنها ، وبجلو العفن ظاهرها ،
وتشبع البئون غلئها ، وببءع ركب الحضارة معاءنها وذهبها وفئئها ؛
هى ببوع الءياة ورمسها ، ومهد الكائنات وقبرها ؛ تهاءاً فئبئسم لبئبها
وعلى وءبها نبء وزرع وأزهار ، وتغضب وتئور فئفجر من قلبها النار
والخراب والسما . .

هى الأرض القاسفة الءانية ؛ العنفة الرقبقة ؛ مباءنا ومنئئنا ؛
منشأنا ومستقرنا ؛ مسرح نشاطنا ، ومقر هءوئنا . .

الأرض مهبط الوءى والرسل والإنسان والءبوان والءشرات ؛
ومركز الءباة والعوافة والشبطن والآفات ؛ وبئنا خلقناكم ، وبئنا
نعبءكم ، وبئنا نخرجكم تارة أخرى . .

الأرض الطبفة: قصة الءاة الإنسائفة ؛ ذات الصور الربفة ،
والمشاعر البربفة الفطرفة ؛ قصة الصفن فى ربفها ومدئنا ؛ فى ءوعها
وشبعها ؛ فى هءوئها وانفعالها ؛ فى ءببها وئرائها . .

ءملب القصة : وانء لئب فلاح فقفر ؛ ربأى نور الءاة فى الربف ،
فالءبه ءباً ملك عبفه وءءائه وروءه ، وقءس أرضه وأخلص لها ،

(ت)
وجاد في سبيلها بما وهبته الحياة من نشاط وصبر ، وقوة وعزم ؛
يستيقظ من نومه فيهرع إلى حقله ، وينام فيحلم بأرضه ، يجد فيجنى ،
ويزرع فيحصد، ويقتصد فيثرى، يتزوج فيسعد ويرضى ، تخاصله زوجته
العمر كله ، وتلد له البنين والبنات ، وتعمل معه في حزم وصمت وثبات ،
حتى إذا ما واتهما الثروة ، وحالفهما الدهر ، نسي أهله وأرضه إلى حين ؛
أما هي فلم تبهرها الفضة والذهب ، ولم تكف عن العمل يديها في الحقل
والطين ! .

اتحد (وانج لنج) وزوجته (أولان) في الصفات والمشاعر ، ووجد
بين قلبيهما الفقر ، وما أسرع ما تتجاوب قلوب الفقراء ، وتبدو
شخصية الزوجة (أولان) أقوى من زوجها في كدها وكفاحها وصحتها ،
وظلت على حالها لم تتغير أو تتبدل ؛ ولذلك كانت (أولان) ذات طابع
فريد ، ووحدة متماسكة ، صهرتها الحياة في بوتقة الحزن الصامت الدفين ؛
فكانت لا تثرثر أو تهرف أو تنحرف ؛ ولا شك أنها ستحوز إعجاب
القارىء ، لما جابت عليه من خلال قوية ، وسمات وديعة رضية .

تغلب وانج لنج على ما اعترض سبيله من صعاب ، واجتث ما في أرضه
من أشواك ، وحالفه الحظ فاشترى أرض السيد العظيم (هوانج) الذى
كانت زوجته (أولان) جارية رقيقة في بيته . . وهكذا تضرب المؤلفنة
الأمثلة البديدة على أن النجاح ثمرة المجد، الصابر، العامل، الكادح، القانع
المقتصد ، الذى يحدوه أمل متجدد ، وتدفعه إلى الأمام غاية نبيلة .

بعد أن شبع وانج لنج وارتوى ، وصار من الأغنياء الموسرين ،
بهره بريق المال ، وأسره شهوة الحياة ، فانحرف عن الطريق المستقيم ،

(ح)

وهو الذى عاش طوال حياته مثلاً أعلى للسناجة ، وطيبة النفس ،
ووداعة الروح ؛ لا يعرف من النساء غير زوجته وأم أطفاله ، لا يمينه
قبحها قدر ما تزدهيه أخلاقها ، ولا تستهويه أنوثتها أو تضايقه خشوتها
وإنما يسبى عقله طهيها ونظامها ومعوتها وبعد أن أصبح لديه المال
والولد ، والصحة والفتوة ، والفضة والذهب ، طغى وانج لنج وتكبر ،
ونسى سنوات البؤس والشقاء والمجاعة والتحط ، ورحيله إلى الجنوب
يكدم ويستجدى ، يرضى بأكلة ، ويهنا بكوخ ، ويسعد بدرهم ، أو حفنة
من أرز أو قح ؛ نسى هذا الشقاء كله ، ولم يعد يتذكر شيئاً سوى ماله ؛
فاحتقر زوجته ، ورماها بالقبح والدمامة ، وعيرها بالخشونة والقذارة ،
وأخذ منها لؤلؤيتها اللتين ادخرتهما لوقت الحاجة ، وأصدق هداياه على
(لوتس) تلك المرأة المرححة اللعوب ، الحية الرقطاء ، الناعمة الطروب ؛
فزوجها وأفرد لها فى بيته جناحاً يفيض بالنعيم والأثاث والرياش ؛
ونهشت الغيرة قلب امرأته (أولان) إلا أنها لاذت بالصمت ، تشكوهما
الدين إلى ربها ، لعله يعيد إليها زوجها ، ويحفظ عليها أمنها ، ويق من
غوائل الدهر أبنائها

وهكذا أرادت المؤلفة (بيرل بك) أن تبين لنا أن المال والنساء هما
غايه الإنسان المنشودة ، إذا كانت نفسه عاطلة كسولة

ظلت الكوارث تترادف على وانج لنج ، فنضب معين أرضه ،
وأرسل الله إليه عمه وزوجته وابنهما ليعيشوا حالة عليه ، يحطمون من
صرح سعادته ، ويأتون على بقية ماله وثروته ؛ وصدم والده الشيخ المحطم

(٥)

من هول الفاجعة ، عند ما علم أن ولده قد تزوج ثانية ، وأنه أصبح متلافاً مبذراً . . .

تيقظ ضمير وانح لئيج متأخراً ، إذ كان ذات يوم وسط حقوله ، وقد انعكست عليها أشعة الشمس فكستها بلون فضي جميل ، فصرخ هاتفاً من أعماق قلبه ، ومزق سرواله الحريري ، ولطخ نفسه بالطين ، وعاد إلى (لوتس) فلاحاً من رأسه إلى أخمص قدميه ، فأشاحت بوجهها عنه ، ونأت بروحها منه ، ولكنه لم يعبأ بها ، أو يكثر لها ، فقد عاد حينه إلى أرضه ، ونازعه الشوق إلى حقله ، فعاد ينظم حياته ، ويعوض مافات ، ويصلح ما أفسدت يده ، ويبني من جديد ما حطمه غرامه وهواه ؛ فعكف على رعاية أبنائه وتربيتهم ، وعمل على هئاءتهم بتعليمهم وتزويجهم ، وهرع إلى بيته الريفي بعد أن ماتت زوجته الريفية أولان ، ووالده الشيخ وصديقه الوفي (تشنج) ، وبعد أن قضى الله على عمه الشرير اللص ، وزوجته الماكرة الخبيثة ، وابنه الأفاق المتشرد .

عاد إلى أرضه الطيبة ، يتنسم هواءها ، ويمتع نظره بمخضرتها ونباتها وزهرها ، ويشنف آذانه من موسيقى جداولها المترعة بالماء ، وطيورها الصداحة بالغناء . . .

عاد إلى أرضه أصل حياته ، ومصدر ثروته ، وصرح سعادته ، وأمل أسرته ، وعتد ما عاد إلى أرضه ، عاد إلى دينه ، وفكر في آخرته وكان نفسه كانت تقول له : د ما أجمل الدنيا والدين إذا اجتمعا ، وأدرك أن السعادة ليست اكتناز المال ، وحبسه عن المعوزين والمحتاجين ، وإنما السعادة راحة البال ، ورضاء الضمير ، والصحة الطيبة ، وأداء الواجب ،

(هـ)

والتمسك بالشرف ، والمخلق القويم ، وأن الحياة في سرائها وضرائها ،
ونعيمها وشقائها ، هي هي الحياة . . .

هذا الإطار الريفى الجميل ، رسمته لنا المؤلفة النابغة (بيرل بك) بريشتها
الصناعى فى صورة أنيقة عميقة ، ولوحة جميلة رشيقة ، نالت بها إعجاب
الأدباء ، ورجال القصة ، فتوجوا هامتها بجائزة (نوبل للسلام) ، لأمانتها
فى الوصف ، وأسلوبها القصصى السلس ، وثقافتها الرفيعة ، وهدفها
الإنسانى النبيل ، الذى تتركز عليه روايتها (الأرض الطيبة) فهى لم
تكتب قصة من وحي الخيال ، وإنما عاشت فى الصين ، وخبرت أهله ،
وأحست بظلمهم وشقائهم ، وانفعلت بإحساسهم ، فكتبت ما رأت
وما أحست فى صدق وإخلاص . . .

ولقد ولدت المؤلفة فى بلدة هيلز بورو بولاية فرجينيا الغربية بأمريكا
سنة ١٨٩٢ ، ومكثت منذ طفولتها فى الصين ، وغادرتها أعواماً قليلة
لتتم تعليمها فى وطنها أمريكا ، حيث نالت أرفع الدرجات العلمية التى
أهلتها للعمل فى الجامعات الصينية ، وقد كتبت قصصاً وروايات عديدة
منها (ريح الشرق) و(الأم) و(آلهة آخرون) ثم وصفت أهوال الحرب
العالمية الثانية فى روايتها (بذرة الفول) ثم أسست جمعية
(الشرق والغرب) وغرضها محو الفروق بين الغربيين والشرقيين . .

ولامراء أن روايتها (الأرض الطيبة) قد أكسبتها شهرة عالمية ،
وأصبحت بها نجماً لا يخبو نوره . . واحتلت مكائتها فى مصاف ديكنز
وشارلوت برونتيه ، وأميلي برونتيه ، وجين أوستن ، وفرجينيا وولف
من أعلام القصة الإنجليزية ؟

محمد باد عفيفى

مركز الطبع والنشر مكتبة الصباح بالجمهورية
تليفون ٧٦٦٩٢

